الحب من سقراط إلى سيمون دي بوفوار

الفلاسفة والحب

ماري لومونييه

أود لانسولان



ترجمة: دينا مندور

ماري لومونييه وأود لانسولان

الفلاسفة والحب

من سقراط إلى جان بول سارتر

ترجمة دينا مندور



الكتاب: الفلاسفة والحب
تأليف: ماري لومونييه وأود لانسولان
ترجمة: دينا مندور

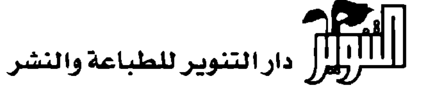
عدد الصفحات: 264

الترقيم الدولي: 978-977-6483-33-0

رقم الإيداع: 2015/9810

الطبعة الأولى: 2015
هذه ترجمة مرخصة لكتاب:
Les philosophes et l'amour:
Aimer de Socrate à Simone de Beauvoir
de Aude Lancelin et Maire Lemonnier

الناشر:



مصر: القاهرة-وسط البلد -19 عبد السلام عارف (البستان سابقاً)-الدور 8-شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 24، نهج سعيد أبوبكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com



استفاد هذا العمل من مساندة برامج دعم النشر الخاصة بالمعهد الفرنسى و برنامج طه حسين الخاص بسفارة فرنسا بمصر.

Cet ouvrage a bénéficié du soutien des programmes d'aide à la publication de l'Institut français et du programme Taha Hussein de l'Ambassade de France en Egypte.

المقدمة

ثمّة فكرة سائدة بأن الفلسفة والحب لا يجتمعان! ويقطن كل منهما في غرفة منفردة، منذ العصور الحديثة على الأقل. فالحب، هو ذلك الشعور المبهج بين كل المشاعر الأخرى، والصامد في مواجهة المنغِّصات التي تُغرق العالم. فكيوبيد ذو الطبيعة المزدوجة؛ الرقيق والعدواني في آن! الذي تخفي أجنحته قوساً وسهماً قاتلين، سيلحق ببقية الآلهة في مقابر السخافات. في حقيقة الأمر، كسبت التقاليد المتشائمة للأخلاقيين الفرنسيين معركة الحب. وتحت غطاء الرومانسية السخيفة تقبع حقيقة الجنس والحسابات والرغبة في التسلط التي تتقنّع بفجاجة، أي أن العاطفة لا تستحق حتى ساعتين من التفكير فيها. وإذا تطرقنا لموضوع بهذه الأهمية في حياة البشر، فلن يكون من المدهش اكتشاف أن الحب أصبح كالصحراء المهجورة من قِبَل روائيي العدميّة الجنسيّة، وعلماء الاجتماع الذين ينتمون لتيار «الارتباك العاطفيّ» الجديد، والتقوى الزائفة. لم يحاول أحد مواجهة الرؤى المختلفة للفلاسفة حول الحب، لدرجة أن المرء قد يكتشف مزيداً من العمق في الحديث عن الحب في الأغاني الشعبية عنه عند المفكرين المعاصرين.

تلك السطحية التي عبّر عنها آرثر شوبنهاور من قبل، وبقوة، من خلال كتابه "العالم إرادة وتمثّلاً" الصادر في عام 1818. «لا بُدّ وأن تظهر علينا إمارات الدهشة لأن موضوعاً يحتل دوراً بهذه الأهمية في الحياة الإنسانية لم ينظر له الفلاسفة بعين الاعتبار حتى الآن، بل ويقدَّم إلينا كما لو كان مادة لم تتم تجربتها بعد». هناك بعض المبالغة، بلا شك! لقد سخِر الفيلسوف الألماني الغضوب، حتى إنه اختزل التأمّل الأفلاطوني في مجرد فعل جنسي لواطي إغريقي. إلا أن هنا نقطة غامضة. هذا التناقض في أن الفلسفة، الناشئة عند الإغريق مع موضوع الحب، وترمز لها صورة فينوس عارية وهي خارجة من القوقعة، تنكر هذا المصدر! فقد أكد سقراط أن كل الموضوعات المتضمنة في مأدبة أفلاطون تتعلق بإيروس. وهوإعلان مبشّر لم تعقبه أية تأثيرات أخرى. ربما علينا انتظار كيركيجارد كي يصبح الحب من جديد أسلوباً لفهم الحياة.

ومع كون الحب الظرف القَدَري للسعادة عند غالبية البشر، والعنصر الدائم لكل أشكال الدراما الأدبيّة، إلا أن الفلاسفة قد أثاروه بتحفُّظ يشبه من يدخل إلى قفص الأسد ويخشى أن يؤكل حياً. قد نستطيع أن نعطي بعض التفسيرات لما نلاحظه، فقد نفهم أن الفلاسفة يطالعون تلك العاطفة الغريبة بكثير من التعقّل لأنهم مشغولون بتحرير الإنسان من كل أشكال العبودية العقلية، فيما يؤدي الحب بالإنسان إلى الموت كَمَداً. ونلاحظ عند فيلسوف ظهر في القرن الأول قبل المسيح مثل لوكريس، وألهمته الفلسفة الإغريقية أن الفلسفة تهدف إلى تخليص الإنسان من المتاعب. وكما تؤكد عبارة أبيقور: «يكون خطاب الفيلسوف خاوياً إذا لم يساهم في شفاء ألم النفس». وكما نعرف

فإن أنظمة الفلسفة الحديثة تدير الظهر بشكل أوبآخر لهذا الانشغال «بالحياة المريحة». ولكن الأثر القديم استمر إزاء الحب والمشاعر الغامضة بشكل عام والمتمثِّل في الحرص على وقاية النفس بعناية مطلقة في مواجهة تلك الطاقة الخارجة عن السيطرة.

ومع ذلك يبدو الحب مقاوماً لكل أشكال العقلنة. وهو ما يسمح بفهم الارتياب الذي يسببه هذا الشعور للفلاسفة. فالحب مقترن بالرثاء والحوادث الغامضة والرواسب النفسية، وكلها أمور لا تشرق عليها شمس العقل، لذلك فالحب لم يكن ليمثل موضوعاً عند الفلاسفة. فيما كان موضوعاً مسلياً في الأدب. وهكذا تحدث الفلاسفة عن الحب بازدراء ذكوري وهاجموا كل من يرفض تحليلهم. حتى وإن كانت تلك الصورة النمطية لطيفة، فإنها ليست خادعة بما يكفي. ولا يجب أن ننسى أبداً أن الخطاب الفلسفي مكتوب بأياد ذكورية. ولا يستطيع أحد الجزم بما سيكون عليه الأمر مستقبلاً إلا أن هذا هوالوضع الحالي. باستثناء حنَّة أرندت وسيمون دو بوفوار لم تظهر أخريات غيرهن في حالة فلسفية خالصة، لذا فلا داعي للتعجب إذا لم نسمع في هذا الكتاب سوى صوت نصف البشر. وإذا كان الحب موضوعاً مندرجاً في إطار الفلسفة فإن هذا يعد أمراً مسلَّماً به، وإن كان يستحق أن يوضع موضع التساؤل. وهنا تجدر الإشارة إلى أحد النادرين من الفلاسفة المعاصرين الذين تناولوا موضوع الحب وهو آلان باديو وعرَّفه على العكس من سابقيه بأنه «نتاج الحقيقة»، وخبرة ترتكز على فعل «اثنين» واستهلال يتحقق بلقاء استثنائي، وبالأحرى بـ «إعلان الحب»، ومرحلة فارقة تميّز النشاط الاستمنائي الخالص. أيعني ذلك أن الكثير من الفلاسفة لم يعرفوا اختبار الحب؟ كلا فيما

يبدو، وتلك هي قضية هذا الكتاب. محاولة متواضعة للنظر في هذه النقطة بعدالة، على طريقتهم المرتبكة أو المختالة، واللاذعة في معظم الأحيان، بل والعدائية الشرسة التي انتهجها بعضهم، والحديث عن كل ذلك بلهجة حاسمة. فجميعهم في الحقيقة لديهم ما يقولونه لنا عن الحب، وعما يصاحبه من وهم وخلود، وما يولِّده من معاناة، وعن الطريقة التي نطمح بها لترويضه.

إلى جانب رأيٍ آخر يقول بأن الفلاسفة والكتّاب هم فقط الذين لم يؤسسوا أبداً حقائقَ صلبة على هذه النقطة. وتعد هذه النقطة هشّة وغير مدعومة بمعلومات كافية. لم يعترف مؤلف علاقات خطرة الكاتب دو لا كلو بأساتذة له سوى روسو، ثم ذهب إلى تولستوي، مؤلف آنا كارنينا الشهيرة، حيث الوصف الدقيق لكيف يمكن للعشق أن يجرَّ جمالاً طاهراً نحو السقوط في كآبة لا تنتهي. كما أننا لا يمكننا إغفال إنبهار شوبنهاور ببروست، الذي كان ظاهرة لا مثيل لها في الغيرة والغَمّ العاطفي. كذلك هل ينبغي أن نذكِّر بأن بعض الفلاسفة المذكورين في هذا الكتاب كانوا روائيين عظاماً تحدثوا عن الحب؟ مثل الإلياذة الجديدة لروسو، التي كانت أول بست سيللر في التاريخ، والتي أثار فيها ما تميز به عصره من مشاعر. كما أن كيركيجارد ظل يُقرأ إلى اليوم باعتباره كاتب «يوميات مغوٍ». أما عن سيمون دو بوفوار، فنستطيع، بسهولة، الجزم بأن التشريح القاسي في رواية الضيفة قد عرّى بشكل فارق الأخلاقيات التحررية لحي السان جيرمان دو باري الباريسي الشهير، أكثر مما فعلت المشاهد الطويلة في كتابها الجنس الثاني.

وقد يكون من المغالطة اعتقادنا بإمكانية استخلاص اتفاق بين الفلاسفة حول مسألة الحب. فلا وجه تشابه بين الإذعان الكامل

الذي أوصى به شوبنهاور، والسموّ المطلق الذي نادى به روسو. فهما تياران، متباينان كلياً، وتعايشا على الرغم من ذلك. وعلى إثر فولتير ومقالته «حب» في كتابه قاموس فلسفي، نستطيع أن نجسّدهما باسمين رمزيين، حيث قال إنه مهما يكن من يريد أن يختبر «تلك المادة الفلسفية بعض الشيء» لا بُدّ وأن يتأمل المأدبة لأفلاطون، والتي كان فيها سقراط عشيقاً مخلصاً لألسيبياد وأجاتون، وكان يتحدّث معهما حول «ميتافيزيقيا الحب». أما الآخرون، ذووالمزاج الأقل حساسية، فقد مالوا ناحية لوكريس الذي «تحدث عنه كما يتحدث الفيزيائي» كما أكد الفيلسوف دو فيرني. إذن فهما محوران للرؤية متعارضان جذرياً. ما من شيء مشترك في الحقيقة بين أفلاطون الذي يجتهد ليرى في شرور الحب الطرف المقابل الذي لا غنى عنه للاحتفاء اللذيذ وللّاأخلاقية التي يوفرها الحب للبشر، أما لوكريس فهومن دعا إلى إدمان العلاقات الجنسية المفتوحة هرباً من خطر العاطفة المستمرة. فمن ناحية، ها هو السحر الأبيض للحب، ومن ناحية أخرى سحره الأسود. من جانب نجد الفكرة القائلة بأن من عاش ساعة واحدة أو عشرين سنة يهدف إلى الخلود، ومن جانب آخر فكرة أن الفتنة الفتّاكة التي لا تقود إلّا نحو الهلاك والتي ينبغي القضاء عليها بالضرورة، تكمن هنا. لم يجسّد أي من اللاحقين لأفلاطون ولوكريس الاتجاه الفكري لأيّ منهما على نحو خالص، بل ضربوا مثلاً في السيطرة عليه بطريقتهم.

حقيقة أخرى تتجلّى مع الأسف في أيامنا هذه، وهي أن الوجه التافه واليائس للحب يبدو وكأنه المنتصر. وهو ما صدّقه الفيلسوف الألماني تيودور أدورنو، المتوفّى في عام 1969، من بعدها انعدمت الفرص «لرؤية أبواب السماء السابعة تنفتح». في المجتمع المعاصر «اختُزل الحب في

العدم»، من الذي أضفى العتمة على أنوار الإيروتيكية الإغريقية إلى هذا الحد، وألقى بالحب الغزلي إلى دهاليز التاريخ الخلفية؟

ومع نزعة الاختزال العلمي في الأزمنة الحديثة، فرض الانفصال بين الحب الجسدي والحب الروحي نفسه، وفقاً لما أكده أدورنو. حيث متعة أعضاء الجسد من ناحية، والتهيئة العاطفية من ناحية أخرى. ثم أضاف «إن هذا الانفصال الذي مَكنَنَ المتعة وشوّه العاطفة بوصفها خديعة، من شأنه أن يصيب الحب في مركزه الحيوي[1]». فجسد من جديد خطيئة الماضي في الصورة التالية: «إنسان عملي وتواصلي، يطبّق إيمانه بفضيلة العادات الصحية وممارسة الرياضة حتى في حياته الجنسية». فأصبح الحب شأناً فسيولوجياً بحتاً. «علاقة سوائل» كما قال بول فاليري.

وهكذا، فقد تراءى للبشر الاعتقاد في «الجنسانية». فهي نشاط لطيف، ومرح، ولا يتضمّن أي تحديات حقيقية. ترى هل تحررت تلك الأيديولوجية الجديدة من القلق الذي كان يُعتبر ثقلاً على الحب الشهواني منذ سقوط آدم من الجنة وفقاً للتوراة؟ لا شيء مؤكدًا، فكلما بدا المخدر الأخلاقي moraline[2] قادراً على أن يحيا في لزومية النشوة، أصبح التحرر ضاغطاً بطريقة أخرى. ففي عصر «إيروس المركزي» والميل الجماعي نحو المتعة المؤقّتة، تضاعف الحب بالقسوة، وبات

(1) La dialectique de la raison, coécrit avec Max Horkheimer, Gallimard , 1974.

(2) هي كلمة اشتقها نيتشه تجمع بين كلمة morale أي الأخلاق، والمقطع الذي تنتهي به تسميات المخدرات مثل الكوكايين والهيروين فسمّاه moraline (المترجمة).

كل جسد يحيا، بقلق بالغ، كما لو كان قد حل محله جسد آخر، من دون أن تحميه مؤسسة الزواج «الدائم»، الذي عرّجت مساره الديانة المسيحية. تحميه من أن يحيا كشخص بديل وقابل للاستبدال. وهكذا يكون الجنس مسيطراً على المجال العقلي المعاصر وفي الوقت نفسه مسلوب من كل ما يجعل منه مثيراً وغرائبياً. بذل التحليل النفسي الكثير لجعل العقول تعتاد على كشف مثيرات جنسية فيما وراء كل فعل وكل حديث. ألا نستطيع، بشكل عكسي، أن نعتبر أن الليبيدو هو الذي يحجب كل التحديات الأخرى؟ تلك هي إحدى أقوى وجهات النظر التي دافع عنها نيتشه، مؤكداً أنه «بالنسبة لعاشقين بالمعنى القوي والكامل للكلمة «الإشباع الجنسي» لا يعد شيئاً أساسياً، ولكنه، يعد رمزا فقط».

هل تُعد فلسفة الحب أرضاً لإعادة الاستثمار وللدفاع المحموم، إذ تنطلق منها مقاومة للعدميّة التي تهيمن عليه وتبدو، مع ذبول الفعل الجنسي واختزاله في مجرد تحرر مريض، كأنها وجدت ما تحتاجه من أسلحة للتدمير المكثّف؟ وينطلق منها تحدٍّ سياسيّ أيضاً؛ حيث يتعارض منطق الحب مع العقلنة الواضحة للسوق، وحيث يعتبر كل إنسان نفسه مجرد عنصر جزئي غير متميز ومدعوم بقانون الحسابات الأنانية فقط. ومع كونه غير مسؤول وعنيف، يرتبط الحب بعلاقة أخرى مع العالم. ولا يمنع أن نتوقع منه نظرة مغايرة «لاختلاف الجنسين» تكون أكثر صلة بالموضوع إذا ما قورنت بنظرة مفروضة من شخص نسويّ. فالنساء ليسوا كالرجال في الحرب الإيروتيكية، والعكس بالعكس. حتى في وقت الارتباكات الاعتبارية والأحكام المسبقة في عصر الفلاسفة، وحتى في القلق العميق الذي يفشيه بعضهم في

مواجهة السطو النسائي، كل من سنقابلهم في هذا الكتاب أسهموا بطريقتهم في إيضاح هذا التحدي.

قل لي كيف تحب وأقل لك من أنت. فهناك العديد من أنواع الحب؛ نزوة الأيام المعدودة، الاستلاب المقيَّد، الفتور المستمر، الجموح الخاطف، الاعتياد البارد.. ولم يفلت الفلاسفة من كل تلك الأنواع، مما يتيح عيّنات استعراضيّة لكل تلك السلوكيات. هل ينبغي ونحن نتأمّل مذاهبهم أن نمزج معها «جرعة الأسرار» المعروفة؟ إنه لأمر ضروري للغاية حتى إننا لم نطرح السؤال على أنفسنا. وهناك استخلاص مثير فرض نفسه شيئاً فشيئاً: نحن لا نبرر ولا نوضِّح فكر كاتب ما من خلال حياته. فما من أيّ علاقة بينهما. فقد يشعر القدماء بالدهشة إزاء وضعية معَيَّنة، بينما يقدّرون الفكر المساند للقوة الداخلية لمن وضعها. ومنذ الأصل السقراطي، فإن الذوبان هو ما تهدف إليه الفلسفة في الحقيقة.

إن مسألة الصلة البيوغرافيّة تفرض نفسها بشكل أقل في حالة الحب عنها في حالة الحدث المجهول، أو الكارثي، للقاء ما، وفيه يقرر أي التفاف سيقوم به الفكر حوله. فمن مونتاني إلى كيركيجارد مروراً بروسو، فإنهم جميعهم، بلا شك، مزجوا بين عذاباتهم وانتصاراتهم الشخصية وفلسفتهم. فصنعوا منها شكلاً من السيرة الذاتية إرادياً تماماً. فقد كتب نيتشه: «إنني أكتب كاملاً بجسدي وحياتي ولا أعرف ما تعنيه مشكلات عقلية بحتة». إن الفكر المتعلّق بالحب كُتب بدم الفلاسفة، وبعوائقهم الفرديّة، وأعصابهم، وبحظّهم. وحظي بالثقل والاهتمام. كتب فرويد في خطاب مؤرخ بـ 17 مايو 1914 إلى إرنست جونز: «أيّاً يكن من يَعِد الإنسانية بتحريرها من تحديات الجنس فسيُقابَل مقابلة الأبطال- هراء!». لن نقول إن الفلاسفة يتفوّهون بهراءات عن هذا الموضوع. بل سنترك للقارئ مهمَّة تقدير ما إذا كانوا يعرفون مداواته من آلام الحب.

-1-

أفـلاطـون

أنشــودة الحــب

«هنا الخير الذي ترغب فيه كل روح

هنا السكون الذي يتطلع إليه كل شخص،

هنا الحبُ، والسعادة ها هنا

وهنا، يا روحاً في أعالي السماء!

تتطلعين إلى صورة البهاء

الذي أعشق في هذا العالم».

يعدّ كتاب أفلاطون «المأدبة» Banquet ، كتاباً افتتاحيّاً وغرائبيّاً، حيث رسم معالم الرؤية الغربيّة للحبّ طوال القرنين التاليين لظهوره. وقد لاحظ المحلل النفسي جاك لاكان Jaques Lacan، أنه «ساخر» لدرجة أنه لم يظهر، مذّاك، أي تصوّر للتفكّر أوالتأمّل الديني للرغبة، من دون أن يستند إليه كمرجع، رغم أنه «قائم على تجمّع من اللوطيين[1]».

يمثل الكتاب «جلسة السُّكر الجماعية» التي تدور في منزل أجاتون، الفائز في مسابقة للشعر التراجيدي، في الليلة السابقة للسهرة، حيث تجتمع ثلة من الشباب المنحرفين المخمورين، وبعض الكهول المثليين المنتمين للطبقة الأرستقراطية في أثينا، ومعهم سقراط أيضاً، البالغ من العمر 53 عاماً، آنذاك، وعدوه اللدود الشاعر الكوميدي أرستوفان، إلى جانب، كاهنة، غريبة، تحضر معهم هذه الجلسة على غير العادة. ومع كونها غائبة جسديّاً، إلا أن ديوتيم دومانتيني، كانت هي الشخصية المحوريّة لـ المأدبة، خاصة بعد أن اختار سقراط أن يكون هوالصوت المعبِّر عنها، على الرغم من سمعته بأنه ثرثار أكثر

---

(1) Jaques Lacan, Le Séminaire, livre VIII, "Le transfer",Seuil, 2001.

منها. كانت حاضرة باعتبارها "الخبيرة"، حيث اعترف الفيلسوف بأنه أمسك بالعلم الوحيد الذي تمتلكه، أي بحقيقة الحب.

ها هو الحكيم الإغريقي الكهل، متآمر أكثر من أيّ وقت مضى. ومع كونه مثليّاً، إلا أنه كان على علاقة بامرأة سليطة تعيش معه، تدعى كسانتيب. وقد رُزق منها بطفل، اسمه لامبروكلي. كانت توبِّخه لكونه مفكّراً، إذ ترى أنّ مهنة المفكّر مهنة خطرة ولا تدرّ المال الوفير. وكثيراً ما أثارت المقالب اللطيفة في زواجه مزحات كانت تُتداول في عصره. ومن أشهرها قصة الاستحمام التاريخيّ الطريفة، حين ألقت كسانتيب بدلْو من الماء الآسن فوق رأس سقراط، وجاوبها هو بعبارته: «كم من مطر خفيف غلب رياحاً عاتيةً!». لا نعرف الكثير عن أبي الفلسفة. غير أنه ولد في أتيك في ألوبيس عام ٧٤٠ قبل الميلاد، وهو ابن لأب نحّات وأم قابِلة. وسوف يقارن سقراط في ما بعد بين نشاط أمه وبين نشاطه الفكري، إذ يقول عن نفسه: «أنا مُولِّد أرواح»، ويقولون عنه إنه تلميذ لأناكساجوراس، مثل بيركلي. وهناك ملحمة أخرى تذكر أن له زوجة ثانية، تدعى ميرتو، رزق منها ابنين هما سوفرونيسك ومينيكسن. كل الشواهد تشير إلى أن إشاعة زواجه من أكثر من امرأة، والتي روَّجها أرسطو وديوجين لايرس، لم تكن تهدف إلّا لتشويه سمعة هذا الرجل الغامض الذي يعرف الجميع أنه حُكم عليه بشرب السم بتهمة الإلحاد والتغرير الفلسفي بعقول الشباب القُصّر. هذا على أية حال هو البورتريه الذي رسمه له تلميذه أفلاطون في حواراته الستة والعشرين التي خلّدت سيرته.

ووفقًا لرواية مؤسس الأكاديمية، وفي ما يتعلق بتلك السهرة التي كانت مخصصة للاحتفاء بأجاتون، فإن سقراط قد قايض ثيابه الرثّة

بثوب نظيف وأنيق، وانضمّ متأخراً إلى الثلّة المرحة. كان النبيذ ينساب طوال السهرة، واتفقوا على إقامة مسابقات شفاهيّة أقلّ إنهاكاً لمدعوّين حلُّوا ضيوفاً منذ ثمانٍ وأربعين ساعة. وعادة ما تشكّل الممارسات الراقية جزءاً من هذا النوع من الاجتماعات، إذ يسودها الحوار أكثر من ممارسة الحب. المسألة تبدأ وكأنها لعبة يتنافس فيها ستة متنافسين والفائز هو صاحب أفضل مديح في الإله إيروس.

هذا الإله الذي يتضح من خلال سمات «الفضيلة» على لسان فيدرا، التي حكت ، في تراخٍ، عن الشاعر هزيود. أكدت فيدرا أنه: «إله عظيم مثل إيروس»، وأضافت أنه بلا أب ولا أم، ولم يسبقه سوى العدم، ولأنه أقدم الآلهة فإن نِعَمه هي أعظم النعم. وتضيف أن الحب يدفع بالإنسان نحو التصرفات الصائبة، إذ إن الإنسان لا يستطيع أن يفقد شرفه أمام محبوبه، حتى في لحظات الموت. وأن جيشاً من العشاق لقادر على هزيمة جيش لا يُهزم. ثم يأتي بوسانياس ليصف الحب بأنه «مزدوج»، وهو الذي ميَّز إيروس النبيل، الذي ينصبُّ اهتمامه على الروْح التي تحجبها الأجساد، عن إيروس العامّيَ. والحب هو علاقة بين الإنسان والرب، وفقاً لرؤية أريخيماكوس، الذي يحمل بداخله صورة «هذا الرب الإعجازي، ذا الفعل الكونيّ». يعد هذا الطبيب نموذجاً دقيقاً لنصير الفلسفة الوضعية، على الرغم من أن التزامه بها التزام معتدل. وعادة ما يحمل إيروس الرخاء والصحة، إلا أن الأوبئة تنقضّ مع الإفراط والمبالغة. وسوف يصفها أرستوفان في «الحب - الاندماج»، ثم يقدم للصحبة «ملحمة الأفلاك» الرائعة وسط نوبات من الضحك.

هل تعبِّر قصة أرستوفان أو ملهاته عن البعد التراجيدي للمشاعر العاطفية؟

الكاتب ميشيل ووليبك، سيرى يوماً ما، أن كتاب «المأدبة»، الملعون، هو ذلك العمل الذي «سمَّم الإنسانية» حين قدم لها «حنيناً للماضي لا يمكن مداواته».

نصف البرتقالة

كم أن التاريخ غريب ونافذ الرؤية في آنٍ واحد! وكم من منحنيات كبرى تعرّض لها! يرى أرستوفان أن الإنسان في الأصل كان فَلَكاً، وكان يتجلّى في ثلاثة تمثّلات هي: ذكر وأنثى وخنثى. ويشتمل الأخير على اثنين آخرين. إذ يمتلك أربع أيدٍ، وأربعة سيقان، ووجهين، ورأساً واحداً، وعضوَيْ تناسل، وكي يتوالدوا، اتحدوا على الأرض كما فعلت البطاريق. وحين يركضون كانوا يبدون ككرات تتدحرج على الأرض. وهكذا انتظموا في فريق، وامتلكوا قوة رهيبة أصابتهم بالغرور، ودفعتهم لتسلق السماء ومحاربة الآلهة، التي وجدت نفسها في حيرة حقيقية. فإما أن تقتل البشر وتفقد القرابين التي يقدمونها لها، وإما أن تتسامح مع هذه الفظاظة وهو أمر غير مقبول. حينئذ قسمهم زيوس إلى قسمين «كما تقسم الشعرة البيضة!».

أخذ أبولو يدير الوجوه ونصف الرقبة ناحية القطع، حتى يظل الإنسان، في حياة الخلود، محتفظاً بذكرى عقابه أمام عينيه ويصير أكثر خزياً. ثم يجمع الرب الشافي الجلد المعلق على البطن بأكمله، ويثبته بقوة «كما نثبت أكياس جمع الثمار في الحبل الذي يحملها» ولا يترك غير فتحة صغيرة نطلق عليها اليوم تسمية السرّة.

عاش البشر مشوّهين وهم أنصاف، فحاولوا من دون جدوى أن يجدوا أنصافهم الأخرى ليتحدوا معها، فيتبادلوا القُبل والأحضان. ولد إيروس من هذا الافتقاد الذي جعلهم يحنّون إلى من فقدوهم. كما

تولّدت من الشعور ذاته، بحور الشعر والأدب الوفيرة التي ظهرت منذ القدم: فالإنسان، في الأصل، كيان ناقص، وعليه أن ينطلق بحثاً عن «نصف البرتقالة» علّه يجد السلامة.

ولكن مع هذا الموقف البائس، وفي خضم بحثه عن اكتمال كيانه، يرفض أن يظلّ نصفاً دون الآخر. فالأنصاف ترضى بالموت جوعاً. وحين يموت نصفٌ فإن النصف الآخر الذي كان يخبيه يبحث عن نصف آخر جديد ليعانقه. ثم يخبو الجنس البشري شيئاً فشيئاً.

أما زيوس فقد أخذته الشفقة بهم، وخشيَ أن يفقد عشّاقه، فبدّل لهم أعضاءهم الجنسيّة من الخلف إلى الأمام. فأصبحت المتعة الجنسية لا تساعدهم على الإنجاب حين يكتمل الاتحاد بين الذكر والأنثى فحسب، بل تمنحهم وسيلة مداواة ألمهم، وتواسيهم في فقدهم المريع أيضاً. وتصير النشوة هي نسيان الذات الزائلة لصالح ذكرى النقصان الدائمة التي تجتاحهم. إنها برهة من الراحة الشاطحة والنابضة.

ومع كون العناق متعذراً، لغياب المعشوق جسداً، فسيحتل أفكارنا، بدافع من الضرورة ذاتها، وننشغل به. وكما كتب رولاند بارت Roland Barthes في» شذرات من خطابات عاطفية[1]» فإن العاشق الذي لا ينسى «أحياناً»، يموت بسبب الجموح الفكريّ، والتعب، وعبء الذّكرى. حتى وإن ظلّت بعض لحظات «عدم الوفاء» الذّهني ممكنة، فسريعاً ما نفيق من النسيان، ويصدر صوت واحد عن الجسد، يعبّر عن كل مشاعر الغياب: إنها التنهيدات. ويكمل بارت قائلاً: «إن نصفَيّ الخنثى يتنهّدان النصف تلو الآخر، وكأن كل تنهيدة، ناقصة، ترغب في الذّوبان في الأخرى: إنه العناق، الذي طالما امتزجت من خلاله

(1) Roland Barthe, Fragments d'un discours amoureux, Seuil,1977.

الصورتان لتصبح صورة واحدة». ويمثل المرء، من خلال هذا الغياب العاطفي، صورة مجتزأة جافة، ذابلة، منكمشة على نفسها. كنصف فلك لن يكتمل بالاستدارة أبداً.

ومع الاعتقاد في نظرية أرستوفان، الذي لا يبدو مجنوناً بدليل أن غالبية البشر يحملون بداخلهم هذا الاعتقاد اللاشعوري منذ تلك الدراما الأوليّة، فسوف نحيا مدفوعين نحو البحث عن «توأم الروح»، إذ يعيد لقاؤه طبيعتنا الأولى، ويؤكد على سعادتنا. إننا محكوم علينا بالحب. ويقول أفلاطون ساخراً: «ها هم أُناس يقضون حياتهم معاً من دون أن يستطيعوا البوح بما ينتظره كلٌّ واحد من الآخر!».

بعد عدَّة قرون، صارت تلك الملحمة التأسيسية بمثابة الأثر لأندريه بروتون André Breton، في كتابه «الحب المجنون[1]»، من خلال صورة «حذاء سندريلا»، الذي يمثل في الفولكلور الغربي هذا الكيان الفريد المجهول، الذي ينتظرنا في مكان ما. ويؤكد الكاتب، أن كلاً منّا يعرف أن الحب يرتكز على الفكرة القائلة بأن هناك شخصاً واحداً فقط هو من يتعلّق بنا. ولكن لأن «الظروف الاجتماعية للحياة» تبدو كأنها العدالة الوحيدة الممكنة، فإن غالبية البشر تيأس، تماماً، من الحب. «فهم يتعثّرون في ذكريات مخادعة، يذهبون معها كي يدعموا أصل سقوطهم الأزلي، ولكي لا يشعرون بالذنب. ومع هذا، فبالنسبة لكل شخص فإن الوعد بما هو آتٍ يتضمَّن سر الحياة، ويتجلّى، يوماً ما، وفقاً للأقدار، في كيان آخر»، كيان متفرِّد تماماً في عيون بروتون، ويتجلّى ببهاء ليثبت أن الحب حقيقي وخالد.

---

(1) André Breton, L'Amour fou, Gallimard, 1937.

تركت خطبة أرستوفان، التي كانت جذابة للغاية، انطباعاً عظيماً عند الحضور. ثم بقيَ دور اثنين من المدعوّين، بينهما سقراط المعلم. والشاعر أجاثون، الملقَّب بـ«وحش البلاغة»، أوالسوفسطائي، الذي أسهب من جديد محتفياً بإيروس «إله الليونة والشهوة» أو مسكّن الآلام.

عند هذه النقطة من الحوار، اتخذ سقراط، الذي يعد «الخط الناسف» الحقيقي للفكر في ذاك العصر، موقفاً معاكساً. والحقيقة، أنه إذا كان سقراط قد احتفى بخطاب «جميل وثري» فذلك ليقسمه إلى أجزاء كما تم مع خُطب سابقيه.

كما شدد على أنه إذا كانت الرغبة هي «رغبة في شيء ما»، وإذا كان المرء لا يرغب إلا في ما لا يمتلكه، إذن فقد أخطأ المدّاحون خطأً بالغاً حين زيّنوا الحب بكل أشكال الخير والجمال. أو أنهم، في أفضل الأحوال، لا يرون منه إلا جزءاً من حقيقته. ويؤكد سقراط على أن «الخطأ ينشأ من اعتبار وجود الحب متحقّقاً حين نُحَب وليس حين نُحِب». إن إدراك الحب يتعلق، في نهاية الأمر، بالبحث عن إجابة لسؤال لماذا أُحبه بدلاً من لماذا أُحَب. وهنا يتجلى أصل إيروس، كما أكد ديوتيم على لسان سقراط.

اجتمعت الآلهة في اليوم الذي ولدت فيه أفروديت، حول مأدبة، وكان بينهم إكسبديون ابن آلهة الحكمة (ويدعى بوروس عند الإغريق، أي المورد أو الحيلة). «والفقيرة المتسوّلة التي كانت تمر لتجمع الفتات، واستغلت ذلك لسرقة ابن الإله بورو الذي كان نائماً، وثملاً من أثر الشراب»، في حديقة زيوس. ومن هنا ولدت ذرية الحب، فقيرة هي

الأم «وليست رقيقة وجميلة كما نعتقد»، ولكن تحت مراقبة أبيها الذي يمثل الجمال والخير. وعلى غرار صورة سقراط، كان عاري القدمين، من دون مأوى، يتمدّد دائماً على الأرض، أسفل ضوء النجوم، ولكنه، في الوقت ذاته، رجولي، عاطفي، فيلسوف وساحر. سوف يشكل إيروس هذا الفقْد، الذي يولِّد طاقة خلّاقة وقادرة كي تنبثق منه، وتنتزع الإنسان من شقائه الوجودي. والحب إذن، كما كشفت زوجة مانتيتي، هو بالأساس تلك القوة السامية، تلك الطاقة، التي تساعد الإنسان على بلوغ الخلود الأوحد الممكن. هذا التظاهر بالخلود الذي يبلغه المرء وهو يحاول المقاومة عن طريق طفل أو عن طريق عمل أدبي. إنه الإنجاب، أي الذين سيأتون بعدك، فاختر بقاءك الذي سيلازمك.

الجانب الغامض من القوة

ولكن إذا كان إيروس ليس قبيحاً ولا جميلاً، وليس فقيراً ولا غنياً، وليس جاهلاً ولا عالماً، فإنه لا يستطيع أن يكون إلهًا. ماذا يكون إذن؟ إيروس هو جنّي، كما كشفت الكاهنة، «هو وسيط بين الآلهة والبشر». وبفضل الرعاية الفائقة له من قِبَل أفروديت، التي وُلدت في يوم ظهوره، أصبح قوة متنامية تحرّكها الرغبة في الجمال، الجمال الذي يرتبط، كما نعلم، عند أفلاطون بالخير والحقيقة.

للمفكر الإسباني المرموق خوسيه أورتيجا إي جاسيه José Ortega y Gasset تعبير بليغ يقول فيه: «إن الفيلسوف يحدد الأمور ببراعة، ومن دون تردد، ويطارد بملقطه العقلي «عصب الحب المرتعش»[1]. فالقارئ يحاول أن يتجسّد من خلال حالة عاطفية لا يمثل مضمونها

---

(1) José Ortega y Gasset, Etudes sur l'amour, Seuil, 2004.

شيئاً يُذكر بالنسبة للعاشق. «وسوف يفهم أن ذلك مستحيل». ويقول ستاندال Stendhal: «أن تقع في الحب، هوأن تشعر فوراً أنك مبتهج لسبب ما، وهذا السبب لا يمكن أن يكون مبهجاً إلا لأنه يجسد شكلاً مثالياً. من دون أن يعني ذلك أن المحبوب كيان كامل مكمّل»، كما لاحظ أورتيجا إي جاسيه، بل يكفي أن يحوي في نفسه «بعض الكمال» ليبدو في المجال الإنساني متجاوزاً للباقين في أعيننا.

ولكن في فيدرا، ذلك العمل الذي يعد حواراً آخر لأفلاطون يتناول فيه الحب، أوضح لنا جلياً، لماذا يعد الجمال هو الهدف الأول لرغبتنا، فسقطنا من سماء الأفكار الطاهرة إلى مستنقع الحواس. ونسينا الأشكال التي أدركناها في ما مضى، وسط خضمّ خلودها. وحده الجمال، حيث «التألّق» هوملمحه المتفرّد، هو ما ظل يبهرنا إلى الأبد. ولهذا، فإن الروح، في حضرة انعكاس هذا الجمال الذي أحياناً ما يتجسّد على الأرض، تشبه آنذاك الجواد المجنح، فتُستثار وترغب في الطيران.

حينها، يُنتزع العاشق من شقاء ماضيه. وقد كتب الشاعر الإنجليزي جون كيتس: «إن الجمال لمتعة أبدية».

إيروس ليس إلهاً، كما قلنا من قبل، وأقل من ملاك للعذوبة والشهوة، إنه جنّي. ويستشعر الحب الخطر بأنف كأنف القطط. وحين يعلن عن نفسه يكون الإعلان بمثابة زعزعة غير مسبوقة، وزلزال حقيقيّ، صدمة، وجنون يملأ العاشق بمشاعر وأحاسيس متناقضة. وبالطبع يكون العاشق في حال أسوأ عند رحيل الحبيب. لماذا إذن هذا الانطباع بوقوع كارثة محقّقة، وهذا التخبّط الذي قد يؤدي بالعاشق إلى الموت حال فقد المعشوق؟ إنه حزن عاطفي فادح، غرائبي وعميق. ولكن ذلك لا يمكن أن يتضح، في نهاية الأمر، إلا باللجوء إلى نظرية

أفلاطون، القائلة بأن كل من عاش يوماً أوأسبوعاً أو عشر سنوات، كان يهدف إلى الشعور بالخلود. بالتأكيد، حتى وإن لم نسقط من علٍ، فإن كل شيء يضيع، حينها نفقد ما هو أكثر من الحياة، نفقد الدافع لأنْ نحيا.

يكشف، هنا، المنظور السقراطي لتراجيديا الوجود، التناقض المؤلم للإنسان. والخلاصة أن الإنسان يتطلّع إلى الخلود، رغم يقينه أنه فان. وتعاني البنية الميتافيزيقية للحب والرغبة من هذا التمزق. فالرغبة تتصاعد عند مَن يشعر بها وتتملّكه حتى يتعذّب حالما يبلغها، ومَن يشعر أنه قد بلغها عليه أن يقاتل للحفاظ عليها وعلى استمرارها. إذن يبدو أن الزمن يعلّق رحلة مروره طالما أن لحظة النشوة العاطفية قائمة. فيما يبدأ القلق من الآتي اعتباراً من اللحظة التي يعتقد فيها الإنسان أنه بلغ السعادة الأولمبية (الإشارة إلى منطقة أولمبيا عند الإغريق).

وفي نهاية المأدبة، حين لام ألسيبياد الفاتن سقراط، وعاتبه لعدم استجابته لمغازلاته الجنسية، كان ذلك هو جنون الانجذاب العاطفيّ الذي عبّر عنه الشاب، وما يولّده من معاناة، والضياع من ذاته. يشعر بأنه رجل أكثر من كونه «أفعى» تريد أن تعض، كما أكد هو. ومع هذا، ألا يحمل مَن لم يجرِّب مغامرة إيروس ولا يعرف لوعة الفراق، شكل الموت، تحت اسم «الحكمة» و«الاعتدال»؟ هكذا يتساءل مونيك ديكسو Monique Dixsaut في الفيلسوف الطبيعي[1]. «وإذا نظرنا للأمور، من هذا المنطلق، فإن الأحجار تحظى بمتعٍ رائعة، كما تحظى الأموات». فمن لا يشعر بالرغبة ولا يحب لم يَعد إنساناً بالمعنى الحقيقي.

---

(1) Monique Dixsaut, Le Naturel philosophique, Vrin, 1985.

الحب اذن هو حبّ للجمال. ولا يمكن قَصره على الحب البلاستيكيّ للأجساد، الحب الفاني في حد ذاته. وقد عرف عنه سقراط بعض المعرفة، فهو على الرغم من قبحه الظاهر، ومنقاره وعيونه السرطانية، قد مارس سلطة وجاذبيّة لا تقاوَمان على مجموعات الطلاب في دروسه. إذن يدعونا ديوتيم إلى أن نرتقي سلماً من ست درجات. وإن كان الحب هو الرغبة في التوالد داخل مدار من الكمال، إذ يصبح الجمال هو الوصفة الخاصة بنوع الولادة «من جسد واحد جميل إلى جسدين جميلين، ومن جسدين جميلين إلى كل الأجساد الجميلة»، ومن الأجساد الجميلة إلى الانشغالات الجميلة، إلى المعارف الجميلة، إلى علم الجمال... المعنى الأقصى للكشف، كما يعترف ديوتيم. هي المعرفة الوحيدة للجمال، جمالٌ خالدٌ، في نفسِه وبنفسِه. وحينها نلمحه في النهاية «عند هذه النقطة من الحياة، حيث تستحق الحياة أن تُعاش بالنسبة لأي إنسان». من يصل إلى هذا التأمل، بمقدوره تمييز هذا الجمال عن جمال الذهب، أو جمال الأجساد الفتيّة الفانية. «إنها الحقيقة التي يلمسها»، إنها الثبات. لذلك أثبتت فيدرا، من قبل، أن المبدأ الملهم للرجال في حياتهم هو الحب حتى درجته القصوى، وليس الثراء ولا المجد.

واجه أفلاطون، مسبقاً، «الرغبة المشؤومة» للشاعر لوكريس، والوهم الخادع للعاطفة الجياشة التي وصفها خلفاؤه، بالرغبة المجنَّحة، والضوء الساطع، والخصوبة الروحية للحب. فالحب، عنده، يهدف إلى السعادة، وليس إلى الاكتفاء بأسبوع عابر لنزوة شهوانية، إنما في إرضاء وتجديد رغبة متّقدة دائماً. نلاحظ أن هذا

الشطط نحو الشيء الروحي هو الذي سيقدم لنا في ما بعد، بتحوير للمعنى، التعريف اللاجنسي «للعلاقات الحب الأفلاطوني». ولكننا سنخطئ في الاعتقاد بهذا الازدراء للبعد الجسدي عند أفلاطون. فقد وُصف باعتباره المرحلة الأولى لارتقاء النّفس، الحب الأرضي، فحب الأجساد لا يؤدي سوى إلى بديل للخلود. بديل مصنوع من الخرق التي تتجمَّع كما ثوب من خليط مرقّع، لكنه أيضاً يعطي الخلود الظاهري. في فيدرا، نجد أن العشاق المتعانقين لا يذهبون إلى سراديب الجحيم، بل تنمو أجنحتهم مع الوقت. هناك نوع من الجمال الحقيقي في هذا الاندفاع يجعلهم يشعرون بتسامي أنفسهم، ميتافيزيقياً، في روح أخرى.

ولكن مع الأسف، «انفصل الحب عن الجمال»، كما يؤكد لاكان. ففي الحقبة المعاصرة، انقلب السحر المرتبط بالحب إلى تفاهة دنيئة، وإلى عجز مزرٍ بين الأجساد. تعرض روايات ميشيل ووليبيك بقسوة دور الخزي الذي يمارسه اليوم الإنسان الشهواني، ويشير أيضًا الكاتب فرانسوا ميروني في كتابه «عن الإبادة التي اعتُبِرت أحد الفنون الجميلة[1]»، والتي تشير، بالنسبة له، إلى «هاوية من العفونة» يصل إليها المجتمع عندما يتحول الجماع إلى «رأس مال نرجسي» بسيط. فلو ربط أفلاطون الرغبة بالشوق، أي استبدال الشوق الميتافيزيقي بالحاجة المتدنّية، لكان ذلك هو البؤس الكبير، آلة لا تكف عن توليد الإحباط. «نحن نجرِّد الفاعل من رغبته، كما يضيف لاكان، وفي المقابل نرسلها إلى السوق، لنعرضها في المزاد». في عصر تبادلية الأجساد والتعطش المستمر، فإن «إيروس المتوله، تحوَّل إلى إيروس الطاغية». إن نفساً مضطهدة كتلك ستظل فريسة للعوز والفراغ، كما تنبأت فيدرا. إنه

(1) François Meyronnis, De l'extermination considérée comme un des beaux-arts, Gallimard, «L'Infini», 2007.

عرض للخيالات الجنسيّة الإعلامية على أجساد مسكونة أقل فأقل. إنه بئر من الحزن بلا قرار بالنسبة «للحضونين» (جنيّ ذكر يمارس الغرام مع النساء أثناء نومهن) و«السقوبات» (جنيّ أنثى تمارس الغرام مع الذكور أثناء نومهم) الذين أصبحوا رجالاً ونساءً يمتّع بعضهم بعضاً.

ويرى الفيلسوف المعاصر آلان باديو Alain Badieu، أننا قد نجرؤ، مع سقراط، على تأكيد تلك «الفكرة الحقيقية، والمبدأ، في مقابل شبح تلك الحرية التي ترهقنا، حريّة الاعتماد على أشياء عديمة الشأن وعلى رغبات تافهة[1]». وهل تنبغي استعادة حماسة القلب النقي، بتلافي الإحباط المعاصر، كي نحرر إيروس؟ إنها القوة الأولية التي تدفعنا وتحرّكنا في غموض، كما قال أورتيجا إي جاسيه Ortega y Gasset الذي استنكر، في القرن الماضي، كيف أننا لم نعد نتحدَّث عن الحب الحقيقي.

---

(1) Alain Badieu, ‹Platon, notre cher Platon!›, Magazine littéraire, n. 447, Novembre 2005.

-2-

لوكريس
الحب وتحدياته

«الحب فعل بلا أهمية بما أنه يمكننا فعله في أيّ وقت».

ألفريد جيري، الذكر الخارق، 1902.

25 مارس 1950، كتب الشاعر الإيطالي تشيزاري بافيزي Cesare Pavese في الصفحات الأخيرة من يومياته التي لم تكتمل، مهنة العيش: «إننا لا ننتحر بسبب الحب من أجل امرأة، بل ننتحر لأن الحب، أيّ حب، يكشف عُرينَا، وبؤسنا. يظهرنا عُزّلاً وسط العدم». انتحر بافيزي في غرفة فندق في تورينو، وهو في الثانية والأربعين من عمره، بعد خمسة أشهر من علاقة غرامية مشؤومة مع شابة أمريكية أصبحت ممثلة في ما بعد. وقبل هذا التاريخ بقرون عدة، ترك لنا شاعر إيطالي، ولد نحو عام 55 قبل الميلاد، واحدة من أفظع قصائد الهجاء التي كتبت يوماً ضد العاطفة المتّقدة. مجموعة من الأبيات الفجّة، المفكّكة والحادّة، وكأنها تكشِف عن تنظيم عسكريَ، تهدف إلى التحذير من هذا النوع من المصائب. هذا الشاعر يدعى لوكريس، وطبقًا لأمر معلمه اليوناني أبيقور، أي «اللولب المخفي»، لم يبقَ له أيّ أثر تقريباً، سوى عمله نفسه، الذي يكشف عمّا في داخله أكثر مما يمكن أن يفعل أي اعتراف ذاتي.

ترى هل ينتمي إلى جماعة لوكريسيا، جماعة هي فرع من النبلاء الأكثر سموّاً ورِفعة مقامٍ في روما؟ إنه افتراض وجيه، ولكن، في الحقيقة، لا نعرف تحديداً. ما نعرفه عن حياة لوكريس يتعلّق بطرفة

وحيدة: «تيتوس لوكريتيوس، الشاعر الذي أصابه الجنون من جرعة حب، كتب في أثناء مرضه بعض الكتب، صحّحها بعد ذلك شيشرون، الذي انتحر في عامه الرابع والأربعين» أو في الثانية والأربعين كما سيحسبها آخرون، تمامًا مثل بافيزي. كتب هذه السطور القليلة عن لوكريس، مقتطفة من «اليوميات» على لسان جيروم، الذي حررها في نهاية القرن الرابع بعد الميلاد. بالطبع، هي نميمة خبيثة بغرض طمس فكر ذلك الملحد الراديكالي بلا طقوس جنائزية، الرافض لفكرة نجاة النفس بمجملها. قد تكون طريقة افترائية إذا ربطنا العصاب الانتحاري بمؤلف هذه الأناشيد، محتفلاً، مع ذلك، بجمال العالم مثل قليل من الآخرين، والذين سيثيرون إعجاب أوفيد، ومونتاني، بقدر جوردانو برونو، المحترق في روما فوق حقل من الزهور في عام 1600. ومع ذلك، لا أحد، عدا ويرزر Werther اللاتيني، استطاع، قبل تلك اللحظة، تطوير رؤية قاتمة لهذه الدرجة، وفظة، وقلقة، عن الغرام وجراحه. تخبِّئ تلك الخرافة حدساً قوياً مع كونها سيئة النية.

كيف تُفشِل حياتك من درس واحد!

«لذة الحب لا تدوم سوى لحظة، أما ألم الحب فيدوم طوال الحياة...».

أتذكرون تلك الأغنية الرومانسية لكلاري دوفلورين، ابن أخت فولتير الصغير. إنها الترنيمة القصيرة التي طالما ترددت منذ القرن الثامن عشر. لو حدث واستمع إليها لوكريس، فلن تصيبه بأي نوع من السعادة! الحب هو الطريق الملكيّ لإفشال «السموّ النفسيّ»، هذا الهدوء المهيمن، وغياب الاضطرابات، والاستقلال الشديد، الذي حثّت عليه الحكمة الإغريقية. كان الفيلسوف أبيقور، الذي ولد في

عام 341 قبل الميلاد، هو ملهم لوكريس، ولم يتناول مسألة الحب في البرديات غير المكتملة، التي بقيت بعده، والتي تكفّل بها لوكريس بعد قرنين من ذلك، في أثر «مطبّب الجراح العظيم في العصور القديمة»، كما أطلق عليه نيتشه، الذي أنارت اكتشافاته حياة الشاعر الروماني بالكامل.

ويُعَدّ الكتاب الرابع للوكريس «عن طبيعة الأشياء»[1]، بمثابة قصيدة فلسفيّة طويلة، تتناول التطور المستمر للكون، واضعاً صورة مرعبة للتولّه الغرامي، عندما استحضر فكرة طاعون أثينا.

يجد رجلٌ متجوِّلٌ منهكٌ فراشاً، ويتمدَّد عليه، فيهدأ! ويأكل جائع طبقاً من العدس، فيشبع! أما مع الحب، فالأمر يختلف، فهو الجدير بأشد العذابات الاسطوريّة. لا سيما عذاب تانتالوس، المحكوم عليه بمشاهدة الماء وهو يتلاشى من على الأرض، فيما يحاول اللحاق بقطرة منه تروي عطشه. وعندما يمتلك العشيق عشيقته، لا شيء يهدِّئ من لوعته العميقة، بل على العكس تماما، التشوّش الجنسي والعاطفي يؤدي إلى تضييق الخناق حوله، إذ يرتبط بها ارتباطاً لا فكاك منه. وعن ذلك كتب لوكريس بطريقة إيحائية: «إنها الحالة الوحيدة التي كلما زادت فيها رغبتنا في امتلاك الآخر، كلما احترقت قلوبنا برغبة مهلكة».

وبحسب وصف شاعرنا، يكون الحب هو حالة نهم غير محدود. رغبة في السلخ تذكّرنا بالماركيز دوساد. فعيون العشاق «لا تشبع من النظرات المتولِّهة، ولا تقوى الأيدي على الابتعاد عن الأجزاء

(1) De la nature, livre VI, vers 1030-1208, traduit du latin par José Kany-Turpin, Garnier-Flammarion.

الحميمة، فتهيم على الجسد كاملاً». تندمج الأجساد، «ويمتزج الرضاب، فمٌ يضمّ الآخر، فتختلط أسنانهم، وتتماصّ ألسنتهم، عبثاً، بلا قدرة على الانتزاع أو الاختراق، فكل منهما غارق بالكامل في جسد الآخر». ويصبح التركيب اللغوي للوكريس فوضويّاً، ومفرداته تحاربيّة. فهي، كما يصفها، مواجهة مميتة. وما ينساب من مَنْي ذكوريّ يشبه الدم المنساب من الجروح، ينساب مستهدفاً الجسد الآخر الذي جرحه حبّاً». فتجد المرأة نفسها محشوّة بسائله الذكوري، كما يجد «العدو» نفسه مغطًّى بـ«السّائل الأحمر» الذي تسبّب هو في سيلانه.

ويضيف لوكريس إن العاطفة الجنسية يصاحبها بالضّرورة نوع من الكراهية. فنجاسة شهوة العشاق «تخفي أشواكًا تحثّهم على الجرح، مهما كان سبب هذا الشعور الغاضب». فالرجل أو المرأة لا يحب أحدهما أن يكون ارتباطه بالآخر سبباً للشقاء. ولأنهما يجهلان «كنه الجرح الخفي الذي يضنيهما»، يمارسان سلوكاً تعويضياً، وهو تعذيب من كان سبباً فيه. وهنا نلمس السبب الأول لرفض العاطفة المحبة. فمع كونها ساحرة، هي متعة تمرّ عبر إرادة الآخر، وتتعارض مع المثال الأعلى للاكتفاء الذاتيّ الإغريقي الذي يدافع عنه الأبيقوريون بقدر ما يفعل منافسوهم الزينونيون. لا أحد يستطيع أن يتظاهر بالسعادة الدائمة إذا كانت تعتمد على أهواء الآخر أو على ظروف خارجية أيًا كانت.

إذن يبقى المحبوب «عصيًا على الفهم» - بكل ما تعنيه اللفظة من معنى. وقد رأينا، على المستوى المادي، كيف أن الرغبة في الانصهار الشهوانيّ تبقى مستعصية. وعلى المستوى المعنوي، فإن الأمر أسوأ. إذ تظل أفكار الآخر معتمة، وبعيدة، وعدوانيّة، على الأرجح، وحتى

في قلب الخلود، يصف لوكريس «الهمّ الثلجيّ»[1]الذي يأسر العاشق في كل لحظة، وهو واثق تماماً من قدرته على الفعل. ويتابع لوكريس: «فتنبع مرارة ما، من قلب مصدر الملذات، وتهاجم العاشق بقوة حتى وإن كان غارقاً في قلب زهرة». «فكلام الجميلة المبهم ينغرز في القلب العاشق، حرقة متّقدة، وغمزة عين، ثم نظرات متبادلة، وأثر ابتسامة، وكثير من الشكوك المتأجِّجة»، وهذا الوصف يكفي لأن لا يُفتن بكائن مهما كان!

السر المشؤوم للحب

ومع ذلك فهناك الأسوأ؛ لو بإمكاننا أن نتصوّر! يقول الإغريقيون إن الحب ليس فقط انعتاق في الآخر الخارجي، ولكنه يتميّز، في جوهره، باللامحدودية، والأبدية الشريرة، والشطط، والنَزَق. وفي ذلك يصطدم احتياج إنساني عام بتقاليد الحكمة الهلنستية: «لا شيء كثيرٌ جداً»، كما تقول مأثورة الحكماء السبعة. وبمجرد الإصابة بالحب، فلن يتراجع المحب بسبب المنطق البسيط للأشياء. لقد كتب لوكريس: «القُرَح تتأجّج وتتغلغل في الجسد، فيزداد الغضب يوماً بعد يوم». إنه يتكاثر، وينتشر، بقسوة شديدة، بحيث لن «يمكن مداواته»، بحسب تعبير بروست Proust في حب سوان. هذا الميل نحو الانغماس، يبحث من خلاله الشاعر عن سبب، وقد وجده، بطريقة ما. وإذا تشبّث العشّاق ببعضهم، وارتموا في أحضان بعضهم بلا حساب، ولم ينصتوا إلى الرأي العاقل، «وبالغوا» بالمعنى الأقصى للكلمة، فذلك لأنّهم يجهلون تماماً السر المشؤوم للحب. هذا السر الفظيع، المتخفّي بعناية

(1) Frigida cura, dit le texte latin.

عن الأعين، إنه هذا: «المعبود»، وهو حبيب غير موجود. موضوع الحب ليس سوى عرض سمات تخيّليّة. وابتداءً من تلك الذرّات التي تخرج من مخلوق جذّاب لترتطم بالعين المقابلة، يحكي المحب لنفسه حكاية، ويصنع إلهه، كائناً يعج بألف إغراء، بحيث تتلخّص أمنياته في توافر تلك المغريات في الحبيب. وبهذا يكون لوكريس قد اكتشف فكرة «التبلور» الستاندالي[1]، منذ القرن الأول قبل الميلاد.

عام 1822، في مناجم الملح بسالزبورج، كتب ستاندال Stendhdal في كتابه عن الحب، عندما نُلقي بغصن تعرّى من ورقة بفعل الشتاء، فإننا نسترده بعد بضعة أشهر، مغطّى بعدد لا يحصى من الماسات المبهرة، التي لم نكن نميزها في حالتها الأولى. ويضيف: «ما أسمِّيه تبلوراً، إذن هو العملية التي يقوم بها الفكر حين يستخدم كل ما هو موجود في اكتشاف أن المحبوب يمتلك صوراً جديدةً للكمال». وبنفس الطريقة، لا يفتأ لوكريس، في عن طبيعة الأشياء، يعدّد المزايا الوهمية التي يذكرها رجلٌ عماه الحب، عن المرأة التي فتنته يوماً ما. «فإذا كانت سوداء، يصفها بعسلية اللون، وإذا كانت وسخة ونتنة، تكون في عينيه طبيعية، أما عيونها المطفأة، الباهتة، فيراها هو متوهّجة كالألماس، ولو هي عصبيّة وجافّة، تكون غزالة بَرّية، بينما القزمة هي فتنة من المفاتن، كي تُلتهم كاملة، أما العملاقة فهي آلهة تصدّر العظمة، والمتلجلجة تغرِّد، والخرساء متواضعة، بينما الشرسة الوقحة الثرثارة، يراها هو شعلة متوهِّجة، والتي تكاد تختفي من النحافة يعتبرها هو صغيرة لطيفة». إلخ. بالطبع نعرف ما أخذه موليير Molière

(1) نسبة إلى ستاندال (المترجمة)

من اقتباسات عن هذا الابتهال اللوكريسي الساخر، في تسلسل شهير في السوداوي[1]أو Misanthrope. هكذا يكون الحب نتاجاً لتكوينات من الأحلام والأوهام المخادعة. إذ ينشأ عن الخيال في جزء كبير منه، وبالتالي لن يستطيع أن يعود ليتأقلم مع الواقع بمحدوديته. بل إن الحب لن يستطيع أن يكتشف كم هوكاذب إلا حين يكون مؤكداً، وهنا يكمن السر التناقضيّ لقدرته المطلقة.

بقي القول إن الولع بالأساطير المرتبط بالحب، والمبالَغَة المضلّلة التي تصاحبه كظله، لن يستطيع وحده تفسير الجاذبية الدائمة للحب على البشر. وكيف يتسابق كل المحبين في اتجاه انسلاخ برّي؟ وكيف تمارس أسطورة «الروح الشقيقة» ذلك الافتتان عبر العصور، معانِدة كل الإخفاقات السابقة وخيبات الأمل المحتملة؟ فيحفر لوكريس بقلمه تفسيراً لايفتقر إلى الثقل[2]، واصفاً امرأة ربما تحمل الآلاف من البهجات، لينشغل بها رجل عاديّ، ليحمّلها، وبجهد يسير، معنى وجوده، متوهّماً أن امتلاك كائن ما سوف يمنحه مفتاح المملكة، متحاشياً الألم المرتبط بمحادثة تؤول إلى الفلسفة، وهي القادرة وحدها على

---

(1) Le Misanthrope, acte II, sene IV, vers 710-730.

«والحب بالنسبة للشخص العادي لا يخضع إلا قليلاً لهذه القوانين / ونرى العشاق دائماً يتباهون باختيارهم/ ولا ترى عواطفهم البتّة ما يلامون عليه / وفي ما يحبونه يصبح كل شيء قابلا لأن يحب[...]

فللشاحبة نفس بياض الياسمين / السوداء تخيف والسمراء تثير الإعجاب/ والنحيفة تحوذ الرشاقة والخفة/ والبدينة توحي بالعظمة / وعيوب الذات وقلة المفاتن الجاذبة توضع تحت بند الجمال المهمل/ العملاقة تبدو للعيون مثل الإلهه../ والقزمة هي اختزال لمعجزات السماء» الخ.

(2) حول هذه النقطة نتبع التفسير الذي قدمه :

Jean Salem, Lucrece et l'ethique, Virn, 1990, chap.v.

أن تضمن له سعادة مستقرة. إذن هذا التكاسل الميتافيزيقي، والخوف من العيش ومن تحمّل حريّته بشكل كامل، تبدو كأفضل الدعائم لتلك العبودية الإرادية، وفيها يتلخّص الحب. فمن دون الخوف من الموت، يفقد الحب سبب وجوده.

الخلاص في الجنس

وبعد الواقع القاسي، تدق ساعة العلاج ! ولا أمل في الحصول على الترياق المُعجِز طالما مرض الحب ما زال مستشرياً. كي نهيّئ أنفسنا مسبقاً، كما نبهنا لوكريس الذي يرى أن «تجنب الوقوع في شرك الحب أهون من التخلص منه». فلننتبه أولاً، ولا ننسَ أن نفرّق بين «العيوب الجسديّة أو الأخلاقية» الحقيقية، وبين تلك التي ترغبها النفس. ولنكرر بلا كلل ولا ملل: ألا يوجد غيرها؟ ألم نحيا دونها من قبل؟ وأن نذكّر أنفسنا أيضاً أن هناك ضمّادات كثيرة على تلك السّاق المصنوعة من السيليكون. هذا النوع من المقولات لن يمنع الآلية الشعورية من التقدّم. إذن «لوكريس السامي»، كما سمّاه أوفيد مؤلّف فن الحب، أراد أن يدوّن برنامجاً راديكالياً للغاية. حزمة من المعايير يختلج لها قلب هواة الرومانسيات الوردية!

من البديهي أن يعرّضنا الحب الحصري لعذابات هائلة محتملة، ومن الضروري أن نتخلّى عنها إلى الأبد. ومع ذلك فلا غنى عنها. يرى شاعرنا أنه من الأفضل: «أن نلقي بداخل شخص آخر غير الذي نتوق اليه بالسائل المختزن، بدلاً من الاحتفاظ به لذلك الحب المسيطر عليه. فلا يدّخر سائله المنوي لحبيبته «الوحيدة». وألا يتقيّد لأجل واحدة في المُجمل! فلننمّ تعدّدية الحب وتحرّر الجنس بأكمله. ولنشجّع فينوس

البرية» أو «فينوس الغجرية» كما يسميها لوكريس. ولا ننسَ أن هذا «الهم الثلجي» الذي يقطن في قلب العناق، ذو منظور يرعب الشاعر الروماني.

كما ينصحنا بأن «نمحو الجراح القديمة بندوب جديدة!»، وألا نتردد في استخدام «الحب الجديد لطرد متعة قديمة». فكل الطرق مسموحة، لمواجهة خطر الحب بالنسبة للوكريس.

ولمواجهة خطر الضياع العشقيّ، والتهديد الذي يثقل على سلامنا الداخلي، جنح رواقي هو مارك أوريل Marc-Aurèle إلى حل متعارض تماماً، كما هو الحال بالنسبة للوكريس. فالشعور العاطفي يرتكز بالنسبة له على عدد من التقييمات الخاطئة. وعلى عكس الشاعر الأبيقوري، الذي أوصى بأن يتحول المرء إلى الحالة الشبقية كي يضع حلاً لتلك المشكلة الموجعة، فإن مارك أوريل يقترح الخلاص الروحاني. فلنتمرن على النظر إلى ما يلي الشغف «بشكل متجرِّد»، وهو ما قاله في كتابه الأفكار. ما الفعل الجنسي في نهاية الأمر؟ تقلُّصات أسفل البطن مع قذف للمني مصحوب بتشنّجات وسائل لزج»، هذا كل ما في الأمر. وبعد أن تأمَّله طويلاً، يرى الامبراطور الروماني الفيلسوف، أن هذه الحقيقة تكفي ليمرض بسببها الإنسان لوقت طويل.

أبيقور يواجه الخنازير

لم يكن هذا القنّاص الأبيقوري البارع، لوكريس، ليعرف أن يصيغ مبكراً نظاماً عقليّاً كهذا، معلناً من قبل، ومن دون صخب، عما مارسته المسيحية من تشويه لإيروس. ثم أضاف إن «الهروب من الحب لا يعني إطلاقاً الحرمان من متع فينوس، بل على العكس يعني الاستمتاع من

دون دفع فدية، وهو ما عبر عنه في عن طبيعة الأشياء». تنص الحكمة الثامنة لأستاذها أبيقور على أنه «ما من متعة تمثل شراً فى حد ذاتها، أما تلك التي تحمل من المتاعب أكثر مما تحمل من المتعة، فينبغي التخلّص منها». ذهب لوكريس أبعد من ذلك، فدعا إلى أن يلقي المرء بذاته مستسلماً للمتع الإيروتيكيّة كي لا يترك نفسه يتسَمّم بفعل شعور ثابت، أوتلتهمه «نسور الغيرة»[1]حياً. هل يبدو الشاعر مخلصاً لتعاليم أبيقور، وهو يتخذ من هذا الإنعاظ ذي المنحى العلاجي سبيلاً؟ في ما اتخذه اللفظ من معنى سوقي، فالإجابة هي نعم بلا شك! أما في المعنى الأصلي للكلمة فالأمر قابل للنقاش.

قد نسيء فهم رسالة أبيقور إذا قرأناها في صورة رغبة في «التمتع دون منغِّصات» قبل الميعاد. المُفترَى عليهم من الفلاسفة القدماء لا ينفك يكرِّر أن رغد الحياة لا ينصب على «الشّرب والمآدب التي لا تنتهي، وتمتع الشباب والشابات». إن المتعة هي حجر الزاوية للخير، تلك هي ثورة أبيقور العظيمة مقارنة بأفلاطون. «إني أبصق على الأخلاقيات، لا ينبغي أن نفهم رسالة أبيقور، على أنها مجرد رغبة مبكّرة في «متعة من دون قيود». على عكس ما يردده المنتقدون، فإن أكثر وعلى الإعجاب الأجوف الذي نوليه إياها فيما لا تمنحنا متعة». لكن من دون أن نعيش ونفكّر كالخنازير. وقد كان خطاب إلى مينيسي[2] الشهير بمثابة تذكير قاس حول هذه النقطة. في الحقيقة، يفرض التصنيف الصارم نفسه بين صور الرغبة المتنوّعة، بهدف استبعاد تلك التي تفسد السلام الداخلي في من أجل امتلاك سعادة مستمرة. فالرغبات الطبيعية الضرورية كالأكل

(1) L'expression figure au livre III du De natura rerum.

(2) رسالة كتبها ابيقور إلى تلميذه مينيسي Ménécée وفيها يلخص مذهبه الفكري ويعرض منهجًا لبلوغ السعادة من وجهة نظر ابيقور.

والنوم والشعور بالدفء يلزمها إشباع جارف. أما الرغبات غير الطبيعية وغير الضرورية مثل تخزين السلع وشراء حذاء جديد فلا بُدّ من نفيها حتماً، وبين الاثنتين هناك الرغبات الطبيعية غير الضرورية كأن نعيش الصباحات الهانئة ونتذوّق النبيذ الفاخر ونمارس الغرام، تلك الرغبات نراقبها خفية.

ويلاحظ أن أبيقور قد أدرج المتعة الجنسية في تلك الفئة الأخيرة المختلطة غير المستقرّة. فمع كونها رغبة طبيعية، فإن الحرمان منها لن يُميت الإنسان. إذن فكل الحجج هنا تحتمل القبول أو الرفض. على عكس حالة الزهد الزائفة في محاورة فيدون لأفلاطون. إذن ما من سبب مقبول يجعلنا نتتبع هذا الزهد بولع شديد وكأن حياتنا تتوقف عليه. بل على العكس فإن الضرورة تحمل خطورة، ويصير الأمر مذّاك هَوَساً مهدِّداً. وهكذا لن يسقط الفيلسوف الأبيقوري في الحب. ولن يتزوج كذلك «إلا في ظروف استثنائيّة» كما أوضح ديوجين لايرك[1]. وسيكرِّس نفسه لاستقبال «زهور الحياة» حين تقدّم نفسها كراهية، أو طواعية، من دون أن تترك لمتعتها العنان في تعذيب المخلوقات المحبّة.

كان مترودور «الذراع اليُمنى» لأبيقور وصديقه الأقرب في «الحديقة[2]»، والذي كان مراهقاً وانتقل من منزله بدافع شهوات جنسية عنيفة، وقد لخَّص له أبيقور الأمر في خطاب قائلاً: «لقد قلت

(1) Diogène Laërce, Vies, doctrines et sentences des philosophes illustres.
وصلت خطابات أبيقور ومبادئه الأساسية إلى القرون اللاحقة بفضل هذا المصدر الحصري.

(2) الحديقة هي المدرسة الفلسفية المفتوحة أمام النساء والرجال، التي أسسها أبيقور في عام 306 قبل ميلاد المسيح، وكان مقرها مدينة أثينا. وفيها كان أبيقور يعلّم طريقة بلوغ سلام النفس.

لي إن وخْز الجسد يحملك على الإسراف في مُتع الحب. فإذا كنت لا تخالف القوانين ولا تخدش بأي طريقة الأخلاقيات السائدة، ولا تزعج أياً من جيرانك ولا تنهك قواك ولا تبذّر في ما يخص ثروتك، فاترك لرغباتك العنان من دون تبكيت. ومع ذلك فمن المستحيل ألا يعترضك أيّ من تلك العراقيل؛ فمتع الحب لم تُفِد إنساناً ما، بل إنها إذا لم تزعجه فإن ذلك يكفي ويزيد».

شيطان لوكريس

إذن لوكريس ليس حَوارياً لأبيقور، بل وليس هناك من هو أرثوذكسياً أكثر منه. وإدانته الشديدة لرغبات الحب متوافقة تماماً مع مبادئ الأستاذ. وتتسم التحليلات التي كتبها بالعذوبة والقدرة الشعريّة السليمة. وما يصفه من علاج لها ينبع من أهواء أكثر إنسانية، فالحكمة رقم ثلاثين لأبيقور، والتي تتسم بالجرأة الشديدة، تبدو وكأنها تحذّر مقدَّماً مَن يُحاوِل يوماً ما أن يتّبع تعاليم تابعه الرومانيّ الناريّ. «إذا كان من يتّبعون المتع الخليعة يحرِّرون النفس من مخاوفها إزاء الظواهر السماوية، ومن الموت ومن الألم ويكتشفون حدود الرغبات، فليست لدينا أيّة حجة للومهم لأنهم ممتلئون بالمتع من دون أن يعانوا من حزن أو ألم، أي من «الشر» فالأمر يبدو غير محتمل في عيون أبيقور[1]. فالشهوانيون الفاسقون بالنسبة له «ضائعون يستحيل إنقاذهم». بالطبع لا يرجع ذلك إلى المعايير الأخلاقية، فالأبيقوريّة لا تقبل سوى متعة بلا متاعب. لأن الشهوانيين يخاطرون بأن ينجرّوا بعيداً جداً وأن ينتهي بهم الأمر إلى فقدان التوازن في حياتهم بأكملها.

---

(1) Geneviève Rodis-Lewis, Epicure et son école, Gallimard, 1975, Chapitre III, ‹La modulation des désirs›.

إذن فمن غير المؤكد أننا نستطيع كبح جماح الرغبة الجنسية إذا جَذَبْنا لجامها! كذلك هو لوكريس. فاللعب معه يشبه لعبة الروليت الروسية مع الشيطان نفسه، كما قال شوديرلو دو لاكلو Choderlos de Laclos. وهوما تؤكده الحبكة الروائية لـ علاقات خطرة. رواية الشيطان المعاصرة لهيربرت سيلبي Hubert Selby jr. حيث شرح فيها أيضاً، وعلى طريقته، النتائج التراجيديّة للحب. نُشِرَت الرواية في عام 1976 وهي أهم أعمال الكاتب الأمريكي. بطل الرواية هو هاري ويت، رجل أعمال شاب بارع، وزير نساء ساخر، غزواته النسائية لا تنتهي من دون أن يقع في الحب. ولكن ما هدفه المفضَّل؟ النساء المتزوجات واللواتي يحب أن يصيبهن كما تؤكد العبارات الأولى من الكتاب من دون مواربة[1]، لأن مع المتزوجات يتضاءل الخطر بأن يرى نفسه يعيش في الشقة ذاتها مع امرأته. وتهدف استراتيجيّته الدونجوانية إلى الحفاظ على حريّته، ثم تظهر سيلبي من خلال حوادث الرواية. فيحلّ إدمان جنسيّ محقَّق محل العاطفيّ الذي ظنّ أنه أفلت منه. ولم يغير زواجها من الأمر شيئاً، ويطرد هاري العاهرات مدمنات الكحول في الأحياء الشنيعة. ثم ها هو السقوط المدوّي الذي قاده إلى الموت المجّاني أو إلى الانتحار. إنها أسطورة دونجوان بكل عمقها حيث تظهر سيلبي الملحدة من جديد في مدينة نيويورك. إن الصراع مع الحب هو دائماً تحدٍّ ميتافيزيقي، والحرية التي طالما امتلكها قد تتحول بسهولة إلى عبودية تامة.

---

(1) «معهن لم يكن هناك ما يزعج حينما كن مع هاري، عرفن حدود الأمر. فلا مجال لتناول العشاء ولا الشراب. وما من مجال للثرثرة. [...] كان هاري يرفض كل ارتباط وكل انحراف وكل عائق. كل ما أراده هوأن يعاشر حينما تكون لديه رغبة في المعاشرة، ثم ينسحب بعد ذلك بابتسامة وايماءة وداع».
Hubert Selby Jr , Le Démon, 10/18, trad. Marc Gibot.

نحن لا نحب الشعور بالملل، بالمعنى الرديكالي للكلمة. والذي يشعر بالملل فإنه ينمّي، بطريقة لا يشوبها الخطأ، تشوّهات النفس والجسد الأكثر ازدراءً[1]. إن التحدّي اللوكريسي لا يمر من دون مخاطر، والدليل على ذلك هو نموذج «الدليل» المعاصر الذي ابتكره سيلبي. إن الصلابة الشديدة في مواجهة مخاطر الحياة لهي أكثر صحّة مما تفعله الحلول الوسطى المعاصرة في من هم على الطرف الآخر النقيض وفي مشاعرهم المزيّفة. وفي حكمة أبيقور يمثل الحب نوعاً من التقديس اللاشعوري ومعتقداً خرافياً وخطيراً ينبغي القضاء عليه. وفي هذا الصدد، بقيت إدانة لوكريس للحب، والتي لا مرَدَّ لها، فعلاً يتسم بالبسالة الموجعة، محدودة التأثير.

إلا أن القارئ يشعر بالتعاسة عند قراءة تلك الأبيات المؤلمة، وتغزوه مشاعر سلبية، لا تشبه الطمأنينة الشمسية عند أبيقور. ونلاحظ أن الكاتب مارسيل شووب Marcel Schwob ملهِم بورج الذي مات شاباً في العام 1905، سيعبِّر ربما بطريقته، في حيوات متخيَّلة وبأسلوب فريد عن لوكريس العجيب[2]. إذ تنعكس طفولة الشاعر الفيلسوف في الكتاب «في ظلال شرفة المنزل السوداء، ذلك المنزل القابع فوق

---

(1) «هي الفكرة التي عبر عنها بقوة الراهب زوسيم في مقطع من رواية الأخوة كرامازوف لدستويفسكي، خبير آخر في الشياطين «أوصيكم ألا تكذبوا على أنفسكم، فإن من يكذب على نفسه وينصت إلى أكاذيبه فإنه لا يميز الحق لا في ذاته ولا في ما هو حوله؛ فيفقد بالتالي احترامه لذاته واحترام الآخرين. وباعتباره لا يحترم أحداً فإنه يكف عن أن يحب. وكي يشغل نفسه ويسليها في غياب الحب فإنه يترك نفسه للعواطف والمتع الحسية الفظّة؛ ويصل برذائله إلى المدارج الحيوانية وكل هذا ينبع من كذبه المستمر على نفسه وعلى الآخرين».

(2) Marcel Schwob, Vies imaginaires, Garnier-Flammarion, 1896.

الجبل». سافر ليدرس البلاغة في روما، وعاد الشاب ليسكن منزله الأصلي مع «امرأة أفريقية جميلة، بربرية، وشريرة». لوكريس عاشق، ولكن سريعاً ما سيجرح نفسه «الغطاء المرن والمعتم الذي يفصل العشاق». وفي أحد الأيام كان يجول في غرفة الكتب وعثر على برديّة لأبيقور. وعلم منها أن الحزن الناتج عن الموت ليس إلا «أسوأ الأوهام الأرضية»، وأن الحب «يسببه تورّم الذرات التي تحتاج للاندماج بذَرّات أخرى». كما عرف مذّاك أن الحزن والحب والموت ليسوا سوى «صور فانية حين نتأملها من الغرفة الهادئة التى ينبغي الانعزال فيها». واستمر في البكاء وفي الرغبة في الحب والخوف من الموت. كتب شووب أنه حين رجع لوكريس إلى بيت الأجداد المظلم اقترب من الأفريقية الجميلة التي كانت تُعَدّ شراباً. حينها «اجترع شراب المحبة. وغاب عقله فوراً، ونسي الكلمات الإغريقية المكتوبة في ملفوفة البردى. وللمرة الأولى، جنّ، وعرف الحب؛ وفي الليل، لأنه مسموم، عرف الموت». وكما يقول الفلاسفة... ذلك ليس إلا أدباً!

- 3 -

مونتاني

قفزات الحب ووثباته

«اشربي قبل العطش،

ومارسي الغرام طوال الوقت سيدتي،

فهذا هو ما يميزنا عن بقية الدواب».

بومارشيه، زواج فيجارو، 1778.

كتب بروست: الجنة الحقيقية هي تلك التي أضعناها. تترنَّح الحقائق في اللحظات الشهوانية كما في عتمة الوجود، ويستيقظ حنين إلى الماضي أو ندمٌ عليه. وتفصح ذكرياتنا عن القوانين السرية التي تحكّمت في خطواتنا، لا شعورياً، ونظّمت علاقاتنا بالعالم، ووجّهت أنّيتنا وشعورنا نحو الآخر. هنا يتساءل كل منّا: أحقاً عشت؟ أحقاً أحببت؟

حين شارف مونتاني على «عتبات الكهولة» تنازعته تلك الأسئلة العالمية universelles، تحديداً بعد ثمانية أعوام على النشر الأول لكتابه المقالات[1]في عام 1580، الذي يتميز بالتفرّد وسط هذا النوع من الإنتاج الأدبي، وقد أضاف له السيد دي مونترافال كتاباً ثالثاً، يُعَدّ أفضل أجزائه. وهو نفسه الذي انتزع الدموع من مقلتَيْ أندريه جيد André Gid.. يتضمن الكتاب الفصل الخامس المخصص للحب وعنوانه «عن أبيات فيرجيل». من خلاله، حقق مونتاني رغبته في الوصف الذاتي «باكتمال وعري تام» كما كان يتمنّى، بدأب ورَوِيّة غير مسبوقتين وحتى آخر رمق.

---

(1) Editions Gallimard, "Bibliothèque de la Pleiade" ou aux Editions Robert Laffont, "Bouqins".

اعتَرَفَ بكل شيء من دون قيود، مستخدماً الاستشهادات اللّاتينية اللطيفة في بعض الأحيان. حيث اعترف بغزواته الجنسية أو- «قفزاته الستّ»-، وإخفاقاته، أو«المشاعر المباغتة لطبيعته المنقضّة». وهيئته القبيحة: حيث كان أشعر كالقرد، وأصلع كالبيضة! وعريضاً، وقصيراً. كما وصف بأسه في «المهمة الجنسية» وصغر حجم عضوه الذكري! وتلك المعلومة الأخيرة هي السبب وراء تذمّره من الجرافيتي الذي كان الطلاب يرسمونه على جدران المنازل والذي يضلل السيدات حول الحجم الحقيقي للعضو الذكري. ماذا عساه أن يقول معلقاً على أفلام البورنو الحديثة إذن؟ هل كانت عقدة «إبهام اليد» للحجم البائس ستتضاعف؟

وإذا صدقنا أن ميشيل إيكيم Michel Eyquem[1] لم يكن له جسد أبوللو، فإن هذا «العيب الخُلقي في الافتقار إلى الضخامة» لم يمنعه من أن يعيش سيرة استثنائية لمغوٍ شرع في الإغواء مبكراً جداً. وقد قال عن نفسه: «لقد بدأت قبل سن الاختيار والمعرفة». و«لا أتذكر شيئاً عن نفسي في تلك المرحلة المبكرة» كان المراهق البذيء يجوب مع الطحّانين والرعاة في الطرقات في مقاطعة جاسكوني، مسقط رأسه. ثم ينخرط مع الحرفيين في باريس، حيث كانت مرحلته الدراسية هي «الفترة الأكثر فجوراً في حياته». وتعرَّض بسبب ذلك لغضبَةٍ أبويّة، وإلى حرمانه من الميراث. كان قاضياً شاباً يعيش في مدينة بوردو، واستمر في مغامراته المتعددة ما بين زوجات مجروحات يداويهنّ، أو أثناء السفر، وأحياناً كان يخاطر بقصص خفيفة مع الساقطات ذوات الجمال الرومانيّ. استمر

(1) الاسمان الأول والثاني لمونتاني (المترجمة).

على هذا النّهج بعد زواجه، بلا شك. لم يكفّ صديقه الرواقي لا بواتي La Boétie عن لومه بسبب انفلاته، مقارناً إياه بشخصيّة ألسيبياد الشهيرة عند سقراط. إلا أن كل ذلك لم يجمح الرغبة عند «السيد عضوي» وهي التسمية التي أطلقها مونتاني على مصدر كل دغدغاته. : «ما من رجل اختار لحياته هذا النهج التناسلي الوقح»، ذلك ما ينطوي عليه البورتريه الحزين للإنسان الهادئ الذي وضعه مونتاني في مكتبته. تلك المكتبة التي كانت تضمّ الحِكَم والعبارات الشهيرة والمحفورة على العوارض، ولكنها ضمّت كذلك لوحات الغرام لمارس وفينوس.

فقط حينما وصل إلى الخمسين من عمره، السنوات المليئة بالآلام، أصابه مرض الحصوة عضو ميشيل الذّكري هو الذي جعل منه «رجلاً أكثر من أيّ جزء آخر من أجزاء جسده»، فقد عاش أزمة وجودية حقيقية، حين بدأت أعراض العجز الجنسيّ المبكر في الظهور. وتوارت أوقات الرّغبة العاطفيّة المضطرمة لتفسح المجال لبرودة الشيخوخة القارسة، معلنة النهاية الوشيكة لمباهج الجسد ومُتعِه، التي لا تضاهيها مُتَع أخرى مع الأسف! ومذّاك، أصبح لا يبول بضعف فقط، بل إن انتصاباته باتت مترنّحة. إنها «نار مضطرمة!» آه، يا له من موقف بائس لمن اعترف يوماً بأن «ما من رغبة أخرى تدير رأسه كما تفعل الرغبة الجنسية».

هكذا كانت العلاقات الحميمة أمراً شديد الخصوصيّة والبهجة. حتى إن مونتاني أدرك في النهاية سطوة هذا الاحتياج اللانهائي للحب. كان لا يزال يشعر ببعض «بقايا حماسة الماضي»، واستبدل القضيب «المتمرِّد والمستبدّ» بفنون القلم، وبفضل ذلك تولّد من جديد الأمل في الولوج إلى حجرات السيدات مرة أخرى. فواجه «السماء الملبّدة بالعواصف والغيوم» التي ترتسم في واقعه، بفعل الذكريات التي

استخدمها «كعلاج» يأخذه في أحلامه، إذ يقول: «لقد أخذت إجازة تامة من ألعاب الحياة: وها هو عناقنا الأخير». إنها حركة دفاعية نهائية في صورة تكريم للمرأة التي طالما مثَّلت جمهوره العظيم.

في مديح المُتَع الأرضية

لاحظ جان ستاروبنسكي Jean Starobinski أن «سانتوس هو الذي أنطق إيروس» من خلال كتابه القيّم مونتاني يتحرَّك[1]. ويكتشف المرء من خلاله التراجيديا الكامنة في جوهر فلسفة المتعة التي نادى بها مونتاني: الموت يمنح للوجود طعماً، وكذلك المحدودية الإنسانية التي يتميّز بها الضمير، إذن فعلى المرء أن يتمتع أكثر وأكثر بالحياة. أي أن نحب ونعيش «في التوّ واللحظة». ثم كتب في الكتاب الثالث من المقالات: «بالنسبة لي أنا أحب الحياة والتعلّم. وأنتهز ما أصادفه من مناسبات البهجة حتى أصغرها وأقلّها». استلهم مونتاني هذا النهم من السقطة المريعة التي لحقت به من أعلى صهوة جواده وقادته مباشرة إلى هاديس [2] لأنه لم يكن يعتقد بوجود الجنة!

أي أن مديحه للمباهج تزامن مع إعادة تأهيل جسدي، ومع كسر المحرّمات التي فرضتها أخلاقيات دينية دشّنت عصرًا جديدًا من الكبت الجنسيّ. قال نيتشه: «المسيحية سقت السّم لإيروس: ولكنه لم يمت به، بل تحوّل إلى فاسق». وخلال ألفي سنة من الإخصاء المسيحي ها

(1) Gallimard, 1982.

(2) في الاسطورة الإغريقية القديمة، هاديس هو الأخ الأكبر لزيوس. كما كان زيوس يسيطر على السماء كان هاديس يسيطر على ما هو أسفل الأرض لذلك اعتبر «سيد الجحيم». (المترجمة).

هو مونتاني يتعرّض للهجوم قبله. فقد حَرِص الأخلاقيون على رفاهية الحيوان، أما هو فلا يحكم عليه إلا بصفته شديد الإنسانيّة. قَدَرنا أن ترتبط أجسادنا بعِلَلِ أرواحنا. «وحتى على أكثر عروش العالم رفعة لا نجلس إلا على مؤخرتنا». كان متعطشًا «لتحريض الإنسان» ومنصرفًا لفضحه. كما نادى بحرّية الحديث في موضوع طالما سكت عنه العالم رغم انشغاله به! لقد غيرت الرغبة مسار العالم «فهي مادة تُتَدَاول في كل مكان، وبؤرة تطالعها كل الأنظار»، والكل يؤول في النهاية إلى «جماع الحيوانات». إذن أي حيوان متوحّش ذلك الذي يسبب الرعب لنفسه، وتثقل عليه لَذّاته، ويظل بائساً؟ ألسنا «وحوشاً بما يكفي لكي نسمي العملية التي أنتجتنا بالوحشية؟ فالإنسان ينبغي له أن «يتلذذ» بِنِعَم الطبيعة التي وهبتها إياه في صورة مُتَع جسدية. والحكماء شكروا الرب على كل نعمة من تلك النِعَم، لأنها كانت «ضرورية وعادلة»[1]. ولكن لا بُدّ من اقتران العقل بالمتع الجسدية؛ كي لا نتمتع «بغباء». كان مونتاني يدفع بالرذيلة لتوقظه أثناء نومه كي يستشعر متعة النعاس من جديد! يا له من ساخر، حين يضيف أنه من العبث أن يزعم فيلسوفٌ أنه لا يشعر بمتعة مع زوجة شابة بقدر ما يشعر بها مع الروح ، وأن يتباهى بأنه يتصرّف وفقاً «للنظام السائد» وكأنه ينتعل حذاءه طويل الرقبة من أجل جولة خيل! كذلك، منافِقات هُنَّ النساء المثقَّفات اللواتي يتحدّثن عن «الروحانية التامة» في ممارستهن للغرام، ويزدرين احتياجات الحواس. ولكن أيقبلن بمبادلة جمال سيقانهنّ بعقل سقراط؟

الفلسفة ذاتها لم تحرّض على إهمال الشهوات الطبيعية، شريطة

(1) Livre III, ch.13.

أن تكون باعتدال. وكان أريستبوس يردّ على الشباب الذين كانت تتورّد وجوههم بحمرة الخجل حين يرونه يدخل في الفوضى قائلاً: ليس العيب أن تدخل اليها، بل ألّا تخرج منها. كما أن الحكمة التي أرادها مونتاني «مرحة» كانت خاضعة لنظامه الخاص، حيث تتسع لاحتمالات الحب فتزدهر. أوَليست أخلاقياتنا نسبية؟ لم يترك كاتب المقالات مناسبة من دون أن يثبت لنا ذلك، مشيراً إلى مجتمعات قديمة تثمّن السلوكيّات الأكثر انحرافاً. فالمظهر اللامبالي، والشكوكية التي يعرضها لنا في الفصل المُعنوَن «عن العادات» من الكتاب الأوّل، يتناول الحب الحر، والحق في الإجهاض وفي الإشهار والجَهْر، كما أشار إلى الحالات المنتشرة عند بعض الأمم وفيها يتم إعلان الزواج وسط طقوس العربدة الزفافيّة مع شركاء متعدِّدين!

كما تضمَّنت اكتشافاته الإشارة لبعض العلامات الساديّة: «أحب كثيراً الجروح كما أحبّ الكدمات. والضربات القاطعة، كما الضربات المدارية». فالنار تُصدر ضجيجاً عند ملامستها للثلج. «والمتعة كذلك تبحث عن الاستثارة من خلال الألم. وتزداد روعتها إذا نضجت وتورّمت». لم يكن جورج باتاي Georges Bataille بعيداً عن الأمر ذاته حين أكد أنه يفضِّل مطارحة النساء العرجاوات، لأن حركتهن غير المنتظمة تثير عنده الرغبة. لقد مر بهذه التجربة وأهدى للقارئ القدرة الخارقة على تخيل أن المرء قد يحظى بقدر أوفر من المتعة إذا ما مارس علاقة شبيهة، حتى وإن لم تكن تلك هي الحقيقة. كان مونتاني أفضل من أتباع أبيقور المفضِّلين لكبت الرغبة، أو حتى من أنصار مذهب

المتعة، فقد كان ديونيسي (شهواني)[1]. نيتشه اعتبر مونتاني أباً روحياً، إذ قال عنه: «كتب هذا الرجل أن متعة العيش على هذه الأرض هي أن نزيد من تلك المتعة».

الدرس رقم 1: تأخير النشوة

صارت الحسيّة فضيلة، وعلى المحبّ أن يصير فنّاناً حين يمارسها. ويهدّئ من رغبته كي يطيل وقت التمتّع. كان مونتاني أستاذاً في الإيروتيكيّة: «من يسألني عن الجزء الأول من ممارسة الحب، سأجيبه: أن تأخذ وقتك! وهوالجزء الثاني أيضاً، بل والثالث». وتعدّ المطاردة، وليس افتراس الطريدة، هي ملح وفلفل العمليّة بالنسبة له. وتضايقه قليلاً تعبيرات الوجه التي تصاحب لحظة النشوة والتي تشبه «لطخة شعورية شنيعة وقاسية» وسط أرقّ وأحلى لحظات الحب. وهكذا «فكل ما يؤخّر المتعة يلهبها». و«كلما ارتقينا درجات السّلم لأعلى، كلما شهدنا على الرفعة والسموّ في الدرجة الأخيرة. وعلينا أن نختال بأنفسنا ونحن نسير كما لو كنا في الطريق المؤدي إلى قصر بديع، إذ نمر عبر أروقة ذات أعمدة فخيمة وممرات طويلة وصالات مبهرة والتفافات متعدّدة».

على العكس من سياق عصره الذي تميّز أهله بالتباهي بامتطاء الخيل بعنف وقسوة، كان هو يمتدح التمهيدات الأولى وفضائلها. كان يفعلها بكل الوسائل، وبكل شعرة في جسده. الفعل، والمداعبة والدلال وحتى الشارب الذي «يستخدمه في الحب» ويظل محتفظاً برائحة

(1) Marcel Conche l'avance dans Montaigne et le plaisir, BSAM, n. 29-30 , 1979.

القُبلة «الشهية» لوقت طويل. نصح مونتاني المرأة بأن تتعلم كيف تبدي رغبتها، وأن تستخدم حياءها في اللعبة، وأن تكذب إذا اقتضى الأمر، وأن تحافظ على شهية فرجها «شرهه». أما الرجل، على الرغم من تعجّله لإسقاط الأقنعة، فإنه يمتدح هنا جماليات التمنّع والعوائق. «فصعوبة التعيينات، وخطورة المفاجآت والخزي من اليوم التالي هي ما تضيف النكهة للطبخة»، وللاستمرار في هذا المجاز الغذائي: ارتفاع الثمن يكسب اللحم مذاقاً طيباً. «آه ! كم كان ليكرجوس[1] موفقًا حينما أمر ألا يمارس المتزوجون من مواطنْي لاسيديمون[2] الحب إلاّ خلسة، وخاصة لحظات الجنس الملتهب. من دون جانب «الخيال» فإن الممارسة الجنسية ستختزل إلى مجرد لذة إفراغ خصيتين.» ويتساوى حب البشر في هذه الحالة مع حب الحيوانات. وكما أدرك أفلاطون الأمر، فنحن لسنا إلا ألعاباً في يد الآلهة.

لكن وعلى الرغم مما سبق لماذا يؤلّه الجنس في كل مكان من

---

(1) كان ليكرجوس (820-730 قبل الميلاد) هو المشرِّع الأسطوري بأسبرطة الذي حولها إلى مجتمع عسكري وفقاً لعرَّافة معبد أبولو، واهتمت إصلاحاته بثلاث فضائل أسبرطية هي: المساواة (بين المواطنين)، واللياقة العسكرية، والصرامة. ذكره كثير من المؤرخين والفلاسفة القدامى، إلا أن كون ليكرجوس شخصية تاريخية حقيقية يظل غير مؤكد حتى الآن ، وبالرغم من ذلك اعتبر العديد من المؤرخين القدامى ليكرجوس مسؤولاً عن الإصلاحات العمومية والعسكرية التي غيّرت المجتمع الأسبرطي في النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد. (المترجمة).

(2) لاسيديميون هو ابن زيوس في الأسطورة الإغريقية وزوج إسبرطة. وهو مَنْ أسّس مدينة اسبرطة على اسم زوجته، ومع مرور الوقت اندثر اسم لاسيديمون وبقي اسم اسبرطة. والمقصود هم المتزوجون في هذه المدينة، أي اسبرطة. (المترجمة).

العالم؟ ومن ناحية أخرى، إذا كان هذا الجزء من جسدنا لا يتعلق إلّا بمجرّد وظيفة طبيعية، أليس من الأوْلى أن يمنحنا متعة لا محدودة، مقارنة بباقي الأجزاء؟ ونتذكر هنا قول الفيلسوف موريس ميرلو-بونتي[1] Maurice Merleau-Ponty : «في الواقع، لا توجد متعة تنبع من الجسد وحده من دون أن تبحث خارجه عن متعة أخرى أو عن قبول»، فهي شغف يستمر حتى بعد الشبع «وتتجاوز حَدّ ممتلكاتها» كما كتب مونتاني. وهو ما يجعل الرغبة غير المتبادلة بلا قيمة. «وهكذا يقولون إنهم يمارسون إرادتهم ولديهم حق». ثم ندّد «باللواتي لا يقمن بذلك إلا بدافع شهوة جسديّة، إلا أن ذلك لا يعد متعة أنانية».. ثم أضاف: «من المخيف تخيل جسد محروم من العاطفة». ووصف بشاعة التمتع مع جسد غير راغب على غرار ذلك المصري الذي كان يصل للنشوة مع الجيفة التي حنّطها، أو كما فعل بيرياندر مع زوجته التي وافتها المنيّة. فالحب تجارة «لا تعترف إلا بنوع العملة نفسه». وتحتاج إلى «علائقية وتواصل». فمتعة المرء لا ترتبط بذاتها بقدر ما تتوقف على ما يشعر به الشريك، إذن «فمن يستقبل المتعة ولا يمنحها ليس بالشخص الكريم» و«امتزاج الشريكين من دون حب أو من دون التمسّك بضرورة المتعة، يشبه كونهما ممثلين، ويشبه من يدّخر أمانه، لكن بحماقة». إن من يمارسونه على هذا النحو لا يمكن أن يأملوا في الحصول على «ثمرة تُسْعِد أو تُرضي الأرواح». بل هي خيانة، كما رأى مونتاني، مارسها رجال عصره. وهكذا تنبأ بمستقبل تثأر فيه النساء، كما نصحهن، فيلعبن «دورهن في الملهاة» وأن عليهنَّ الاستعداد لهذا النوع من المفاوضات «من دون عاطفة، أو رعاية أوحب». حينها يُعاقَب

(1) Maurice Merleau-Ponty, Signes, Gallimard, NRF , 1960.

المتمتعون الحقراء على جرائمهم، فتستخدمهم السيدات كأنهم مجرد صبية سوقيين كصبية المزرعة.

ولأن مونتاني عاشق واعٍ ومقدّر للمعشوق، فهوعلى العكس لديه اهتمام صادق وتقدّمي موجّهٌ إلى إرضاء الشريك: «أخشى أن أهين من أحب، بل أحترمه عن طيب خاطر. وإلا فماذا تكون تلك العلاقة التي ننزع عنها الاحترام فنسلبها بريقها». واعترف بأنه في هذه الحالة فإن المتعة التي يمنحها تداعب خياله بشكل أكثر عذوبة مما هي عليه في الحالة المغايرة. بل وينصح بأن يطالب الآخر بحقه في التدليل على طريقة المزارعين الإيطاليين: «دللني أنا، كي تتمتع أنت».

التحكّم في الشعور

«وهكذا، لم أكن أترك لنفسي العنان: فأتمتَّع من دون أن أنسى نفسي!» قليل من المشاعر من دون استغراق في أحلام اليقظة. فالحب عند مونتاني ليس سوى: «إثارة يَقِظة، وحيوية، ومرح». وهو لم يرَ فيه «المتاعب، والأسى»، بل هوشعور «مُحفِّز وعَطِش». «ينبغي أن نتوقف عند هذا الحد، فالحب لا يزعج إلا المجانين». ماذا؟ ما من جنونٍ يكمن في قلب الحب! ولا اضطراب وارتباك! ولا عبارة «حين رأيتك فقدت توازني»! أين ذهبت كل نماذج العشق التي احتفى بها الأدب؟ فينوس بالتحديد، «لم تكن جميلة وهي عارية تماماً» من وجهة نظره. والشّعر المثير يمثل في نظره «لحناً أكثر رومانسية من الحب ذاته». ولكننا نَعزو لمونتاني هذه العبارة المطلقة: «إذا لم يكن الحب عنيفاً، فذلك ضد طبيعته، وإذا كان العنف ثابتاً فذلك ضد طبيعة العنف». وأيضاً هذه العبارة: «لا توجد فينوس من دون أن يوجد كيوبيد». إلا إذا نظرنا إلى كيوبيد على أنه ملاك مسالم يحمل سهاماً في جعبة. ألا يُعَدّ ذلك

تناقضًا جليًّا؟ إنها مفارقة الفلسفة التي تنادي بالتحكم في العواطف، والتي ليست إلا نضال من أجل سيادة الذات. وللحقيقة، فإن مونتاني لا ينكر عذابات الشعور بالحب، بل لقد ذكر أنه عانى في شبابه من كل «نوبات الجنون» التي تحدّث عنها الشعراء. ولكن «ضربة السوط» كانت إحدى وسائله. كتب لوكريس عن العشاق «إن حياتهم تكون رهناً لهَوَى الآخر[1]». هذا الخضوع هو ما كان يسبِّب الرعب لمونتاني والذي دأب على البقاء في منطقة «الاعتدال». فالتمتع بكل أشكاله هو خير طالما لا يقيّد الحريّة، والاستقلاليّة، وامتلاك الإنسان لذاته. فقد كتب في الكتاب الأوَّل «أعظم ما في الكون هو أن يكون الإنسان ملكاً لنفسه، وأن يُعير نفسه للآخر، ولكن لا يمنح نفسه إلا لنفسه». وكما أوضح ستيفان زفايج Stefan Zweig[2]، فإن هذه هي القاعدة الوحيدة الثابتة في كل أعمال مونتاني الأدبية. والحب، مذّاك، لا يكون مقبولاً إلا كممارسة حرّة، إرادوية، وتحت السيطرة. هذا التحديد لكيفية إدارة ترموستات المشاعر الذاتية يميل قليلاً نحوالرواقيّة، ولكنه يحتضن كذلك رؤية مونتاني. في الواقع، لقد عاش حياة عاطفية مضطربة. فكل الأسماء والعلاقات الطويلة التي دخلت قائمة غزواته المثيرة لم تخرج منها[3] .

القلعة الحصينة

يقول مونتاني: «فليتجه المرء قدر المستطاع إلى الحرية واللامبالاة»، ويحذِّر من الاستسلام لقدرة «الوسائط العاطفية» المربكة بل وينصح بالتزام شاطئ الذات، المرسَى الأوحد «للميناء الدائمة» في العالم

(1) Lucrèce , De la nature, IV, v. 1122.

(2) Stefan Zweig, Montaigne, 1941.

(3) Alexandre Nicolaï , Les Belles Amies de Montaigne, Dumas, 1950.

كله. وأن يرتاب في «دقّات القلب» لأنه أكثر تقلّباً من عضوه الأهوج. واستبعد أن يترك ذاته لمشاعر يخاطر معها بالضّياع الكامل. بل ما يهمه هو الحصول على المتعة، والتخلي عن «الغوغائية»، كما دعا إلى ذلك شوبنهاور في ما بعد. والحالات القليلة التي شعر فيها بالغيرة أقرّ «أنها مرض بلا جدوى يصيب النفوس البشرية». لم يقبل الفيلسوف أي شرخ في «القلعة الداخلية» التي أشار إليها الرواقيون. وهو الدفاع الذي حاز الإعجاب في مواجهة الفوضى التي عمَّت عصره، وكانت مدعاة للندم بلا شك بين كل الخبرات الإنسانية الأكثر كثافةً. هل بإمكاننا أن نلمح وسط هذه الظلامية والدماء، التي سالت في القرن الأكثر عنفاً في تاريخ فرنسا، رياحاً مواتية للارتباط والحب؟ لو كان الأمر كذلك، لحملنا أنفسنا على تصديقه. وبالتوازي مع عصرنا- سان بارتيلمي- 11 سبتمبر 2001- الحروب الدينية- محور الخير في مواجهة محور الشر- الطاعون- الإيدز. فمن الممكن أيضاً طرح الفرضيّة باعتبارها صالحة اليوم، حيث سيق الحب نحو الشر. وهنا نتذكر العبارة التي صاغها فرويد بكثير من الدقة، حين قال إن أجهزتنا المناعية تكون في أضعف حالاتها حين نحب. وأن الألم يفر من أنصار مذهب السعادة (الإيدونيست) مثلما هاجمت الأوبئة عمدة بوردو في قصره!

قد يكون من الملائم أن نوضح أن مونتاني ينتمي إلى تلك الفئة من البشر التي لم تعرف عاطفة الأم. لقد تربّى بالكامل في حضن العائلة، انتقل «ميشو» الصغير من أحضان المربية، التي قامت بإرضاعه أيضاً، إلى كنف المدرِّسين المعنيين بتعليم الأطفال في منازلهم، قبل أن يلتحق وهو في السادسة بالمدرسة الداخلية في جويان. أبوه هو بيير إيكام وكان «أفضل أب بين الآباء» في نظر ميشيل. كان والده مسؤول الاسطبل الملكي ويحمل نسب عائلة من التجار في مدينة بوردو انضمت حديثاً

إلى طبقة النبلاء، وهو من اختار هذا النوع من التعليم لابنه. وكانت علاقته بوالده تتسم بالكثير من الحنان الحقيقي، على عكس، علاقته بوالدته، التي غابت تماماً عن الذكر في كتابه الأعظم «المقالات»، وهذه العلاقة التي كانت بمثابة الحرب المفتوحة. فهي امرأة جافة وعدوانية، تدعى أنطوانيت دولوب، لم تحتمل إطلاقاً مغامرات ابنها البكر. وحاولت بشتى الطرق إقناع زوجها بحرمانه من الميراث. والضغينة كانت راسخة بينهما حتى إن بيير ايكام احتاط ونوّه في وصيته بكل شروط ميثاق التعايش بين الأم والابن بعد موته، بالتفاصيل المملّة حتى في ما يتعلّق بأيّ السلالم الخشبية المتنقلة سوف يستخدمها كل منهما! ولكن على الرغم من هذه الاحتياطات الدقيقة، كان السلام بينهما مستحيلاً. رحلت أنطوانيت من القصر، وختمت حياتها في بوردو، في عمر الثامنة والثمانين، من دون أن تتنازل عن أي من ممتلكاتها لحفيدتها ليونور، الطفلة الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة من أبناء ميشيل.

رى ما عساه يمثل من ثِقَلٍ على النفس كره كهذا[1]؟ عزى البعض[2] قدراً كبيراً من سوداويّة مونتانْي إلى كراهية الأم، المواتية لانطوائه.

المحَبّة السامية

ذات مرة، جرّب مونتاني الهَجْر، على الرغم من رغبته في أن يظل مخلصاً لهذا الحب، وشاركه رجل آخر في هذا الشعور كان يدعى اتيان

(1) راجع ألبوم Montaigne, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 2007، حيث طرح Jean Lacouture هذا السؤال. كما يمكن العودة إلى كتابه Montaigne à cheval, Seuil, 1996.

(2) Michael A. Screech, Montaigne et la mélancolie, PUF, 2002. دراسة وافية تصف التناقض بين الشخصية الكئيبة لمونتاني والفلسفة التي تتوجت بكتابه المقالات.

دي لا بواتي Etienne de La Boétie حيث كل شيء كان مسموحاً بينهما، حتى إنه أطلق عليه حب عمره. عندما التقيا للمرة الأولى في عام 1559، كان مؤلِّف «خطابات العبودية الاختيارية» يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، وميشيل خمسة وعشرين عاماً. كان الأول متيَّماً بامرأته، والثاني يحبّ كل النساء. المحامي والقاضي، هل استهلكا جسدياً تلك الصداقة العميقة، التي قد لا يتحقق مثلها إلا مرة واحدة كل ثلاثة قرون في أفضل التوقعات؟ أسهم كتاب المقالات بإيضاح بعض التفاصيل التي تفيد في الإجابة عن السؤال. حيث ذكر في إشارة موجزة إلى الممارسات الإغريقية، «التي ترفضها أخلاقياتنا»، ولكن النقد كان ينصبّ تحديداً على الفارق الزمني بين العاشق والمعشوق. ولكنه بلا أهمية، على مستوى العمق. المهم هو أنه من خلال علاقته بلا بواتي، اكتشف تلك الصلة الحميمة بين الأرواح حيث يذوب كل منهما في الآخر تماماً بحيث تصعب رؤية «الخط الفاصل» بينهما. وصف مونتاني علاقته بإتيان في الفصل المحوري المعنون «عن الصداقة (I, 27)» بأنه تحت تأثير نمط من الافتتان والدراما العاطفية أصابته صاعقة الحب أثناء حفل أقامه برلمان مدينة بوردو: «وفق بعض تعليمات من السماء»، «لا أعرف أي قوة غير مفهومة وقدرية». إنها «صلة إلهية»: «كان يعرفني أكثر من أي شخص آخر»، «حتى أعمق نقطة في دواخلي». وفي النهاية اختفى إتيان، فقد اختار أن يكون مع ميشيل وليس مع زوجته حيث توفي إثر نوبة إسهال حادة وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وتركه مدمَّراً، كشخص بُتِرَ نصفه، ملقى «في عتمة الليل الخانقة» لحياة الوِحدَة. لقد أحبَّه بالتأكيد حباً لا يُوصف، حُبًّا لا يفسِّره سوى سبب مبهم «لأنه كان هو ولأنني كنت أنا».

انطلاقاً من الأربع سنوات القصيرة جداً والأساسية جداً، شكّل ميشيل أفكاره العظمى حول العلاقة بالآخر. وعبَّر عن ذلك في كتاب المقالات، والذي ربما لم يكن ليظهر إلى النور من دون هذه الحوادث التراجيدية، والذي رمّزَ «القبر» الحقيقي للابواتي، وفقاً لتعبير ميشيل بوتور Michel Butor[1]. في ذلك الكتاب يستعيد مونتاني لقاءه مع الصديق «الأرقّ والأعزّ والأكثر حميميّة» الذي كان بمثابة «الحبيب القربان» لمكتبته. «استمتع جوي وحده بصورتي الحقيقية، وحملها. لذلك أفك شفرة ذاتي بتعجب».

أشار جان ستاروبينسكي Jean Starobinski إلى أن هذا الحِداد على روح إتيان والذي استمر «إلى الأبد» سيكون بلا شك هو الشيء الوحيد المستمر في حياة تميّزت بالتقطّعات والأحداث الموقّتة. حيث خصّها مونتاني بالأولوية الاستثنائية للمحبة، قبل علاقاته الحسيّة مع النساء.

صحيح أن صاعقة الحب «أكثر نشاطاً، ولذعًا، وعنفاً»، إلا أنها «متهوّرة وطائشة» و«أمر يمكن تجاوزه وإنهاؤه». والشهوة التي لا تستمر لا نتذكرها «إلا قليلاً». أما الصداقة، فعلى العكس، تغمرنا بحرارة دائمة ومعتدلة. فهي متينة ويمكن الوثوق بها. سامية من جميع جوانبها. «وتصون طريقها بمسير رائع وشامخ، ناظرة حولها في خيلاء». أما الرغبة العاطفية «فتمرِّر أطرافها أسفل منها بكثير». ليست خاضعة لقوانين الدم، ولا تلتفت لأي نهايات إلّا ذاتها كما يلتفت الزواج نحو الإنجاب، فالصداقة الحقّة هي اختيار، إعجاب وإثراء

(1) Michel Butor, Essais sur les Essais, Gallimard, 1968.

متبادلَيْن. وهي تحقّق الوحدة التامّة بين الارتباط والحرية.

لكن هل تستطيع النساء حقاً إقامة هذا النوع من العلاقات العميقة؟ أعداء المرأة يشكّون في الأمر! بحجة أن «أرواحهن لا تبدو ثابتة بالقدر الكافي لتدعيم عناق العقدة الوثيقة والدائمة». إلا أن مونتاني تفضَّل وقال إنه إذا كانت الصداقة السامية مع الجنس الضعيف ممكنة، فإن هذا النمط من العلاقة يكون فيه الإنسان مرتبطاً بكامل كيانه، وتتحد من خلاله الأرواح والأجساد، يعدّ مثالاً للكمال الإنساني. وهنا يُقبّل إيروس الحب فيليا آلهة الصداقة عند القدماء. ولكنه استطرد سريعاً قائلاً: «هذا الجنس منعدم المثال لا يمكن أن يحدث».

ما من حب داخل القفص

إن محاولة التوفيق بين الحب والصداقة والرغبة من خلال الزواج لهي يوتوبيا معاصرة تسْخَرُ من هذه الشكوك. وافق مونتاني، رغم كل شيء، على قبول هذه المؤسسة التي تخلو من الحرية إلا في خطوتها الأولى فقط، حيث «الدخول الحر»، وذلك بعد عامين من طيشه العنيف إثر فقدانه لإتيان. فتزوّج وهو في الثالثة والثلاثين من العمر، في 22 سبتمبر 1565 من فرانسواز دو لا شاساني، التي تصغره بأحد عشر عاماً، والتي سيصبح والدها لاحقاً رئيساً لبرلمان مدينة بوردو. وبالتأكيد يرجع ذلك للابتزاز الأبوي - لا زواج ولا ميراث - أكثر من الميل الشخصي. ألم يقل إنه كان «مدفوعاً بمناسبات غريبة» ولو كان الأمر يتوقف عليه وحده لفرَّ من زواج الحكمة نفسها؟ الأمزجة العربيدة كما هو الحال عندي أنا الذي أكره كل ارتباط وإجبار ليست خاصة. «ولكن يمكننا القول أن العادة وآداب السلوك في الحياة المشتركة تجرفنا في

تيارها». مونتاني مرة أخرى موزع بين رغبته الأصيلة في الحرية ونزعته المحافظة العائلية.

الحب من جهة، والزواج من جهة أخرى. وكي يعزِّز من ثبات كلا الطرفين، سوف يؤكد الفصل التام بينهما. فالعشيقات في المدينة، والزوجة في القصر. والخلط بين القطبين هو الخطيئة بعينها؛ إذ نخاطر في هذه الحالة بإفساد الاثنين. وهنا نتذكر خطأ جوبيتر حين تزوَّج المرأة التي «عاشرها كحبيبة» قبل أن يضيف تعبيره الدقيق جداً: «الأمر يشبه أن نأخذ ملفّاً ملقى في سلة المهملات، لنحمله بعد ذلك فوق رؤوسنا». فعلاوة على ذلك، هناك قَيْد مزدوج يجمع بين النمَطين، أحدهما يتعلّق بقوانين الزواج، والآخر بالحب الذي «يجعلنا عبيداً للآخر». وتكمن السمة الوحيدة المشتركة بينهما في هذا الاستلاب، والذي يُعَدّ في نظر مونتاني النقيصة الكبرى. وأصبح جلياً أنه ما من مجال ليجد المرء السعادة في الارتباط الزوجي. لنتذكّر عبارة يوريبيد: «لن أقول أبداً إن الزواج يحمل من البهجة أكثر مما يحمل من الدموع». وهي العبارة التي وُجِدت محفورة على قوس مزخرف بالغرفة التي كان يعمل بها مونتاني.

مرة واحدة فقط كان ملتزماً بهذا العَقد، فكان الأوان قد فات لإعلان «العصيان». فالمرء لا بُدّ وأن يحترم قَسَمه، أو على الأقل يبذل قصارى جهده ليفعل. على الرغم من أن مونتاني كان حصيفاً للغاية في ما يتعلّق بالارتباط، فهو لم يجد غضاضة في الإعلان عن «أنه كان يتأمّل بتحفّز بالغ قانون الزواج» حتى إنه لم يجد فيه «وعداً أو أملاً».

والإعاقة تأتي من كون المرء لا بُدّ وأن يعيش استقلاليته، وأن «يحافظ لنفسه على غرفة خلفية يمتلكها بالكامل ليمارس فيها صراحته وحريّته وعزلته ووحدته» كما كتب في الكتاب الأوّل في العام 1571

حين ترك مهامه في البرلمان ليتفرّغ للكتابة وسط آلهات الإلهام. انتقل ميشيل بحصنه إلى برج على زاوية عند أطراف الحقول، لا تزيد مساحته على خمسين متراً مربعاً أي ما يوازي جزءاً من غرفة في القصر الذي تقطنه زوجته فرانسواز. فانتقل من إقطاعي يملك الضّيع إلى ساكن لحجرتين ومطبخ، بينما ظلت مكتبته عند فرانسواز والحجرة التي ينام فيها «متيبّساً ووحيداً، على الطريقة الملكية» مثل ديوجين في برميله. وهكذا قضى مونتاني عشرين عاماً منغلقاً في قوقعته، لا يكسر هذا الانغلاق سوى أسفاره المتعددة. حيث مهامه الدبلوماسية ورحلته إلى إيطاليا التي استمرت سبعة عشر شهراً من دون امرأته أو طفلته! وبفضل هذه الشهور استطاع الفرار من السجن الزواجي. وقد دوّن في يوميات رحلته «كنت أنام وأدرس وقتما أشاء، وحين يأخذني الهوى لأخرج كنت أجد الصحبة متاحة في كل مكان من النساء والرجال الذين أستطيع الحديث معهم». كان يجلس متفاخراً مالكاً العالم من دون أن يتلطّخ بنطاله بالوحل، كفسحة الشباب الرومانيّ والفلورنسيّ. فهو ببساطة سعيد وحر. وفي نهاية الأمر، تجرأ أن يقول: «بزواجنا لم ننجح في أن نبقى أحدنا بجانب الآخر».

ربما تزوجت فرانسواز «ذئباً مشتعلاً» إلا أن سريرها ظل بارداً طوال الوقت. يبدو أن مونتاني لم يكن يزور زوجته إلا نادراً. ويؤكد صديقهما فلوريم ودوريمو أنه لم يرهما معًا أبداً، ومع هذا يُقال عنها إنها كانت «جميلة بما يكفي» وخليعة بعض الشيء. أنجبت له ستّ بنات متن جميعاً صغيرات. فالجنس، فيما عدا من أجل الإنجاب، لا يبدو أنه كان جزءاً من «الأعمال المشتركة» التي تندرج في سياق الزواج. وبالأحرى كان يرى فيه مونتاني أمراً غير لائق يشبه زنى المحارم. هل هي القصة

القديمة المتعلقة بالأم والعاهرة؟ ففي هذا السياق الزواجي العاقل «الرغبات لا تتّقد» بل تتلاشى مثل الرغوة. ولكن لا ننسى أن «الزواج الجيد» إذا تحقق، هو مساحة رقيقة للحياة تتسم بالانتظام والثقة وبعدد لا نهائي من الطقوس المفيدة والراسخة والالتزامات المشتركة، لا توجد امرأة ذاقت طعم ذلك وتريد أن تحل محل عشيقة زوجها. الحب قائم على نار المتعة أما الزواج فيقوم على «الفائدة والعدل والشرف، والديمومة» صحيح أنه متعة سهلة، لكن متفق عليها أكثر من غيرها.

نساء ورجال: الصراع ذاته

ولكن أهم ما يميز مونتاني هو قبوله التام والصريح لحقيقة الرغبة النسائية. حتى وإن لامَسْنا العنف في الرغبة النسائية، فذلك لكي نصل للمساواة في طبيعتها مع طبيعة رغبة الرجل. وفي حال كانت النساء مفتونات بفضائح نضوجهنَّ السافرة، فهنّ يطالبهن مونتاني بتبرير «الفجور» الذي يتشاركن فيه مع الرجال «بالتنوّع والتجديد». بل إنّ مونتاني أصبح نَسَوياً حين أكد أن من حقّهن رفض القواعد التي تُفرض عليهن، لأن هذه القوانين وُضعت من دونهن ومن دون موافقتهنَّ، إنما وضعها الرجال. بل كان متعاطفاً معهنَّ أيضاً حين دفع بهنّ إلى أحضان العشيق العابر، واكتفى بنصحهنَّ «بالكتمان والتواضع» في الكتاب الثالث. الغلطة نفسها لا تهم طالما اهتممنا بمظهرها! ولها طرق تدبير عند «من لا ترغب في إعفاء ضميرها من ثقل ما، بينما ترغب في إعفاء اسمها من هذا الثقل». وبماذا سيرد على التوبيخ؟ «كل منكن مدللة بداخلها». هذا الأمر منتشر للغاية حتى إنه لن يضير غَضّ الطرف عنه إذا ما استقصينا وراء شريك حياتنا. وسنكون مخدوعين بشكل أقل إذا ما قلّت مخاوفنا من أن

نكون كذلك. والأمر يشبه «زواجاً بين امرأة عمياء ورجل أصم». لكن مع الحد من حرية الزوجين، كما يريد المجتمع والكنيسة، فإننا نحوّل هذه المؤسسة الجميلة إلى قفص حيث: «تيأس العصافير خارجه من الدخول إليه، فيما ييأس مَنْ بداخله من الخروج منه».

ولخّص مونتاني الفكرة ذاتها التي نستطيع استخلاصها من كتاب الجنس الثاني لسيمون دوبوفوار قائلاً: «أقول إن الذكور والإناث ملقَون في القوقعة ذاتها، والفرق بينهما ليس كبيراً، فيما عدا المؤسسة والعادات». ويضيف «إن إدانة أحد الجنسين أسهل من التماس العذر للآخر». لم تكن الكاتبة النسوية ماري دي جورناي Marie de Gournay صاحبة كتاب المساواة بين الرجال والنساء (1622) على خطأ إذن.

أهـو حُـبٌّ أخـيـر؟

عبقرية عصامية، ومستقلة إلى آخر مدى، إنها ماري دوجار دوجورناي Marie de Jars de Gournay التي أضاءت «الضبابية» القاتمة في حياة مونتاني، حين بلغ من العمر خمسة وخمسين عاماً. حين ذهب إلى باريس في عام 1588 للتفاوض بشأن اتفاقية عسكرية مع هنري الثالث بطلب من مقاطعة نافار، حينها تعرّف مونتاني إلى المثقّفة الشابة ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً والتي سيطلق عليها سريعاً «ابنته الروحية». كانت معجبة بشدة بمؤلّف المقالات الذي اكتشفته وقرأته في سن الثامنة عشرة. وحين قابلته في باريس، بعد أن ظل المَثَل الأعلى لمخيّلتها طويلاً، قابلته بعبارات المديح، التي سريعاً ما ردّ عليها بـ«فلنلتقِ غداً» يملأه الرجاء والبشر. بعد هذا اللقاء بقليل، انتقل مونتاني عند الفيلسوفة في بيكاردي، لمدة ثلاثة أشهر من التبادل

الروحاني المكثّف. ولم يكفّا بعدها عن التراسل. ظُلمت هذه السيدة من قِبَل التاريخ حيث تم تناسيها وتصويرها بشكل سافر كنصّابة عجوز رغم أن الفضل يرجع إليها في نشر النسخة الأخيرة من كتاب المقالات التي ظهرت في عام 1595، حيث عكفت على تجميع ملاحظاته لمدة خمسة عشر شهراً عاشتها في هدوء مع فرانسواز في القصر بعد موت مونتاني. وفي المقدمة التي كتبتها، وصفت علاقتهما: «عندما استأجرني، تملّكته أنا: فأنا معه كيان يختلف كلياً عني من دونه. لم يبقَ معي سوى أربع سنوات، وهي الفترة نفسها التي قضاها مع لابواتي». كان التوازي كاملاً في حياة مونتاني إذن. فالبداية والنهاية في حياة ميشيل إيكَام تأطّرَت بهاتين المَحبتَيْن الاستثنائيّين أوالحبّين؟ «بالتأكيد هي حبيبة بالنسبة لي أكثر من كونها ابنة، وتغلغلت في عزلتي ووحدتي تلك، كجزء من أهم وأجمل أجزاء نفسي الحميمة، فلم أعد أنظر إلى غيرها في العالم». هذا الإعلان المدوّن في الكتاب الثاني من المقالات يشكل على الأقل اعترافاً مختلجاً بما حقَّقه مونتاني من «صداقة مقدَّسة»، حيث الحرية اللامشروطة قادرة على خلق الارتباط الكامل بامرأة. وربما أنه نجح في إكمال المهمة التي ترجع إلى «نحن كرجال محبَطين لا نطلق العنان لأرواحنا كي تستيقظ بفعل حديث الآخر أو مثاله، الذي يتخفى وراء المظهر العادي للانسان». وأن يكسب الحرية المطلقة، تلك التي يحتذيها المرء عندما يخاطِر فعلياً.

فجأة، هزُلَ جسد مونتاني «الذي كان رقيقاً جداً في هذه المرحلة»، فقد انفطر قلبه بفقد صديقه الأقرب لابواتي، وبفعل الألم المتراكم على مدار السنوات، فاستسلم لحلم البدء من جديد، حيث يكون المرء مستعداً للحب أكثر من أي وقت مضى. وكتب في الفصل الخامس

من الكتاب الثالث، آه لو يأتي الحب من جديد «كان ليعيد إليّ اليقظة والرصانة والسمو، والعناية بنفسي: ويدعم قدراتي، ولا تستطيع تجاعيد الشيخوخة، تلك التجاعيد المشوّهة والمثيرة للشفقة، أن تَقوى على أن تفسده: فيعيدني إلى الدراسات المقدّسة والحكيمة التي بها أستعيد نفسي المحترمة والمحبوبة، ويطرد عن عقلي اليأس من الذات ومن نفعها وأعود إلى ذاتي. مطلقاً نفسي في آلاف الأفكار الخانقة، والشجون الكئيبة التي نحملها في هذه السن بفعل الفراغ والحالة الصحية السيئة، ويعيد الحرارة، على الأقل في أحلامنا، إلى الدم الذي فارقته طبيعته، فيقوّي النفس ويطيل الأعصاب وتستعيد الحياة شبابها وطَرَبها، لهذا الرجل المسكين الذي يأخذه القطار سريعاً إلى نهايته».

لم يستطع شاتوبريان Chateaubriand في كتابه ذكريات قبر آخر أن يمنع ضحكة تهكّميّة: «آه يا ميشيل المسكين، لقد ذكرت أشياء ساحرة، ولكن كما رأيت فالحب في مثل عمرنا لا يأتينا بما ذكرته أنت. ولا نمتلك سوى شيء واحد لنفعله: هو أن نتنحّى جانباً في صَرَاحة تامة».

ولكن ميشيل دو مونتاني، كان واعياً تماماً لما تفعله الشيخوخة بنا، وردَّ على كلام شاتوبريان مقدَّماً قبل كتابته إذ قال: «من دون التطلّع والرغبة فلن تكون لنا قيمة بعد الآن».

إنها سخرية القدر، فهذا الرجل الذي لمح لتوّه القدرات الخارقة للحب يقبل بفكرة أن هذه الصلة تثري النفس أكثر مما تقيّدها، ولم يستطِع أبداً، حتى بعد موته، أن يوفّق بين الجسديّ والروحيّ في كيانه. فوُوري جسده في الثّرى في كنيسة فويانت في مدينة بوردو، بينما عهدت فرانسواز بقلبه إلى كنيسة سان ميشيل دو مونتاني. كان ممزَّعاً حتى في مماته.

-4-

جان جاك روسو

حياةٌ وموتٌ من أجل الرومانسية

«حين تتبنّى مفهوماً مثالياً ونبيلاً ومتكاملاً عن الحب،

فأعلم أنك خاسرٌ لا محالة

.. لأنه لن يرضيك شيء بعد الآن!».

ميشيل ووليبيك، أن تبقى حياً، 1997.

لا تكفي كرّاسات السفر والسياحة لتقديم فكرة كاملة عن «الرومانسية». تلك التسمية التي نطلقها بدافع من الكسل أو الاعتياد وبإصرار تام. حيث تتضمّن تلك الكرّاسات تصويراً لمشاهد استقبال المتزوجين حديثاً بالورود والملابس المزيّنة وأطباق الفاكهة المعفاة من الضريبة في المطارات. إلى جانب مشاهد الحب والدلال بين الحبيبين، متشابكَيْ اليدين ووجهيهما يتطلعان إلى غروب الشمس على حافة المحيط الممتد. أو على شواطئ أغادير المغربية، لذوي الميزانية المتواضعة. والحقيقة، أن كل ما سبق يتقاطع بشكل ما مع جان جاك روسو وهو جالس على أحد أطراف العالم أمام شجرة جوز.

باقي القصة معروفة مع الأسف! يعود العروسان إلى موبوج أو إلى دوسلدورف[1]. وفي غضون بضعة أشهر، يبدأ التقاذف بالأطباق. فالحب، الذي اعتبره الإغريق نصف إله، له تاريخ صلاحيّة هو الآخر. غالباً، لا تتجاوز ثلاث سنوات. هذا ما قرأناه هنا وهناك، لذا لا بد وأنه صحيح. ويبدأ كلاهما تعارفاً جديداً على الإنترنت، ثم يكون لدينا بول

(1) موبوج هي مدينة فرنسية تقع في شمال فرنسا. ودوسلدورف إحدى أكبر مدن ألمانيا تقع في غرب ألمانيا. (المترجمة)

وفيرجيني جديدَين، ممسكَين بكأسَيْ الشمبانيا على الطائرة المتّجهة إلى جزرالأنتيل[1]. ويتبدّل شعور كل «شريك» منهما من وقت لآخر، ولكنها تفاصيل لا تهمّ.

إذن يدرك الأذكياء الآن ما نتحدث عنه ويسمّى الحب الرومانسي: إنه كذبة هدفها مكنسة السجاجيد. وخرافة، نسائية بالأحرى، إذ يكفي تصفّح مجلة بورنو ليثبت العكس، أي الحقيقة: الجنس فقط هو ما يهم، أما الباقي، فتمويه معسول واحتيالات حيوان اجتماعي ضخم. وربما يرجع ذلك، في أحسن تقدير، للرغبة في التمسك موقتاً بالشبقية وزيادة النسل. وفي أسوأ تقدير، لكي تدور عجلة كل أشكال المعاملات بين البشر، وإلّا فسيكون لدينا أعزب ماركسي كئيب جديد. إذن كي نعطي دفعة للإنسان في عصر الديمقراطية، ينبغي أن نوفّر له الخبز، وجلسة على ضوء القمر.

يوتوبيا عاطفية غارقة

وُلدت الرومانسيّة في القرن الثامن عشر في مواجهة الامتثاليّة البرجوازيّة، ولإدراك ذلك يستلزم بذل جهد خارق. تلك الرومانسية التى تبحث عن إيقاظ قوّة الشعور في مقابل الواقعيّة المحدودة للاهتمامات الفردية لأبناء المجتمع. والتي تريد تأهيل إقبال الإنسان على الآخر، وحب الفرسان وإبراز معاني السموّ والنبل، في مقابل نظرية هوبز Hobbes القائلة بأن «الإنسان هو ذئب الإنسان الآخر».

---

(1) هي مجموعة جزر تقع في البحر الكاريبي على شكل قوس وتمتد بداية من كوبا وحتى فنزويلا. قد تنتمي جغرافياً إلى جزر الهند الغربية ، وإدارياً إلى أمريكا الشمالية، وأحياناً ما تتبع قارة أمريكا الجنوبية نظراً لتحدث معظم أهلها بالإسبانية. (المترجمة)

إنها حركة تحرر ضد المادية العلمية والتجارية البحتة، التي تسير بخطى واثقة لتنتصر في أوروبا كلها. تلك هي رومانسية الأصول. وفي هذا الكفاح يفرض الحب نفسه كحليف موضوعي.

تستوطن الحب طاقة جليّة، قد تقود المرء في بعض الأحيان إلى الجريمة وتقوده كذلك إلى الأعمال التطوعيّة والإنسانيّة. وبفضل هذه الطاقة، ثبت أن الإنسان ليس هذا الهيكل العظمي المتكوّن من الحسابات النهمة، ونوبات الجزع التافهة، تلك الصورة التي أرادتها له الأزمنة الحديثة وقَصَرته عليها. كتب رامبو Rimbaud: «آه، لقد اكتست عظامنا جسداً جديداً من الحب». ومع ذلك لا نستطيع الجزم بأن رامبو كان هو المبشّر بالمشاعر العاطفيّة التي تحدّث عنها الأخلاقيّون. إذ يقول الفكر الرومانسي إن الحب يشتمل على شيء ما يؤدّي بنا إلى الموت. وحين شحبت ألوان العالم بفعل التجارة والعِلم، ظهرت المحاولة اليائسة لإعادة البهجة إليه، وكانت تحمل عنواناً معروفاً للجميع: جان جاك روسو.

كتب آلان بلوم Allan Bloom: ذات يوم قال رجل سويسري للفرنسيين إنه لا يفهم شيئاً في الحب! واعتبره الفرنسيون أستاذهم في فن الحب. لا عجب!»[1]. كان الناقد الأمريكي الكبير متحفّظاً على الفحص الحيوي للحب في حاضرنا، توفّي بلوم في عام 1992 وكان يرى في روسو آخر المحاولات الحديثة للتوافق من جديد مع نداء إيروس عند أفلاطون. وآخر المحاولات الفكريّة التي تجعلنا نرى في ألعاب الحب المرهَفة قوّة حضاريّة.

(1) Allan Bloom, L'amour et l'Amitié, De Fallois, 1996 pour la traduction Française.

بالنسبة لبلوم، أن يكون المرء «رومانسياً» في حاضرنا، يشبه محاولته الحفاظ على عذريته وهو يحيا في بيت دعارة. «إذ يشتبك مع الوضع العام، ويفتقر إلى ما يدعمه». أقرّ تلميذ ليو ستراوس بالحقيقة الكئيبة من دون أن يتخيّل تدوير عكسي محتمل للأمر. لم تحتفِ أي رواية في القرن العشرين بالحب حقيقة، في ما عدا آدا أو اللهيب. أما بالنسبة للباقين فأن ينتصب عضوك لا يعني أنك تحب، بل يعني فقط أنه منتصب. وقد نشعر بأن المبدأ المستخلص من رواية رحلة في آخر الليل هو الوحيد الذي تحدث عن الحب في قرن عجّ بالجثث والمقابر الجماعية.

كانت رواية هلُويز الجديدة هي أكثر الروايات التي لا تنتمي للذوق المعاصر. ولم تمثّل حكاية أي من معاصريها، هل لا تزال مقروءة؟ من الصعب الوقوف على الزلزال الأدبي الذي أحدثته وقت ظهورها. هل علينا أن نتذكر أن قصة الحب بين جولي وسان برو حققت أفضل المبيعات للمرة الأولى في التاريخ. إذ أحدثت دويّاً يفوق الخيال. دوياً برّاقاً وغير مسبوق، فما إن ظهر الكتاب في يناير 1761، حتى أصبح في أيدي الجميع. فمن السويد البعيدة إلى الضواحي الباريسية مروراً بلندن وصالونات الشباب في ألمانيا، كان الجميع يتحسّر على حب جولي الذي استمر خمسة عشر عاماً قبل أن تعاني مع وورثر. وكأنَّ أوروبا بأكملها تعاني من صدمة. إذ تشاركت الفتيات المرهفات والرجال الناضجون في نوبات بكاء ونشيج.

أما اليوم فتلك الرومانسية المبالغة تبدو مقرفة. تحكي الرواية عن عاشقيْن يهيمان في حب مستحيل، وملتزمَيْن بالأخلاقيات العامة، وطاهرَيْن لدرجة مبالَغ فيها. وعاطفة الأمومة التي أعادت جولي إلى

حياتها الزوجية في مخدع «زوجها» وولمار - بعد أن مارست الحب مع عشيقها - تبدو هزلية، كما أن صبغة الرواية بالجو الريفيّ القديم ينفّر القارئ، إلى جانب الحوارات الميتافيزيقية التي لا تنتهي بين العاشقين. وتعليقاً على حوادث وأبطال الرواية قال فولتير: «لا يمكن لعاهرة أن تعِظ، كما لن يصبح مُغوي النساء الحقير فيلسوفاً». هذا الحكم المُجْحِف لفولتير، والذي لا يخلو من شعور بالغيرة من منافسه روسو، اعتبر الرواية بغيضة، بل والأسوأ أنه اعتبر الجمهور أسوأ منها لأنه صفَّق لها واستقبلها بحفاوة، فكان رأيه ذو سطوة على الجميع. إن انتحار آنّا كارنينا تحت عجلات القطار يبدو أكثر مصداقية من مماطلة جولي وتدلّلها. على الأقل البارانويا القاتمة لآنّا كارنينا، فيها تعبير عن شخصية القارئ المعاصر.

ما الذي حدث كي ينتهي سحر الكتاب إلى هذا الحد؟ أكان حلماً وتبدّد؟ إنه الحلم الرومانسي العظيم عند روسو، والذي تطلع من خلاله لمصالحة الرغبة الجسديّة مع الأخلاقيات البروتستانتية في حظيرة سويسرية كارتونية. هذا الحلم المتعلّق بالتوفيق بين العالم والعشّاق ربما أكثر من «الشعور العذب بالوجود» الذي احتفى به المتنزّه الوحيد في إيرمينونفيل[1]، هذا الحلم يبدو أنه انتهى، لقد كانت مشاعر ضائعة هي الأخرى بالنسبة له في زمن الطاقة النووية والحياة الافتراضية. يصعب على تريستو وإيزو أن يتصورا نفسيهما مجسَّدَيْن في صورة بورجوازيين من إقليم «فو»، كما لا يمكن لنا أن نتخيلهما في زمن الرعاية المشتركة. هناك شيء عَفن في مملكة الرِقّة الحديثة. كان

---

(1) كان روسو يتنزه في حديقة أطلق عليها اسمه بعد ذلك تقع في مقاطعة إيرمينونفيل في الأسابيع الستة الأخيرة من حياته. (المترجمة)

روسو أول من اعترف بفشله، فهو لم يكن ساذجاً، بل شعر أكثر من أي شخص بزمن لا يتوَّج فيه الحب بالعُرس.

كانت النساء بالنسبة لروسو جحيم حياته على امتدادها، والحقيقة أن الاحتفاء بالحب ليس أمراً بديهياً عند روسو، بل كان إعادة تربية بطيئة، وإعادة اكتشاف لمناطق روحية خاصة وحميمة، وتأريخ لاضطراباته العصبيّة الجنسيّة، من خلال الصراحة المراوِغة في الاعترافات، التي تُعَدّ أبلغ دليل. كان روسو يبلغ من العمر عشرين عاماً حين أصبح عشيقاً لمدام وارين، صاحبة نزل شارميت، كانت تبلغ من العمر ما يكفي لتصير والدته، وكان يناديها «ماما». ووصفها بأنها «عجوز ورعة وكئيبة»، ثم أضاف أنه اكتشف في عام 1728، يوم عيد الفصح «وجهاً من المحاسن، وعينين زرقاوين جميلتين تنطقان بالعذوبة وبشرة مبهرة وثديين رائعين». والقصة التي كتبها عن لياليهما الملوَّنة، كانت تشبه زنا المحارم، والذي ربما لامَسَ عمق جرح غائر في نفسه. «هل كنت سعيداً؟ كلا، فقد تذوّقت المتعة. ولكن ما سر تلك التّعاسة الّلامرئيّة التي تسمّم الافتتان». فبهجة الحب لم تكن أبداً صافية عند روسو. ولا رائقة كما كانت تحت السماء الإغريقية عند أفلاطون. وكرّس فترة غير وجيزة من حياته كمفكّر للبحث عن مضاد لسمّ إيروس.

الحب، حيلة مُغْدِية

كتب روسو في الاعترافات أنه لم يعرف حبًا كبيراً حقيقياً، «فالحب حيلة معدية، رجل كاد أن يموت من دون أن يعرف ذاته». صحيح، ولكن كلما اصطدم بنساء من لحم ودم وقع التهديد الكارثيّ، فالحب لم يكن «طبيعياً» عند روسو. كما لم يكن بريئاً، بل حاملاً لأخطار محقَّقة. والإنسان البرّي الطيب العاطل في خطاب حول أصل وأسس

اللامساواة لم يعرف شيئاً عن الحب أكثر مما يعرف عن الكلاب والذئاب.

بالنسبة له، كل مَن تنطوي على تاء التأنيث تكفي. والجانب المتعلّق بحب الذات والمنافسة الجنسيّة والانشغال بالتملّك والمعاناة الضارية الناتجة عن الغيرة، كل هذا يأتي مع الحياة الاجتماعية، ويحمل لها أيضاً، وفقاً لمنطق روسو، وصمة العار الشنيعة. في «إميل» ذهب روسو إلى أبعد من ذلك في معالجته للتربية. فقد قدّم الرغبة الجنسيّة على أنها احتياج غير طبيعي. بل وذهب إلى تخيّل أنه إذا عاش رجلاً وحيداً على جزيرة منعزلة من الممكن أن يموت من دون أن يجرِّبها.

فالحب إذن هو شعور اصطناعي، بالمعنى الضيّق، وفي هذا الصدد ينضمّ روسو إلى الأخلاقيين في القرن السابع عشر. كتب لاروشفوكو La Rochefoucauld: «هناك أناس ما كانوا ليصيروا عاشقين أبداً لولا أنهم سمعوا مَنْ يتكلم عن العشق». فالحب قوّة مُعْدية. ونعرف أن روسو جُنّ بصوفي دوديتو حين سمعها وهي تتحدّث عن عشيقها، وهو ما ذكره في الاعترافات. وعدوى الحب قد تكون اجتماعية بحتة. فاختيار المعشوقة، الذي يبدو مسألة حميمة جداً، في الغالب الأعم يحدث نتيجة ما يمليه علينا التطابق غير الشخصي. إذن فلماذا نقع في هوى امرأة ما؟ غالباً لأن رغبة الآخرين فيها تجعلها مرغوبة في أعيننا.

أو لأسباب مستترة أكثر، كأن ننجذب، بشكل لا يقاوَم، لما ينقصنا. لا شيء يُبرز السمة الاصطناعية لهذا الاندفاع الرهيب أكثر من حالة سوان عند بروست Proust. كانت أوديت دي كريسي طويلة وشاحبة جداً بعينين حزينتين، لم تكن، كما نعرف، من «النوع» المفضّل لدى بروست. ثم يخرج سوان ليلاً ليبحث في مقاهي ومطاعم العاصمة، لأن

قلق الفقد أسكن في نفسه هَوَساً قدريّاً تجاه تلك السيدة ذات العينين العاديتين. نلاحظ هنا التصوير الصافي كيميائياً لأكثر وجهات النظر قتامة عند روسو. لأن هذيان الغيرة في هذه الحالة هو الذي يولّد الحب.

لكن، إذا جاز التعبير، فهناك ما هو أسوأ، فالحب مثل الأخلاق عند نيتشه، ينتمي هو الآخر عند روسو إلى حِيَل الضعفاء. فجواب لاذع صادر عن النساء لكفيل بإخضاع الرجال في مملكتهم المتخيَّلة. قدّم روسو فرضيّة، مستترة، في خطاب حول أصل وأسس اللامساواة، حين كتب: «إن العبرة من الحب شعور اصطناعيّ، ولّده استخدام المجتمع له واحتفت به النساء بالكثير من الإقبال والعناية كي يؤسِّسن لمملكتهن وليجعلن من أنفسهن الجنس المسيطر الذي تجب له الطاعة». سيدعّم تلك الفرضيّة شوبنهاور لاحقاً في خطاباته اللاذعة، حين ندّد بالزواج من امرأة واحدة، وهوما اعتبره سلوكاً شائناً من قِبَل «المرأة الأوروبية» التي تستعبد رجلاً ساذجاً لها وحدها. هل من المصادفة أن يطلَق عليهن لفظ «عشيقات» بالفرنسية maitresse أي ما يشابه كلمة السيد maitre؟ صحيح أن الحب لا يخلو من السياسة، إنه نشاط النقابات عند النساء!

ظهر ظل لاروشفوكو مستتراً في هلويز الجديدة، حين ذكرت جولي، بطلة الرواية، موعظة أخرى من مواعظها «لا يمكن لمن تذوّق الحب إلّا أن يشعر بالخزي حين يفقد الحبيب». وهذا يعني: إن الحب لا شيء، لأن وعده بالأبدية يتجلّى زائفاً، ولأن حمائم الأمس ربما يجرح كلاً منهما الآخر في نهاية الأمر. علّق روسو في هامش الكتاب: «كتاب حزين لا يمكن أن يتذوّقه أناس طيبون».

ويعَدّ كتابه الثالث الباكي، الذي حقّق أفضل المبيعات والمكتوب بلغة بليغة، هوالأكثر دويّاً في القرن الثامن عشر ويقدم البداهة القاتمة

ذاتها التي يحملها الذوق لاروشفوكو. الحب «يزول مع زوال الجمال، وينطفئ تحت وطأة صقيع العمر، فمنذ بدء الخليقة لم نرَ عاشقَيْن أشيَبَيْ الشعر يتنهّد كل منهما للآخر». كما قالت جولي لعشيقها المحبَط قليلاً، «فلنواجه أنفسنا إذن بأننا سنكفّ عن العشق آجلاً أو عاجلاً، وأنه حين ينتهي الحب، نرى أنفسنا على حقيقتنا. ونبحث بدهشة عن من نحب؛ وحين لا نجده، نُحبَط أمام ما تبقّى لنا، وغالباً ما نشوّهه في خيالنا أكثر بكثير مما نضيف إليه». فينتقل الحب من مرحلة التبلور إلى مرحلة اللامبالاة، بل والازدراء أحياناً. كيف نعبّر بشكل أفضل عن المسيرة المضنية لنهاية موسم الحب في كل العصور.

لقد عرف روسو تلك الحقيقة قبل آراجون Aragon: ما من حب من دون أن يجرح، وما من حب من دون أن نذبل فيه. ما من تعلّق من دون قلق يفيض من الأعين. فالمشاعر جميعها مُعذِبَة ومعذَبَة. إذن فربما يكون من الأفضل تعلم الاعتياد على الوحدة، أي البقاء وحيداً في حجرة كما أراد باسكال Pascal [1]، الذي تحاشى طرح الأسئلة العاطفية في الشذرات المكرّسة لموضوع التسليّة.

في جزء مدهش من إميل يصف روسو الرجل الخارق، قبل أن يصفه نيتشه، بأنه القادر على التحكم في ذاته بدرجة المهارة نفسها عند لاعب الكاراتيه. وهناك الكثير من السمات التي لا تتوافق مع الإدمان أياً كان نوعه، وبخاصة الإدمان العاطفي. فحتى إذا وجدنا شاباً في هذه الأيام «نقي القلب والدم والأخلاق، كما كتب روسو، سيسحق كل الحشرات وهو في الثلاثين من عمره ويصبح سَيّدهم، وكان سيحتقرهم

(1) «ينبع شقاء الإنسان من شيء واحد هو عدم استطاعته البقاء وحيداً في غرفة»
Pascal ,Pensée,Misère de l'Homme sans Dieu.

كثيراً لدرجة أنه لن يرضى حتى بأن يستعبدهم». شغل المثال الرواقي للاكتفاء الذاتي ذهن روسو، إلا أنه لم يكن طريقاً مناسباً ليسلكه ويعيش وفقه وسط المجتمع، ولو على مستوى الرغبات فقط، وخاصة بالنسبة لروسو، فقد بدأ اعتباراً من الكتاب الأول من الاعترافات يسخر من حواسّه الخاصة التي كانت ملتهبة ومشتعلة: «دمي يفور بالإثارة الحسّيّة ربما منذ مولدي». فعادة لا يمكث المرء وحيداً لوقت طويل في غرفته، وبالأخص إذا كان شاباً ومعافى.

لن يمرّ الحب

إذن فلا بُدّ أن نمرّ بالحب. وأن نشذِّب نتوءاته مستخدمين الطاقة الفَيّاضة التي تنبعث منه. من هنا تولّدت محاولات تخطي اليوتوبيا والذهاب أبعد من ذلك عند روسو على إثر ملاحظة الوقائع الناتجة عن الحب. نذكر منها المحاولة المتشائمة في «مواطن من جنيف» ولكنه يبقى على الرغم من ذلك مفكّراً من عصر الأنوار. كتب رامبو في كتابه فصل في الجحيم: «لا بُدّ من ابتكار الحب من جديد». وهو ما اجتهد روسو ليطبقه بدأب حقيقي، وبخاصة في نهاية إميل، الكتاب الذي أُعجب به كانط، الفيلسوف الفريد، دوناً عن غيره من الكتب.

لم يكفّ روسّو عن الإشارة لخياليّة الحب، لكن وعلى الرغم من كونه نابعاً من الخيال، إلا أن آثاره واقعية تماماً. «الحب ليس إلا وهماً، أعترف بذلك، إلا أنه يحوي حقيقة واحدة تتمثل في ما يولّده فينا من شعور بالجمال الحقيقي الذي يجعلنا نحب. هذا الجمال لا يتمثل في من نحب بل هو من صنع أخطائنا. ماذا؟ هل تضمحلّ الجوانب المنحطّة من ذواتنا من أجل هذا النموذج الخيالي؟ هل يجعلنا الحب

نتخلّى عن الأشياء الوضيعة في الحياة؟ أين هو العشيق الحقيقي غير المستعد للتضحية بحياته من أجل عشيقته، وكيف تتولد المشاعر الحسيّة، بل والفاحشة، عند إنسان يريد أن يموت؟ فنحن نسخر من ذوي الخفة! فما يعرفونه عن الحب ولا نقرّه نحن هو العربدة».

مع ذلك لم يطلب روسّو إطلاقاً، كما فعل لوكريس من قبل أو شوبنهاور في القرن التالي، أن نتخلى عن أوهام الحب. إنهم كمن أراد أن يحرث البحر! حتى أكثر النسَّاك ورعاً ليسوا في مأمن من أن يصيروا أطفالاً صغاراً أمام امرأة جميلة. هذه الملحوظة الأخيرة تمثّل الأمانة العميقة عند روسو.

لم يشجِّع على النزوات العابرة، كما فعل غيره، أي الذين حاولوا تفكيك غموض الحب، فحذروا المحبين من الحب الحقيقي والمشاعر المستقرَّة لأنها ستؤدي بهم إلى الدمار الحتمي. بل على العكس، فقد دعا روسو لصنع «لوحة صادمة لأهوال الفسق والخطيئة، والتسكّع الأرعن، والمنحدَر اللامرئي الذي يؤدي إلى كل الارتباك في ما بعد». فكل ممارسة للجنس تترك أثراً. خاصة الممارسة الأولى التي تحدث في فترة المراهقة، فقد تحدد حياة شخص بكاملها. ويتلخص أحد أهم دروس روسو التربوية في كتابه «إميل» في اعتباره أن ممارسة الجنس بلا حب هو نوع من العبودية. إذ يفقدنا احترام الذات، ويؤسس لحياة غير سوّية، زائفة تفصل بين متطلبات الواجب واحتياجات الرغبة. وفي هذا، يتساوى الرجل الناضج والفتاة البكر من دون فرق يذكر. وهي وجهة نظر تكسر التابوات المعتادة في عصر كانت فيه النساء بشكل أو بآخر محرَّمات على الشباب قبل الوقوف أمام المذبح!

قد نندهش إذا اكتشفنا أن شوديرلو دي لاكلو- مؤلف كتاب علاقات خطرة- كان أحد أهم قرّاء روسو ومعجبيه. وكانت الحبكات الجنسيّة الثلجيّة عند فالمون ودوميرتي تبعد سنوات ضوئية عن جو الاحتفاء الأدبي بـ هلُويز الجديدة. أحياناً يختلط الجانب الخاص بالإخفاقات القاتلة، كما هوالحال في كتاب علاقات خطرة الذي نشر في العام 1782، مع التحرّر المسلّي في كازانوفا، أو الألعاب الجنسية بلا أفق. وهو ما يتجه إليه المجتمع في أيامنا هذه أكثر فأكثر.

بل ينبغي أن نعتقد في الجرح الذي لا يلتئم الذي يتسبب فيه الجنس، وفي السمة «المقدسة» لتفاصيله كي نفهم الصراع المرير في رواية لاكلو Laclos. إنه يسلب الآخرين احترام الذات، فتذبل إلى الأبد فكرتهم عن ذواتهم كي يعذّبهم بشكل ساديّ، والقواعد الأساسية في هذه اللعبة معروفة، فهي لم تتغير منذ أيام لاكلو. وإذا كنا لا نزال نحتاج إلى دليل، فهو أن هذه القواعد لم تكن ترتبط برباط وثيق مع ما تبقّى من الأخلاقيات الكاثوليكية. وإن إبعاد الأفكار القديمة المسرودة في خطيئة أصلية لن تضع حداً لجراح الحرب الجنسيّة - بل على العكس - ستجعلنا نلتفت إليها أكثر.

في نهاية علاقات خطرة، التقى اللاعبان اللذان لا يُقهران، بعد الانتهاء من صغار اللاعبين، وانتهت اللعبة بالنتيجة المتوقَّعة لكليهما. إلا أن الفارق بين موت كل منهما لافت للنظر؛ الفيكونت أسهم موته في نوع من الفداء المتأخِّر، أما الماركيزة دوميرتي فموتها الجسدي سبقه موت اجتماعي. وهو ما يعدّ تحذيراً للنساء جميعهن.

نرى بوضوح ما أحدثته تلك الرواية من تأثير في عالم روسو:

المدنيّة المفسِدة للبراءة، والحب الذي يعتبر مناسبة مواتية للدمار أو للخلاص، والعديد من الأنماط الأخرى الشائعة. ومع هذا فهناك اختلاف جذري واضح بين لاكلو وروسو يتمثل في المنظور الجريء والمدهش للأول حول الهيمنة الذكورية. إذن فالماركيزة دوميرتي، أفنت روحها في سبيل المسألة النسوية الناشئة.

فى عام 1783، طرحت أكاديمية شالون سور مارن السؤال التالي: «ما أفضل طريقة لتربية النساء كي يصلن إلى الكمال؟». وكان جواب لاكلو هو مقارنتهن بالعبيد السود. إن المجتمع يغيّر من طبيعة المرأة حين يقف فى طريق تطوّرها المعرفي. بل أصبح هذا الطريق خطِرًا حيث تحيط به العبودية ذاتها. كما أننا فى نهاية القرن الثامن عشر، أي في عصر لا يزال بعيدًا عن ذلك الزمن الذي ستكف فيه المرأة عن دفع حياتها ثمناً لتحقّق حريتها وسعادتها الجنسية كما فعلت الماركيزة الشجاعة.

أين النساء؟

هناك الكثير من الأسئلة التي لم يُثِرها روسو. فقد كان يبحث عن نبتة بريّة وبريئة، نَمَت بعيداً عن أعمال العالم الشائنة. في الحقيقة، كان مؤلف «إميل» يبحث عن امرأة. إنها اللحظة الفارقة والحرجة، التى تتوقّف عليها عذوبة الحياة أو فشلها التام. وهكذا يجسد الكتاب الخامس بورتريه الروبوت «لنصف البرتقالة» بشكلها التام. فالجمال ليس مبهِجاً، إذ يأتي بالشقاء إلى المنزل، ولا هو قبيح لأنه يطرد وساوس الوحدة المرتقبة، ولا مجتزأ من الثقافة، حيث إن المتعقّلات متمردات في دواخلهن، ولا «متواضع الطلبات» إذ إن خطوات التسخين الحسيّ

الأولى تتمثل في سحر الكلمات الأولى التي تضمن متانة الارتباط بين الشريكين.

لم يحب النسويون روسو، ووضعوه في القائمة السوداء. ففي الولايات المتحدة اقترح البعض نبذ مؤلفاته من رفوف المكتبات الجامعية. وصورة تلك الخادمة النموذج التي لم تبلغ الخامسة والعشرين من العمر، والتي سمَّاها صوفي لا تمُتّ بصلة لما يمكن اعتباره ثورة لتحرير «الجنس الضعيف». بل إن هناك ما هو أخطر من وجهة نظرهم؛ فالنساء محرومات من ممارسة أي نوع من الحياة السياسية بإيعاز من مؤلف العقد الاجتماعي.

ذكر روسو أن المركب لا تحتمل قائدين. إما الزوج أو الدولة، عليها أن تختار. الأمر مفهوم إذن. فالمرأة مآلها الخضوع لطهو حساء الخضراوات لمحاربها، وتغيير الحفاضات لصغارها، ولا تستطيع المشاركة في الحياة المدنيّة. ولم يسلم أفلاطون من توجيه اللوم له من جانب روسو لأنه نادى بتوظيفهن في مهمات الرجال ذاتها في كتاب الجمهورية، فذلك «ليستجلب أكثر الأضرار بشاعة».

أولاً، إن الاختلاط بين الجنسين يولّد الفوضى دائماً، بهذه العبارة برَّر الفيلسوف أفكاره. كذلك فإن الخيال المتكرر لروسو المنصَبّ على وصف حِسّية النساء التي لا تُشبَع وعلى شطحاتهن الإيروتيكية، والذي وصفه في الاعترافات، تفرض نوعاً من ضرورة إبقائهن في المنزل ومن حتمية «الفصل بين الأجساد»، كما هو الحال في المساجد. أو في دورات المياه العامة. هذا المنظور أدى بروسو الذي كان معجباً بإسبرطة، حيث سيدات العائلة كنّ صاحبات قرار على قدم المساواة مع الرجال في الشؤون العامة، إلى اقتراح نوع من التمييز العنصري المدنيّ ضد النساء.

ثانياً، لا بُدّ من صوت غالب داخل الأسرة، فالحصان الذي يجرّه حوذيان لا يتقدّم. من دون الحديث عن التدفقات الدمويّة المزعجة عند النساء، والتي تعد «فاصلاً مُنهِكاً»، وهو ما يُزعج روسو. وأخيراً فإن للزوج الحق المطلق في مراقبة سلوك زوجته لأن عليه أن «يطمئن على أطفاله» وأن يطمئن أنه أبوهم بالفعل وبلا أي مجال للشك.

إنه الخوف الأزليّ من أن يربّي الرجل عدوه في منزله، الخوف من ابن الزنا، من نموذج بروتوس، دفع بمفكر الديمقراطية الراديكاليّة إلى الركض نحو مبدأ الأولوية للأقوى، المبدأ النابع من الطغيان. والذي بيّن، بنفسه، عبثيته في الجزء الخاص بالشجاعة التصوّرية في كتاب العقد الاجتماعي. إنها تفصيلة ثاقبة، إذا قسناها بمتلازمة وسواس الأبويّة عند روسو، هذا الوسواس الذي قاده إلى التخلي عن خمسة من أطفاله حديثي الولادة وإيداعهم مأوى «الأطفال اللقطاء».

في خطاب إلى دالمبير توقّع روسو اعتماداً على حدسه ظهور أنصار النّقاب المعاصرين. وفيه ضمّن روسو الرقيق توجيهات لمن شبَّههن بإناث القرود المثقفات اللواتي يحضرن العروض في صالات المسارح في عصره. وقد امتدحه شوبنهاور على ذلك في كتابه الشهير أفكار حول النساء. وأكد روسو أننا نقدِّر النساء على قدر تواضعهن. أما في العصور اللاحقة فباتت المرأة تقدَّر، في كل مكان ما عدا في أوروبا، على قدر ما تحدثه من ضجيج، وتصدر أحكاماً، وتعبِّر عن رأيها، وتطلق استحقاقات تقديرية لكل من تقابلهم من دون أن تدرك البديهيات.

فالنساء «المتقدمات» في عصر روسو أغرقنه في هلع لا يوصف. فكان يرى أنهن يمثِّلن «منعطفاً في وقاحة الذكور وتأكيداً صارماً للرجل. وأنهن حططن من قدرهن بهذا التقليد الوقح، كما أهنّ جنسهن

وجنسنا في آن واحد». وبدت له الثقافة الغربية، عند هذه النقطة وعند غيرها من النقاط الأخرى، على حافة منحدر. منحدر قَدَري، حتى إنه قد يكون الأوان قد فات لمفاداة السقوط. إن الهيمنة الجديدة للمرأة وضعت الفكر ذاته في تحدٍّ. وإذا تكلمنا بلغة المسرح، فإنها كتبت مشهد الموت: «عالِمات في علوم الرجال، وفلاسفة بفضل الكتّاب الرجال، وها هنّ يدهسن جنس الرجال بموهبتهن، فيما يذهب الحمقى من الجمهور إلى النساء ليتعلّموا منهن ما علّموهم إياه من قبل».

لا نلمَح في خلفية هذه العبارات العنيفة الراعي اللطيف ذا الجبهة المزيَّنة بالخصلات الذي وجدناه في هلُويز الجديدة. كما أنها لا ترقى لأن نجعل منها كلمات روسو الأخيرة حول النساء. بل إنها تعد ديماغوجيّة، على اعتبار أن النساء يشعرن بالفخر بحكاياتهن عن ضحاياهن السابقين. جدير بالذكر أن أوليمب دو جوج أو مدام دوستايل، وهما أول من طالب بحق الاقتراع للنساء، كانتا متحمستين ومخلصتين لروسو. ولا يخفى على أحد أن قلقاً عميقاً ينبعث من هذه الهجمات العنيفة الموجّهة للشفافية الجماهيرية للنساء ولاستقلاليتهن. قلق ينبغي أن ننصت إليه بدلاً من الركض الحالي وراء القبول المسالم ظاهرياً بتحرُّرهن.

الحب في خطر

إن جوهر ما يخيف روسو هو «اتساع ميدان الصراع» ليبلغ الممارسة الجنسية ذاتها. فتصبح حرب الجميع ضد الجميع والتي ستحدث حتماً، من وجهة نظره، إذا كف الرجل والمرأة عن أن يكمّل أحدهما الآخر كي يتنافسا. إنّ خوف روسو العميق، هو الخوف من

أن تصبح المرأة هي الذئب بالنسبة للرجل. هذا الهاجس لازمه طويلاً قبل المفكّرين الكثر الذين قلقوا مذّاك من الهيمنة المسمّاة «الأم الكبيرة - المسيطرة»[1]، وحمّلوا المطالبات النسويّة مسؤولية الفوضى المجتمعيّة المهلكة.

في الإطار ذاته، يعكس مواطن جنيف زمناً آخر في ما وراء زمانه الأصلي، إذ كتب في «إميل»: «نحن نقترب من حالة الأزمة ومن قرن الثورات...»، والعدالة من وجهة نظره على الطريق، وعلى الطريق أيضاً البرجوازي المتعصّب للدفاع عن تراثه. إلى جانب الثائرات اللواتي سيناضلن من أجل الحصول على الحق في الطلاق، واللواتي يشبّههن روسو بفارس سِفر الرؤيا.

وإذا كان مجمل إنتاجه الأدبي كمفكر سياسي وفيلسوف يدعو إلى المساواة في الظروف المدنية، فهو ليس كذلك على الإطلاق في ما يخص العلاقة بين الرجل والمرأة. بل إن المساواة في هذا الصدد تصل في نظره إلى حد الجريمة. لأنها تعني إنكار الفروق الحقيقيّة بين الرجل والمرأة، والسمات المُمَيِزة التي يتوجب عليهما تعزيزها بالتبادل. وما أثاره أرستوفان في المأدبة مقهقهاً، من أن المرء لا يكتمل إلا حين يجد نصفه الآخر، اختار روسو أن يأخذه عنه حرفياً من دون إضافة.

هكذا أسس روسو لعلم نفس يميز بين الجنسين في كتابه «إميل». فقد رأى أن ما يفرضه المجتمع على المرأة من قيود تتعلّق بمراعاة سِمْعتها واستقامة حياتها الجنسية، ينمّي عندها حاسّة الملاحظة

---

(1) Psychopathologie de la vie politique, Odile Jacob, 2003, et de La Confusion des Sexes, Flammarion, 2007.

والحساسية النفسية بشكل يفوق ما عند الرجال. وفيما كان الرجال يحتقرون مهارات التحضر والمدنية والانشغال بالرأي الآخر، كانت النساء تثني عليها وتهتم بتطويرها. إذن فلا بُدّ من أن يشكّلا معاً إنساناً متكاملاً «حيث المرأة هي العين والرجل هوالذراع، مع استمرار اعتماد كل منهما على الآخر، فيعتمد الرجل على المرأة في ما ينبغي أن يراه، وتعتمد المرأة على الرجل في ما ينبغي أن تفعله». وإذا ذهب المجتمع في اتجاه آخر «حيث كلاً من المرأة والرجل مستقلّان عن بعضهما فسيعيشان في خلاف دائم ولن يستمر المجتمع».

بالطبع لن يجيب روسو إذا وُجِّه له سؤال حول ما قد يكون عليه المجتمع إذا عملت النساء أعمالاً تقتضي السفر الدائم أو إذا عملن كجرّاحي أسنان. كان روسو ابن عصره لذا فلم يستطع تخيّل رؤية متحدّيةً لهذه الدرجة، بينما من السهل أن يصبح المرء مسايراً لما يراه حوله. إنه اصطدام قدريّ لكل الذرات الاجتماعيّة المحكوم عليها هذه المرة أن تعيش إلى الأبد في وحدة موحشة، في ظل التفسّخ الأسري المهلك الذي يحياه الغرب بأكمله. فكانت المهمة الأولى للنساء من وجهة نظر روسو هي رعاية الأطفال الذين أنجبنهم. والمجتمع الذي سيبتعد عن الطريق السليم للدرجة التي لا يرى عندها هذه «التفصيلة» لمحكوم عليه، من وجهة نظره، بالتراجع إلى ما هو أقلّ من البهيمية.

إذن فإنقاذ غيريّة الجنس، بالنسبة له، هو إنقاذ لإمكانية الحب بل وللإنسانية. فنحن لا نحب إلا من نعتقد أننا نفتقده. ويعتبر روسو أول فيلسوف يفنّد ثبات الطبيعة الإنسانية لصالح «تماميتها» الخالدة، لتشمل الأفضل والأسوأ، آخذاً في الاعتبار نطاق اكتشافه الخاص. فمرونة الإنسانية لها حدود أقل، بلا شك، مما واجهته. فالعالم متنوع وتزداد

تموّجاته مع مرور الوقت. فنجد في أيامنا هذه نساء يقدن طائرات وقد نرى في أفلام رعاة البقر رجالاً يحترقون من لهيب الحب.

هذا الاعتقاد في الطبيعة الأنثوية الثابته يتساوى عند روسو مع ما نطلق عليه في أيامنا هذه مقولة: «رجال من المريخ ونساء من الزهرة»، التي يبدو أنه قد اعتنقها متأخراً كذلك. ونستدلّ على ذلك من خلال مسودة محيّرة كتبها في شبابه ودوّن بها جرأة من نوع آخر حول هذه النقطة. وتعود المسوّدة إلى عام 1735، وكان روسو في الثالثة والعشرين من عمره. كان «دوره كتلميذ» إذا صح القول، هو ما جعله يستخلص أن «جبروت الرجال هوما سلب النساء حريتهنّ»، وقد أصبحن رئيسات في جميع المجالات، من أعمال حرة أو وظائف، إلى قيادات الجيش، «استلبهن في الأزمنة الأولى حق طبيعي لا أفهمه، استلاب لا يستند سوى إلى القوة». والمقالات النسوية ذات الاحتفاء المحدود حيث نماذج ديدون وجان دارك وزنوبيا وبطلات مجيدات أخريات، قبل أن يعبِّر قائلاً: «أكرر، كل المجالات التي تَبرَع فيها النساء قد تعطي أمثلة عديدة ورائعة على عظمة النفس وحب الفضيلة، لا تتحقق عند الرجال لو لم تمُنّ عليهم عدالتنا، مع الحرية المكفولة لهم، بكل هذه المناسبات ليظهروها تحت أعين وبصر الآخرين».

«طيش شباب» لم يلبث أن صححه! ولكن نخطئ، مع ذلك، إذا رأينا في روسو متعصباً جنسياً سوقيّاً. فلم تكن علاقته بالنساء بسيطة أبداً، ولكن أكان من المستطاع أن تكون؟

لقد ماتت والدته وهي تلده. كانت سوزان روسو ذات جمال سويسري متعطّش للحفلات، وكانت «صاحبة الكلمة» في العائلة، وعزيزة جداً على زوجها الساعاتي. لم يكن ليحدث ما حدث لابنها

أبداً لو كانت قد عاشت[1]. وربما يرجع أصل المزاج الجنسي الشاذ عند روسو للتأثيم المؤرّق، أو للحرمان من حب الأم. فقد حاول الكثيرون البحث في هذه النقطة عن أصل الغرائبيات الجنسية التي لا تحصى في حياة روسو. غالباً ما يكون مضجع فيلسوف من هذا النوع كسرير بروكروست[2] الشنيع. القول إن الجيئة والذهاب في حياة مؤلف الاعترافات بين الحياة الحميمة والكتابة كانت قائمة ومستمرة. وفي ما عدا مونتاني لم يمدّنا أي فيلسوف بمعلومات تفصيلية إلى هذا الحد عن شبقه المعذَّب. بحث روسو عن حل للمشكلات المؤلمة التي يسببها الحب من خلال «سقالات» عاطفية عجيبة كما من خلال تركيباته النظرية.

لا عزوبية ولازواج بل الاثنان معاً

ستصاحبه امرأة طوال حياته. لم تكن شخصية روائية، وإنما كانت شخصية ريفية خَنوعة. إنها تيريز لافاسو، خادمة في نزل الشباب صادفها في شارع كوردبي، في وقت لم يكن بعد سوى مؤلف موسيقي غامض إن لم نقل مغمورًا. لم يجرِّب الحب معها أبداً، وهوما اعترف

---

(1) La biographie de Marc-Vincent Howlett, L'homme qui croyait en l'homme. Jean- Jacques Rousseau, Gallimard, 1989.

(2) بروكروست هو شخصية من الميثولوجيا اليونانية، كان حداداً وقاطع طريق. كان يهاجم الناس ويقوم بمط أجسادهم أو قطع أرجلهم لتتناسب وأطوال أجسامهم مع سريره الحديد. يطلق لفظ «البروكروستية»، أي نزعة «فرض القوالب» على الأشياء أو الأشخاص أو الأفكار. كذلك تصف الميل إلى ليّ الحقائق أو تشويه المعطيات لكي تتناسب قسراً مع مخطط ذهني مسبق. (المترجمة).

به بخشونة في الاعترافات. لكن نخطئ إذا رأينا فيها ما وصفه الصينيون القدماء بـ «خادمة السرير»، فهي احتياطي مناسب للاحتياجات الجنسية الأولية وعلاوة على ذلك هي خادمة. والطريقة التي وصفها بها مؤلف هلُويز الجديدة موجِّهاً حديثه إلى أمير كونتي، حين جاءه المجد الأدبي، تشهد باستحالة أن يصفها ببساطة: «هي كائن لم يكن زوجتي، أو عشيقتي، ولم تكن أمي، أو ابنتي؛ هي جميعهن معاً». سترى الأجيال اللاحقة في «قضية تيريز» واحدة من أهم الإدانات الموجَّهة ضد روسو، ومسألة التخلي عن الأطفال الخمسة هي ما رجّحت كفّة الإدانة بشكل قاطع. فنجد لامارتين، خاصّة، يجعل من تلك الفتاة الشجاعة «حَسَنة النية» ضحية منافق، ورجل أجوف مشغول بأعماله المفاهيمية ليملي على البشرية واجبات غير قادر على تطبيقها هو في حياته. ولا يفوتنا الحديث عن فولتير الذي رأى في تيريز المسكينة، «بومة» مرعبة و«ساحرة بشعة ومهلِكة»، ونموذجاً أساسياً للتشوُّه العامّيّ الذي أصاب حياة منافسه الملعون، بل وأصاب فكره بالكامل. إلا أن المسألة برمّتها كانت معقدة وعادية، في آن واحد. فقد أخبر روسو موظفة الفندق الخجولة بأنه لن يتزوجها ولن يهجرها أبداً، ولتكن حياتهما المشتركة عبارة عن حصيلة من اللحظات التي بلا ماض ولا مستقبل، وهو إعلان ابتدائي يتناقض بالتأكيد مع الأبدية التى تحكم أي شعور بالحب. لكن انتهى الحال بأن تزوج من تيريز في 30 أغسطس 1768، فتحولت بذلك العلاقة بينهما إلى الشكل الرسمي بعد خمسة وعشرين عاماً من لقائهما الأول. وبذلك ستصبح هي الوريثة الوحيدة التي ستنفِّذ وصيته، وتدافع باستماتة عن الحقوق الأدبية لمؤلفاته مستخدمة هجائيتها المدهشة التى تمثّل هجائية خادمة!

ومثال ذلك ما وقع من خلاف مدوٍّ في عام 1794، حين دعت الجمعية التأسيسية «السيدة روسو» الفظّة وضخمة الجسد لحضور نقل جثمان رجلها العظيم إلى البانتيون.

من الأفضل تتبّع المسار الذي أوجزه جان ستاروبينسكي، أكثر من فسّر روسو دقة ورهافة[1]، والذي آثر أن يلمح في السلوك العاطفي لروسو طوال حياته رعباً مستمراً من «التماهي» في التعلق بالآخر، أو الهلع من العلاقة الحميمة اللصيقة جداً. وبهذا المعنى فإن تيريز قد سمحت «لروسو بألا يترك نفسه، وألا يغادر ذاته». إنها في العمق تشبه العادة السرية، يمارسها الفيلسوف ويمنح نفسه لها بحماسة.

ويختتم الناقد السويسري قائلاً إن روسو، مع صحبته الموجزة والمتقدة، وجد «شخصاً يتلاءم بسهولة مع جسده، من دون أن يطرح على نفسه، في حضوره، مشكلة الآخر». إنه كائن معتمد على نفسه حيث لا أحد يعتمد عليه، أوعلى الأقل ليس بشكل مؤلم. هي قاعدة خلفية يأتي إليها ليتشافى من جراح العالم الدامية. لجأ الكثير من الرجال إلى هذا الحل عند استحالة تحمّل امرأة، امرأة حقيقية، كي لا ينهي حياته وحيداً ويلتهمه كلب ألماني عجوز. هل كانت هذه الحياة المكرَّسة بالكامل للاحتفاء بالرومانسية كي يصل بها إلى فلسفة الزواج التلقائية أول تجلٍ لعلاقة آتية؟ كان من الممكن أن نحزن لذلك لو أن روسو مجرد مريض عصبي. ولكن في حالته، أصبحت استحالة الدخول في علاقة مع الآخر عملاً أدبياً عبقرياً.

---

(1) Jean Starobinski, Jean-Jacques Rousseau, la transparence et l'obstacle, Gallimard, 1971.

الحب مُستَعبِد، ومع ذلك فما من مخلوق يشعر يستطيع أن يمنع نفسه عن الحب. وفي ظل هذه الحلقة المفرغة، توصّل روسو لحل إنسانيّ! إنساني لدرجة وضيعة. أن يعيش مع امرأة لا يحبها، ويحب نساء لا يتصوّر العيش معهن. نساء «مستحيلات» لا يُلزمن أحداً بعلاقة مستمرة. لذا أحبّ سيدة في عمر أمه، تدعى مدام وارين، هي التي كانت مُغرمة برجل آخر. لا بل فضّل أن يحب نساء ليس لهن وجود إلا في خياله.

فهل نستطيع تصور روسو وهو يرسل لنفسه خطابات ملتهبة مختومة بختم البريد! ويظل يقرأها والدموع تنسال على وجهه وهو هائم في الغابة كما لو كانت مرسلة من عشيقة يهواها. هو نوع من الاستمناء الشعوري عاشه الفيلسوف بحق وهو في الخامسه والأربعين من عمره. فقد تشجّعت تيريز وطردته في صيف عام 1756، فظل بعدها منغلقاً على نفسه هو وأحلامه الجريحة في وحدةٍ مطبقة. وفجأة بزغت امرأة في أفقه، وهي التي ستجسِّد هذا الحلم، حلم الحب، الذي وُلد مصحوباً بذهن مشحون بكتابة هلُويز الجديدة. إنها صوفي أوديتو... مدام إيفيناي التي سكن عندها روسو إبّان إقامته في مونت مورنسي. «لقد كانت تمتطي حصاناً، وترتدي زيّ الرجال. ومع رفضي لذلك النوع من المسخرة، إلا أنها كانت ساحرة، ووقعت صاعقة الحب». صحيح أنه الحب، كما اعترف روسو وكما أكّد، وللمرة الوحيدة في حياته، إلا أنه كان حباً من طرف واحد. لأن صوفي، الخمرية البشرة، كانت زوجة لضابط، وعشيقة لضابط آخر هو سان لومبير. ترى أتبادلت بعض القبلات أوالعطايا الأخرى مع روسو مستترين بأشجار الأكاسيا المزهرة، حين كان الرجلان الآخران في الحرب؟ من غير المحتمل ذلك، كما هو الحال مع نيتشه وحبيبته لو. أو كما ذكر شاتوبريان في قصة الثنائي مدام أوديتو وسان

لومبير كتجسيد حي للإخلاص في الحب وللنظام القديم. عرف روسو معها ألم تلظّي المُحِب حين يكون قلب حبيبته مشغولاً برجل آخر. ولأن الموقف كان فظّاً بشكل فج، فسيعاني منه روسو بقسوة. وقد وصف روسو عذابه قائلاً: «لا أتصور أن تتركني حواسي أهدأ بقربها، كما فعلت من قبل وأنا إلى جوار تيريز أو ماما». ومضت أربعة أشهر بطيئة ومضنية، يستمع فيها راهب مونت مورنسي إلى اعترافات صوفي عن عشيقها الضابط المحبوب. «اعتقدت أنه لا ينبغي عليّ سوى الاهتمام بما تحكيه من معاناة، فيما أعاني أنا أيضاً مما تعانيه؛ وتجرّعت الكأس المسمومة طويلاً مستعذباً». الحق يقال، لقد ولد روسو بمراراته العاطفية، ودائماً ما كان يضع نفسه في مواقف لا يستطيع «حسمها».

إن الفقرة التي كتبها روسو تحت عنوان «الحلمة العوراء» لزولييتا يمثّل مظهرًا مختلفًا. وكأنها التجربة الأكثر رومانسية على وجه الأرض! إذ إن زولييتا هي رفيقة «مهداة» لروسو في عام 1743، حين كان هو سكرتير السفير في فينيسيا. سُحر روسو بنضارة السيدة الفينيسية الرائعة، «آه، بريق وجهها، ولمعان أسنانها، وعطر أنفاسها»، كان الشاب روسو متعجّلاً، كما أوضح في الاعترافات، إلى التمتع بمفاتنها ودلالها، «خوفاً من فقدان الثمرة».

وحينئذ، هاجمته برودة قاتلة، فارتعدت ساقاه، وأخذ يبكي كالأطفال، لم يكن ذلك إلا عقب ملاحظته لتشوّه ثدي زولييتا، حيث تكاد حلمة ثديها تختفي، وهو ما سماه الحلمة العوراء! وهنا منحته المصادفة سبباً للتراجع. كتب روسو قصة عن هذا الموقف يظهر فيها الدراما المسرحية والكوميديا في آن: «ظللت أقلب الأمر في رأسي، كيف يمكن أن تكون الحلمة عوراء، واقتنعت في النهاية أن ذلك يرجع لعيب خَلقي مرئي، ومن فرط ما دارت الفكرة في رأسي، اتضح لي أن حتى أكثرهن سحراً،

من الممكن حين أحتضنها أن أشعر بأنني أحتضن مخلوقاً كالوحش، كأنه فضلات الطبيعة والبشر، بل والحب». ارتدت زوليتا ملابسها، وجالت لبرهة في الغرفة وأخذت تحرِّك مروحتها اليدوية في علياء، قبل أن تصيح: «فلتترك النساء يا صغيري، وتَعُدْ إلى رياضياتك».

كان فراراً مقنَّعاً، مع اعتبارات لاهوتية، وقلق بالغ يتعلّق بالعلاقة الجنسية ذاتها، إذ يعاني روسو من عجز حقيقي، هنا أيضاً، في الممارسة الجسدية للحب. تظل كل الاحتمالات واردة، مع تردد تحليلاتنا. هذا إلى جانب الاعتراف الذي خرج منه عفوياً في الكتاب الأوّل من الاعترافات: «أشعر أمام الغانيات بذعر بالغ لا يُمحى، فلا أستطيع أن أرى فاسقة من دون الشعور بالازدراء، بل وبالهلع». يمثّل روسو نموذج الرجل الممزق في تأرجحه بين مثال الحب المتعذّر وواقع الجنس المتواضع والمقزِّز أحياناً. وعلى النقيض من السطحية الشبقية لديدرو هو ومحظياته في القصر الملكي، يظهر لنا التأثيم النابع من تعاليم الكتاب المقدس في عصر الأنوار. كتب ديدرو في مساء لقائه الأخير بوحيد إيرمينونفيل، خلال سنوات علاقتهما التي تميزت بالتفاهم الودي المتقلّب: «هذا الرجل يملأني بالقلق، وأشعر في حضوره كأن نفساً شيطانية تجلس إلى جواري. هو قادر على أن يجعلني أؤمن بوجود الجحيم والشيطان» نعم فالجحيم يوجد في خصوصية روسو، وهو جحيم نسائي على الأخص. وعلى عكس المبدأ الأفلاطوني الشهير، نستطيع القول إن الحسابات الدقيقة لا تفلح في التعامل مع النساء. وقد كان رجل رياضيات كبير لدرجة تمنعه من أن يستعيد كلمة زوليتا. كما أنه كان مُعرّضًا بصبورة مؤلمة، إجمالاً، للفساد الضروري الذي يشكّل أساساً لكل حياة وبالأحرى حينما تكون حياة شهوانية.

ويضع روسو مآسيه التي لا تُحصى ومواءماته سيئة السمعة التي وجّه إليها حياته بين تيريز وبين الحوريات بحسب ميل قلبه المملوء بخيالاته، يضع على حساب الصراعات التي تركتها لديه التربية الناقصة. وكإنسان حديث طيب لا يتخلّى روسو عن رغبته كما أنه لا يتخلّى أيضاً عن مَثَله الأعلى. ولأنه معادٍ للحداثة بقسوة أيضاً فإنه يحكم على نفسه بالنزيف المستمر. بوضوح: إنه يعاني من ذلك حتى النهاية.

الحب المستحيل

ولّدت تلك العقدة الوجودية عند روسو ولعاً بالرجل الجديد، المتصالح مع النساء ومع نفسه، رجلاً لا يمثّل الجنس بالنسبة له السكين والجرح، ولا يرى الحب كوسيلة دائمة لتعنيف الآخر، وحشياً، أو طريقة للوقوع ضحية للعنف الوحشي. هذا هو الرجل الذي قدّمه روسو من خلال كتابه الشهير «إميل». وما استطاع تخيله عن السعادة الزوجية التي صاغها في نهاية الكتاب، تعطي فكرة عما يمكن الحصول عليه من سعادة أرضية شحيحة، لأنها السعادة الوحيدة الحقيقيّة في نظره.

النص الذي نتحدث عنه غريب جداً، فهو نَصّ غير مكتمل، عنوانه: إميل وصوفي أو الوحيدون. ظهر في باريس في عام 1780، أي بعد عامين على وفاة روسو[1]. قد يكون السبب هو خطاب مدام كريكي الذي منحه الفكرة لكتابة «إميل» ولكن بإضافات أكثر قتامة. فبعد ثمانية أعوام من الزواج السعيد، ها هي سعادة الزوجين النموذج في الرواية تنهار، «اختفت بلا رجعة». دفنت صوفي والديها وابنتها الصغيرة،

---

(1) “Les Solitaires” Le Dictionnaire de Jean Jaques Rousseau, Honore Champion, 2006.

وجاءت لزوجها الفكرة الغبية بالذهاب إلى باريس لتبديد أحزانها. حقاً، إن العاصمة تفسد أصلح الصالحين. حملت بجنين آخر، ثم اعترفت لزوجها بخطيئتها. حتى الآن كانت الحوداث عاصفة، أما بعد، ستتراوح الأحداث على طريقة مسلسلات الظهيرة، فقد انفصل الزوجان وهما في أشد حالات الألم. اشتغل إميل بأعمال النجارة، كي ينكفئ على نفسه. وبدافع من الأمل، تعلَّم كيف يروِّض عذاباته برزانة، وذلك بكبح شعوره بالحياة عامة لصالح المنظور الأوحد للحظة الآنية. ثم عثر في النهاية على «شراب النسيان» فأبحر إلى نابولي ثم قضى بعض العزلة في الجزائر. وانتهى الجانب الأدبي عند هذا الحد من الرواية تقريباً.

أما ما تبقى من القصة والذي كتبه روسو فهو يحتاج، وفقاً لرأي صديقه برناردا دو سان بيير، إلى وزنه مناديل ومناشف! فبعد أن جال في أفريقيا، بقيَ إميل منعزلاً على جزيرة إسبانية وعرة حيث ستجده صوفي التائبة بعد أن بحثت عنه لسنوات. هذا إلى جانب بعض الحوادث المملة، ثم سينجذب لامرأة ذات جمال خاص ومميز. وتدور حوادث أبطالها الثلاثة على غرار هلُويز الجديدة.

كذلك فإنه من المدهش تصوّر أن روسو قد قضى آخر حياته في كتابة تلك الحكايات الغريبة. ولكن قبل موته بأسبوع، ووفقاً لرواية طبيبه، فقد فكر في إجراء بعض التصحيحات على النص، وهذا دليل، إذا كنا لا نزال في حاجة إلى دليل، على أن الحب كان هو قضيته الأولى قبل السياسة. أينبغي أن نقتنع في النهاية، ووفقاً لتلك الملهاة التراجيدية، بسقوط الإنسان الجديد الذي طمح روسو إلى تشكيله؟ ليس إلى هذا الحد، فأخلاق الوحيدين تجري مجرى الدم في عروق روسو. فالإنسان ليس سيئاً أصلاً - ونقصد في هذه الحالة المرأة الخائنة

- وإنما أخلاقيات المجتمع هي التي تفسدها بالتأكيد. فإذا أبقى إميل صوفي في عزلتها الريفية لبقي العذاب على عتبة سعادتهما الزوجية.

كما تمثل الصورة النهائية للجزيرة الوعرة تعبيراً عن الفشل الذريع في التأقلم مع العالم الخارجي. فعلى عتبات يوتوبيا إميل وصوفي، وعلى عتبات وهم بحب هادئ ومروَّض، ها هو روسو يعود من جديد إلى عزلة الجزيرة التي يدخلانها في ألم بالغ، عزلة مزدحمة! ولكنها عزلة مع ذلك. ما من حب يدوم وسط هذا العالم، إذن، ما من حب على الإطلاق مع الأسف. والسعادة الوحيدة المتاحة هي التي نبحث عنها داخل أنفسنا. تلك، في ما يبدو، هي الرسالة النهائية التى أرسلها الوحيد ذو القبعة الأرمينية في أيامه الأخيرة من مدينة إيرمينونفيل.

احتمال جزيرة كان عنوان رواية لميشيل ووليبيك[1]، قدم فيها مراقبة ثاقبة للشقاء الجنسي في الغرب. وكأن هذا الأخير يعبّر عن تكهّنات شوبنهاور السابقة. وعلى الرغم من الفلسفة العاطفية عند روسو إلا أننا قد نستطيع المقاربة بين الرومانسية اللاذعة وبين هذا الإباحي العاطفي المحترف. أكد الراوي المهرِّج في رواية احتمال جزيرة أن «التعارض بين الإيروتيكية والحنان يبدو لي، واضحاً كوضوح النهار، أنه من أسوأ درجات السفالة في عصرنا، كواحدة من تلك التي ميِّزت، بلا رحمة، توقف موت حضارة». إن كاتب الاعترافات توقَّع مبكِّراً المكانة النهائية للحب والذي كان يستشعره كأمر لا مفرّ منه!

---

(1) Fayard, 2005 .

- 5 -

إيمانويل كانط

صحراء الحب

«إن من يعيش بلا جنون ليس بعاقل كما يظن».

لاروشفوكو- حِكَمْ- 1665.

إنه الثقب الأسود للفلسفة. وأحد عجائبيات التاريخ التي بقيت بلا تفسير؛ مثل ندبة القديسة كاترين دوسيان، وقاتل جون كينيدي، ومسلّة جزيرة الفصح! تشبه جنسانية إيمانويل كانط حفرة جليدية حيّة تُفقد العقل صوابه. أينبغي أن نتعجّب على طريقة فيكتور هوجو؟ ما من طالب علم مقبل على دراسة بيبليوجرافيا كانط، إلا وستتملكه الدهشة المرعبة!

«وُلد في كونيجسبرغ في عام 1724، وعاش فيها حياته الكاملة، التي كانت مكرّسة للتأمّل والتدريس. لم نلحظ أي حَدَث عارض أربك هذه الحياة الفكريّة الكاملة». [1] لم تعش معه امرأة في المنزل، ولا عشيقة، وما من أطفال شرعيين أو غير شرعيين، لا علاقة مثليّة معروفة أو متكَهَّنة. كما أنه لا توجد شواهد أو تخيّلات عن علاقات مع الخادمات. لم يبتعد أبداً البروفيسور كانط عن نار مدفأته حتى وإن كان ذلك ليذهب إلى دانتزيج، المكان الأثير للإنتلجنسيا الألمانية. ما من تنّين في المنزل يعكِّر صفو كانط ، وما من هلُويز متخيَّلة في حياة

(1) ملاحظة بيبليوغرافية تظهر على خلفية غالبية نصوص كانط المنشورة عند فرين Vrin.

هذا المعجب بروسّو. لا شيء على الإطلاق، اللّهم إلا خادم عجوز، يشتغل بالبيت في أوقات محدّدة بدقّة تنافس دقّة الساعات السويسرية، وركن للعمل الذي لا ينتهي.

إلا أنه قد يكون من الخطأ تقديم كونيجسبرج في الفهرس الألماني باعتبارها مكانًا للتعذيب المفاهيمي ، كذلك من الخطأ اعتبار كانط ترتليانوس الأزمنة الحديثة، ذلك القس في كنيسة قرطاج في القرن الثاني الميلادي ومؤلف كتاب عظة العفة. على العكس من باسكال، كان الفيلسوف الألماني مشغولاً بحالته الصحية إلى درجة الوسوسة. كما لم يرتدِ أسفل ملابسه حزام العفّة ليقيه شرور جسده. بل كان يهتم بالتناغم بين سترته وجواربه الطويلة المصنوعة من الحرير، والتي كانت تُرتدَى في عصره، ويزيّن رأسه بباروكة بيضاء. كان متأنّقاً ولم يكن ذلك النموذج من الرجال المتلحّفين بلباس المنزل طوال الوقت كما صوّره البعض. ونتذكر عبارته: «من الأفضل أن تكون مجنوناً بالموضة على أن تكون الموضة خارج حساباتك».

أصبح كانط محاضراً جامعياً مطلوباً في العالم أجمع، مع ظهور كتابه ملاحظات عن مشاعر الجمال والسمّو في عام 1764. كان طفولياً بعض الشيء، وذا مزاج مرح وعينين زرقاوين صافيتين، وما كان يجن على الشراب أوعلى لعب الورق (الكوتشينة)، بل بدا أنه حظي بما سمّاه كازانوفا «التقرُّب العلني». إذ إن حضوره الواثق كان يجعل سيدات عصره يتقرَّبن إليه من دون أن ينطق بحرف. إنه السحر، إذا فضلناه!

الجنس شرٌّ لا بُدّ منه!

هنا سيتعقّد الأمر، يكفي أن نلقي نظرة على ميتافيزيقا الأخلاق كي ندرك قدر الارتياب الذي يثيره الحديث عن الجنس في نفس هذا

الجامعيّ المُرَفّه. من خلال الجنس «يهبط الإنسان لما هوأدنى من مرتبة الحيوانات» كما كتب كانط، وأضاف «حتى العلاقة الجنسيّة التي يسمح بها الزواج، ينبغي أن نغلّفها بالكثير من التهذيب حين نتحدّث عنها في المجتمع المتحضّر»[1].

أدنى من مرتبة الحيوانات! اللعنة... ويتابع كانط متسائلاً، إذا كان «حب الجنس» مكرَّساً للحفاظ على النوع البشري، قبل أي شيء آخر، ألن يكون ذلك «متناقضاً مع واجبنا تجاه ذواتنا؟» حتى إننا نمارسه دون الوعي بهدف الطبيعة من وراء الدفع به. ورداً على هذا التساؤل، منحنا كانط رداً إيجابياً للغاية: لم يكن من الممكن أن نرتبط بمتع السرير الشهوانية بدرجة أقل مما نحن عليه.

«وهو نفسه، كانط، الذي تخلى، بغلظة شديدة، في الأنثروبولوجيا عن المتهوّدين العابسين دعاة التقشف والمانعين للّهو. إن الطهرانية الكئيبة، وعفّة الرهبنة، اللتين تحرمان المرء من مباهج المجتمع، هما تشويه للفضيلة ولا تدفعان إطلاقاً نحو ممارستها. لقد هجرتهما النِعَم، ولم يعد باستطاعتهما التماشي مع مثال الإنسانية»[2].

هل نلحظ عدم ترابط في العجلة المتصلّبة للعقليّة المفاهيميّة عند كانط؟ يصعب تخيّل ما يقول!

نعرف التعبير الشهير المتعلّق بالأمر القطعي الكانطي: «عليك أن تتصرف دائماً بالطريقة التي تجعل الحكمة من تصرّفك ترقى لأن تكون قانوناً عالمياً». إن مجتمعاً أفراده من العزّاب في حالة انتصاب

---

(1) Metaphysique des moeurs, 1797, section "Doctrine de la virtue" §7.

(2) Anthropologie du point de vue pragmatique,1798.

والعذارى المتوهّجات، يؤدي بنا، لأسباب مفهومة وبديهية، إلى الفناء الحتميّ للجنس البشري. إلا أن مؤلف نقد العقل العَمَلي لن يعرف أن يجعل من نفسه، بشكل متناسق، مروّجاً متحمّساً للمسألة. ونلحظ في هذا المقطع من الانثربولوجيا أن كانط سيذهب إلى تخيّل عالم خالٍ من إيروس، ويعدّه عالماً «يخلومن النِعم» بشكل خطير. هنا تكمن الفكرة، فربما يكون متأثّراً بروسو، حيث المرأة هي حيوان متلاعب، وغير «قادر على التحلي بالمبادئ»، كما يقول روسو، وفي الوقت ذاته هي أحد العناصر التي تمنح الرجل، هذا الساذج الفظّ الذي يشتهيها، أن يهذّب من أساليبه وأن «يتحضّر» بالمعنى الدقيق للّفظ.

أنا، إيمانويل كانط، الفيلسوف الأعزب...

إن زُهد كانط غير قابل لأن يُعَوْلَم. فالفيلسوف، وفقاً لشاهد مقرَّب هو الشماس واسيانسكي، والذي كان سكرتيره الخاص في سنوات كهولته، كان كائناً «منضبطاً بصرامة»، ويفضِّل «أن يفقد حياته على أن يكذب كذبة واحدة». أيتعارض ذلك مع رؤيته الخاصة لدور الإنسان؟ لقد ذكر المجلَّد الساخر بوتُل الذي نشر في عام 2000 أن «الحياة الجنسيّة لكانط تعد من أخطر مسائل الميتافيزيقا الغربية»[1]. فلنتخيل أن تصريحات جديدة ومدهشة حول هذه النقطة ستغيّر من مذهب «المراجعة» في عيون الجماعة الفلسفية العالمية.

تتراءى بعض الاحتمالات التي لا يمكن إنكارها والقائلة بأن عزوبيّة كانط ربما كانت إجباريّة، مثل (ابن بلده) نيتشه. هذا ما أكده مقرّب آخر من عفيف الفلسفة وشريفها، وهوالشاب بوروسكي والذي

---

(1) Botul, La Vie sexuelle d'Emmanuel Kant, Mille et une nuits, 2000.

نشر بيبليوجرافيا قصيرة عن كانط «راجعها وصححها كانط بنفسه». كتب فيها: «لماذا لم نرَ كانط متزوّجاً أبداً؟ طالما طُرح هذا السؤال من الأصدقاء ومن العامّة. وحين نوجّه له السؤال بشكل مباشر، على الأخصّ في نهاية حياته، كان ذلك يضايقه، فكان يغيّر من دفّة الحديث ويطلب ألا نثير الأمر معه»[1]. ومع ذلك ينبغي أن نتأمّل كاتب نقد العقل المحض من جديد.

يتابع التلميذ: «أعرف فتاتين، كانتا تناسبانه تماماً، وبالفعل مالَ إليهما الواحدة بعد الأخرى. ولكنه لم يعد، حينئذ، في السن التي يستطيع فيها الاختيار أو أخذ القرار بسرعة. تأخر ، ثم تردد، وبعدها غادرت إحداهن المدينة، فيما تزوّجت الأخرى من رجل صرّح لها عن رغبته بأسرع ممَّ لم يفعل كانط». إذن فكانط الهادئ والدقيق، الذي يعيش مع قرينٍ أكثر إقدامًا منه، كان عاشقاً، ولم يخفِ ذلك على ما يبدو.

هذا في ما يتعلّق بالسيناريو الرسمي، ولكن هناك المزيد الذي وصل إلينا مؤكَّداً من الفيلسوف بنفسه «حين كنت أحتاج لامرأة، لم أكن أملك حينها ما أطعمها به، وحين أملك ما أطعمها به، لم أعد أشعر بالحاجة إليها». يبدو التعبير أنيقاً، إلا أنه لا يضيف شيئاً، خاصة وأنه يتفق مع زهده المتعمّد. بل إن كانط يبدو عليه عدم الافتقار لشهوانية الغريزة الجنسيّة. فقد كتب «المتعة الحسيّة الكبرى لا تشبه إطلاقاً الحب المعنوي»، هذا يعني أنه ليس فقط لم تكن معرفته به قليلة، بل يعني أنه اختبره جيداً. سيظل الأمر محل نقاش الأجيال اللاحقة.

(1) Kant intime, textes de L.E. Borowski, R.B. Jachmann et E. A. Wasianski, Grasset, 1985.

شخص يدعى لويس ريبيكا فريتز تباهَى بعرضه لاهتمامات الفيلسوف العاطفيّة، بعد مماته. ولكن تلك المغامرة غير المؤكّدة لم تثر محيط الفيتشيين كما فعلت بعض الخطابات المرسلة إلى كانط في عام 1762. فقد كانت صيغة الخطابات أكثر من ودّية وتتعارض مع الأخلاقيات القاسية التي كانت تغلب على ذلك العصر. كانت الخطابات بإمضاء ماريا شارلوتا يعقوبي، شابة جميلة تزوّجت مبكراً ومشهورة في مدينة كونيجسبرج. «صديقي العزيز لا تندهش لأنني أكتب للفيلسوف المميَّز الذي تمثّله، اعتقدت أنني ربما أقابلك بالأمس في حديقة منزلي حين كنا نعبر ممراتها أنا وصديقتي خلسة، إلا أنني لم أجدك! واستغرقت بعض الوقت في حياكة حزام لأرسله لك، هل لي أن أتمنى أن أحظى بمقابلتك غداً بعد الظهيرة؟ سمعتك تقول بالفعل: «نعم، نعم، سآتي». نحن ننتظرك إذن، وسأضبط ساعتي من الآن (اعذرني على هذا الاستدعاء)، صديقتي وأنا نرسل لك قبلاتنا الحانية التي ستنقلها لك نسمات الهواء من دون أن تغيّر من حرارتها شيئاً، كن سعيداً واعتنِ بنفسك». مع رسالة غرائبية كرسالة شارلوت المتحمّسة، فإن الخيال يشطح ويجمح. ملحوظة السيدة الشابة: «سأضبط ساعتي من الآن»، تكفي للإلهام بكل أشكال الفانتازيا. بالنسبة للبعض الصورة واضحة تماماً: وهم العلاقات الحميمة مع كانط، لا يشوبه أي شك[1]

(1) Arsenij Goulyga, Emmanuel Kant, une vie, Aubier,1985.
الإصدار الروسي الأصلي لتلك البيوغرافيا الفكريّة المعنونة كانط تعود إلى عام 1981. وقد تبنّى فيها الكاتب فكرة إمكانية وجود علاقة غرامية خارج الزواج بين شارلوت جاكوبي والفيلسوف.

جدير بالذكر أنه قبل كتابة هذا الخطاب بعامين ظهرت رواية تريستام شاندي للورانس ستيرن، والتي أعجب بها كانط واشتهرت في أوروپا المثقّفة بكاملها، وتعدّ شارلوت جزءاً منها. ينبغي تذكّر الظروف التي أحاطت ببطل هذه الرواية الانجليزية التي تخطّت أرقام مبيعات قياسية في أوروپا. من ضمن أحداث الرواية أن والد تريستام اعتاد أن يضبط بندول ساعة الحائط الثقيل قبل أن يؤدّي واجبه الزوجي يوم الأحد بعد الظهيرة، وكان من خيال الكاتب أن جعل الابن شاهداً على «المشهد البدائي» للوالدين، هذا الفعل من جانب الأب خلق حزمة من الأفكار عند السيدة شاندي التي تربط بين فعل ضبط الساعة وبين الأصوات الناتجة عن اهتزاز مرقدهما معاً. هل معنى ذلك أن كانط وشارلوت كانا عاشقين غير شرعيين (لأنها كانت متزوّجة)يتقابلان في حجرة راحتها. انتشرت تلك الشائعة، على الرغم من سذاجتها، لوقت طويل.

يكفي أن نقرأ بعناية الأنثروبولوجيا لكانط، كي تهدأ أذهاننا. فمن بين العديد من السخريات الأخرى من النساء، نجد في الأنثروبولوجيا ملحوظة تفترض معاني أخرى للعلاقة الجوهرية التي تربط الجنس عند النساء بتوقيت محدد في ذهن الفيلسوف: «أما النساء المثقّفات فإنهن يتزوّدن بالكتاب كما يرتدين ساعتهن: يرتدينها كي نرى أنهن يمتلكنها، بغضّ النظر عما إذا كانت تعمل أو إذا كانت معطّلة»[1]. حتى وإن كان هذا الكتاب كان قد نُشر بعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً، إلا أننا لا نستطيع تجاهل الفرضية القائلة بأن كانط اعتاد ملاحظة النساء بشكل تصويري هجائي، خاصة منهن اللواتي يعتقدن أنفسهنّ مثقّفات،

(1) Anthropologie..., op. cit. 2 partie, section B, "Le caractere du sexe".

وشارلوت لاحظت ذلك وعرفته. هذا الشرح أسهل في تصوّره من إمكانية تصوّر هذا الفيلسوف المتحفّظ الدقيق كعشيق سرّي لامرأة تتعمّد إثارة الرجال من دون إراحتهم، هذا عدا أنها متزوجة.

حرب الجنسين قائمة

الهَرِم الأعزب في كونيجسبرج يعتبر بشكل عام ومؤكّد عدوًّا للنساء. ألماني، محافظ، على الطريقة القديمة. مريدوه وتلاميذه الأكثر ولاءً لم يخفوا شيئاً من هذه الحقيقة. ولهذا روى بروفوسكي أن كانط، الذي اعتاد أن يتناول غداءه في صحبة مجموعة أليفة مثقّفة ولامعة من أصدقائه. لم يستطع أبداً أن يجبر نفسه على الثرثرة مع امرأة عن فرضيّاته الفلسفيّة أو عن الثورة الفرنسيّة التي تابعها بعناية وحماسة. نحن بعيدون كل البعد عن جَوّ الصالونات الباريسية الثقافية، أو عن عصر الأنوار الفرنسي الذي طالما أُعجب به كانط.

وهكذا اعتاد كانط أن يسلِّيَ شلته الصغيرة شارحاً «إن معرفة إدارة المطبخ هي الشرف الحقيقي للمرأة، كذلك كيف تجعل الزوج المتعب من نهار من العمل وهمومه، يمكن أن يتجدد وينشط بفعل وجبة الظهيرة». بالنسبة له كانت تلك الحقيقة دامغة وليست بحاجة لإثباتات. «لو أن سيدة أرادت أن تناقش معه مشكلات علميّة، كان كانط يتجنبها»، كما حكى بروفوسكي. قد توجّه له امرأة، بلا فائدة، ملحوظة تقول بأن النساء يستطعن أن يكنّ مثقفات على قدر الرجال، إلا أنها ستواجه بعبارة فظة إلى حد ما : «هذا لا يغير من الأمر شيئاً أبداً».

إجابة مسلّية من جانب مفكّر مرتبط كثيراً بالبراهين والأدلّة الراديكاليّة، ومهموم بإثبات أن «العمل المنجز» لا يضفي شرعية

أبداً من وجهة نظر أخلاقية. من الممكن أن نشهد ملاحظات سخيفة لكانط تجاه النساء، وبخاصة اللواتي أردن تعلم اليونانية، فحذرهن كانط منبّهاً، أنهن قد يرين ذقناً تنبت في وجوههن! نشير أيضاً إلى أنه كان رافضاً لحق التصويت للنساء ليس فقط بسبب انعدام مسؤوليتهن عن أنفسهن مادياً واجتماعياً، ولكن أيضاً لأنهن «وُلدن نساءً» أي لا يحق لهن إلى الأبد![1] في كتاب ما هو عصر الأنوار؟ قبل ذلك بعشر سنوات هدّأ كانط بعض الشيء من أحكامه، حين افترض أن دونيّة النساء هي النتيجة الطبيعية للقيود والتلاعب الذكوريّ. لن يستمر في هذه الفرضيّة، بل وسيتراجع عنها تماماً.

عاطفة مميتة

هناك حدث يجعل الحب يبتلع الإنسان، إنه الحب الجيّاش الذي اجتاح حياة كانط شاباً بشكل تراجيدي. الأمر يتعلق بالظروف المحيطة بموت أمه، وهو في الثالثة عشرة من العمر. طالما أحبها، كانت امرأة عُرف عنها الفضيلة والاستقامة، وكان للأم صديقة مقرّبة ومخطوبة لرجل «منحته قلبها، من دون جسدها». يحكي فاسيانسكي أن الخطيب غير المخلص سريعاً ما تزوَّج بأخرى، وبعد تلك الخيانة تركته صديقة أمه، فأصابتها حمّى قاتلة نتيجة اليأس التام. ورفضت تناول الدواء، الذي كان طعمه مرًّا، ولكي تقنع صديقتها بأخذ الدّواء أخذته أمّه بنفسها «سريعاً شعرت بالقرف والذعر: وضاعف خيالها من خطورة الدواء وجعلها تتخيّل أنها ترى قرحاً على جسد صديقتها، ونامت ليلتها ولم تفق. وقعت ضحية الصداقة». أو ربما ضحية شعور

(1) Sur Le commun, 1793, Gallimard, “Bibliotheque de la Pleiade”, t. III, 1986.

يشبه السهم القاتل. هل ماتت هي بدلاً من شخص آخر؟ نعرف تأثير الملاحم العائلية وأهميتها، وكيف أنها ترسم خطوطاً حتمية لقَدَر العائلة. حكى الفيلسوف عن هذه القصة وهو في سنوات كهولته، وهو ما يضيف إلى تراجيديتها، ولكنه أمر منطقي، إذ نعيش في عصر جوته.

روسّو المعلم الجنسيّ

خالط الفيلسوف القليل من النساء خلال حياته. فيما عدا أخته، التي ابتعدت لوقت طويل، ثم سكنت بالقرب منه حين أصبح رجلاً كهلاً وشديد الاهتمام بمظهره حتى أدقّ التفاصيل، وهو ما تحدّث عنه الروائي الانجليزيّ توماس دوكوينسي Thomas de Quincey في كتابه الأيام الأخيرة لإيمانويل كانط[1]. وحين يحاول أن يتناقش مع «الجنس اللطيف» نلاحظ تأثّره بروسو الذي كان ذا تأثير هائل على الفلسفة الألمانية بالكامل. فلنقل بصراحة إن إميل هو الذي كوّن التربية الجنسيّة لكانط. وصورة مؤلِّفه كانت هي الزينة الوحيدة في مكتب كانط، الذي كان يتناول فيه فنجان الشاي الساخن في الخامسة صباحاً، قبل أن يشرع في العمل.

نستطيع أن نرى تعاليم روسو تنمو وتتفرّع في جوهر تفكير كانط مؤلف مذهب الفضيلة، من خلال كافة التفاصيل. مثلاً الهوس المخيف من العادة السّريّة، وتوصيفها بأنها تفوق الانتحار خطراً، وأنه يتعيّن علينا أن نبعد المراهق عنها بأيّ ثمن. واقترح كانط بتحفّظ أنه ربما يفضّل التردد إلى بيوت الدّعارة على ممارسة العادة السريّة.

(1) Ombres, "Petite bibliothèque Ombres", 1986, préface de Marcel Schwob.

لا نستطيع أن ننسى الخطاب الذي أرسلته هلُويز الرقيقة إلى عشيقها تطالبه فيه بالبحث عن عاهرة وألّا يمارس هذه العادة القميئة. إنه أمر أرّق الفيلسوف الإيرلنديّ إيرموند بورك المعاصر لروسو، إذ أشار إلى أنه إذا حاولنا كثيراً أن نصير ملائكة فسيودي بنا ذلك إلى أن نصير أقل من الدّواب.

كذلك تُظهِر قراءة الأنثروبولوجيا أن كانط كان تلميذاً مطيعاً لروسو. وَصْفات السّعادة الزوجيّة عنده تشبه أحياناً نسخة مجرّدة للرؤى التي طورها روسو. خشي كانط من «المطالبة بالمساواة» داخل الزواج وخشي كذلك من أن ذلك «لن يستدعي إلا الخلافات»، فأحد الزوجين لا بُدّ وأن يجد نفسه «خاضعاً للآخر وستكون المرأة هي التي تخضع بالتأكيد». وبسبب تسرّعها المجنون في الحديث، فإنها جاهزة بشكل لا نهائي للمعارك الصغيرة المنزليّة. إنها قوية بسبب هشاشتها المُستعطِفة، وهي التي تقود الرقصة، من وجهة نظر الفيلسوف الأعزب. «من السهل اكتشاف الرجل، أما المرأة فلا تخون أسرارها أبداً»، حين تبكي بمرارة وحين تلوم الرجل «إنه لا يتّسم بالنبل» حينها تمتلك زمام اللعبة كاملاً. وهذا يكفي لأن نقول إنه ينبغي أن يمسك الرجل بزمام الأمور داخل المنزل. القوانين الوضعيّة ستحكم في النهاية. إنها قصة توازن بسيطة. مذّاك، يتسلّل الفيلسوف نحو تفكير شخصي أكثر مما سبق.

حين يدافع كانط عن سيداته

في الواقع، نلاحظ اختفاء سيادة روسو حين نقرأ في الأنثروبولوجيا شرح كانط لموضوع ولع النساء بأن يكنّ محطّ إعجاب، وأن يغوين، رجالاً آخرين غير رفيقهنّ الحالي. هل نستطيع القول بأن المرأة صيّادة،

في الأساس، بالنسبة لكانط، وأنها كائن ذو مزاج يدفع نحو عدم الإخلاص، أكثر بكثير من الرجل، مهما يكن ما يقوله الحكم المسبق السوقي في هذا الصدد؟ تماماً، فالمفردات محافظة، والاستعارات متخفّية بعض الشيء، إلا أن الفكرة قائمة عنده. وجد الفيلسوف سبباً عملياً في ما يبدو، والبعض يقول إنه سبب كئيب، ولكنه يُعَدّ تفسيراً للدلال اللعبيّ الذي لا يقاوَم، ولذوقها الدائم بارتداء الملابس الفخمة.

المرأة كائن تابع اجتماعياً، وهي تعاني خطر أن تصبح يوماً ما أرملة. لذلك فمن المفهوم، بل والشرعي تقريباً ، كما ذكر كانط، أن تُحاطَ بدائرة من العشاق الذين من الممكن أن يحلوا في أية لحظة محل الفاني العزيز. كما أضاف الفيلسوف ملاحظة أخرى تكشف لنا جليّاً إرادة للنفوذ المستترة عند المرأة. كتب كانط مستدعياً، ربما، الوضع المعاصر لمجتمعه الفرنسيّ، أنه حين «تصبح اللباقة موضة» وحين يُنظر إلى الغيرة باستهزاء «وهو ما لا نستطيع تجنبه في عصر الرفاهية فإن شخصيّة النساء تنكشف من خلال طموحهن لأن يصبحن أحراراً في رغباتهن تجاه الرجل، ومن ثم في السيطرة على هذا الجنس بكامله». والدرس المستفاد من القصة هو: زوجة مخلصة هي امرأة مقيّدة. امرأة، في قراراتها، ضد الطبيعة. هل نتصور عبارة أكثر نسوية، بشكل مفارق، من تلك العبارة؟

الآن وقد أصبحت التبعيّة النسائية أقل من ذي قبل، كم من براهين لكانط لا تزال تحتفظ بوجاهتها! فبعد خطر الترمّل يأتي اليوم خطر الهجر والطلاق بعد الارتباطات الزائلة التي نراها على ساحة الغواية كل عام. آلاف من السيدات المعيلات الوحيدات اللواتي يعانين من دخل شهري هزيل. هل تشعرالمحظيات السريات المعاصرات الملقيات

مثل ممسحة بالية بالعرفان لإيمانويل كانط؟ صحيح أنه ما من فيلسوف آخر، ما عدا فولتير، أظهر هذا القدر من التفهّم وحتى من التسامح مع النساء الناضجات. ربما لأنه نأى بنفسه عن الزواج سمحت له وضعيته بمزيد من التعقّل إزاء المسألة أكثر من أقرانه.

أضاف كانط إلى وجهات نظره الحادّة، وجهة نظر جديدة ومفيدة أيضاً كي نفهم المتاعب الغائصة في العلاقة بين الجنسين. الفيلسوف الاسكتلندي دافيد هيوم David Hume لاحظ في كتابه المحاولات أن العانسات، قد يشعرن أكثر بالحساسية إزاء السخرية من الزواج عنه إزاء جنسهن [1]. قدّم كانط تفسيراً لهذا الأمر الغريب في الأنثروبولوجيا: «إن تلك السخريات لا تتضمن شيئاً جاداً، ولكن هذا الهجاء قد يصبح جاداً إذا ما سلّطنا الضوء على الشقاء المصاحب لهذه الحالة، والذي فلتت منه العازبات». توجّه كانط بهذا التحذير لأنصار النسويّة في المستقبل: «إن تطوير فكر حر يتعلق بالزواج، له بالضرورة نتائج ملموسة على الجنس النسائي بكامله، إذ إنه يتدنّى لمجرّد وسيلة مكرّسة لإشباع رغبة الجنس الآخر، تلك الرغبة التي من الممكن أن تتغيّر فجأة بسبب الملل أو التقلّب الشعوري. إذن بالزواج تصير المرأة حرّة، ويفقد الرجل حريته».

ولأن الأخلاقيات الأوربية تتغير بسرعة، يبدو كانط وكأنه يرى وصول الزواج إلى اللحظة التى يتحوّل فيها إلى عبودية بلا طائل. ويدعوهن مقدماً إلى التشكك في تحرر يخفي وراءه عبوديّة أسوأ من سابقتها. حرب جنسيّة رهيبة حين لا يكون كلا الطرفين سوى وسيلة إشباع بالنسبة للآخر، أو شيء من الممكن إلقاؤه عند أول نزوة عابرة. صراع ستخسره المرأة في نظر كانط بسبب القيود؛ فالأمومة وخسائر

---

(1) David Hume, Essays, "Of Love and Marriage".

العمر تصيبها بشكل أكثر قسوة من الرجل. الفيلسوف الألماني تيودور أدورنو Theodor Adorno مدير «مدرسة فرانكفورت» والذي توفي في عام 1969، لم يكتب شيئاً آخر حين ندد ببعض مظاهر التحرر الناشئ للنساء والذي رآه كسوق محض للمغفلات.

في ما يتعلّق بمسألة علاقات الإغواء، أظهر كانط منطقاً واضحاً، رغم كونه محافظاً جداً. فوضعية الرجل هي الطلب، بلغة عاطفيّة، أما وضعية المرأة فهي التحفّظ، واللامبالاة. كتب كانط «المرأة ترفض، والرجل يطلب»، وكل تحديات الحب تتمثل في إزالة هذا الرفض، وكل صور «تهذيب فرسان العصور الوسطى» ترتكز على هذا التصور. نعرف جيداً ما تمثّله تلك الأخلاق في ترقية أخلاقيّات الغريزة الجنسيّة ووضعيّة المرأة في الغرب. وهو السبب الذي دفع كانط للقول: «إن السّحر الجسدي للرجل هو أمر ثانوي، ولا يهم أن تكون طبيعته تجعله أكثر قبحاً». ما الذي سيحدث لو «من وجهة نظر الجمال الجسدي» أصبحت المرأة أكثر تطلباً مثله في اختياراتها؟ ستكون النتيجة قلب كل معايير وقوانين لعبة الحب. «ينبغي على المرأة أن تظهر في وضعيّة من يطلب ويتودّد، أما الرجل فيتظاهر بدور من يرفض، هذا الموقف، حتى من وجهة نظر الرجال، يهدم القيمة التي يولونها للجنس النسائي».

هل هو قلق عصر فائت؟ مسألة الخطوة الأولى لا تبدو قد عولجت بطريقة مختلفة عن عصر كانط. قليلات من النساء هن المستعدّات لإرسال الدعوة الأولى للعشاء، والكثير من الرجال يشعرون بالفزع من النساء المطارِدات اللواتي يأخذن على عاتقهن القفزة الأولى. وعلى الرغم مما قاله الأدب الاجتماعي في القرن العشرين عن التغيرات العاطفية، فإن الأجيال تتلاحق. والشفرات الجنسيّة تواصل مسيرتها بإصرار دؤوب.

عشّاق من آكلي لحوم البشر

كتب ألكسي فيلونانكو Alexis Philonenko «ما يستطيع المرء أن يقوله بيقين تام تقريباً، هو أنه لا توجد فلسفة عن الحب في الإنتاج الأدبي والفلسفي لكانط»[1]. أبداً، ولا واحدة، لا تتعبوا أنفسكم بالبحث. كما لو كنّا نبحث عن إبرة في كومة قش. كانط أو صحراء الحب. من الممكن قبول الفكرة بأن بعض العبارات العذبة تأتي من رجل فخور أنه لم يسمع والديه ينطقان بكلمة نابية طوال حياته، ولم يتشاجرا في أية مناسبة.

إن مقطعاً من كتابه مذهب الحق[2]، وهو العمل الذي حظي بانتشار محدود نظراً لسمته الفاجرة، ليظهر بجلاء ما سبّب حزنه العميق في ما يتعلّق بالحب الجسديّ. كتب الفيلسوف هذه العبارة حول موضوع العلاقة الجنسية: «حين تترك المرأة نفسها فريسة، تُستهلك من خلال الحمل والولادة، التي قد تودي بحياتها. وحين يترك الرجل نفسه للإنهاك الناتج عن الاحتياجات الجنسيّة المتكرّرة لزوجته، فإن الاختلاف الوحيد هنا هو الطريقة التي يصلان بها للنشوة، وكلا الطرفين في علاقته بالآخر فإنه في حالة استخدام متبادل للأعضاء الجنسية، إنه حقاً أداة للاستهلاك». التهام مشترك واستهلاك قاتل ومُستَنفِد، فالحب من وجهة نظر كانط ينبع من مذهب أكل لحوم البشر.

---

(1) Alexis Philonenko, L'oeuvre de Kant, vim, 1972, t. II.

(2) هو الجزء الأول من كتاب تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، صدر في عام 1796، وصدر الجزء الثاني من الكتاب في عام 1797 ، تحت عنوان مذهب الفضيلة. وكما أوضحت الكاتبة لم يحظ هذا العنوان بالشهرة التي حظي بها الجزء الثاني .(المترجمة).

كلمات قوية وواضحة تأتي من كائن عفيف مثله، وظننا أننا نتعرف فيه على الالتهام المتبادل بين العشاق الذي ذكره من قبل لوكريس. والعنف المستتر يخبرنا عن خوف كانط من «التشيؤ» الذي تلقي إليه الجنسانيّة بالبشر. المرأة على الأخص التي تحب كثيراً أن تجعل من نفسها «شيئاً مناسباً لذائقة كل رجل» على الرغم مما تقوله، هذا ما كتبه كانط. أما الرجل فيسعى ليتمتّع بها باعتبارها شيئاً للمتعة. وحتى حين يحب امرأة، فإنه يشيّئها كذلك. والتحوّل «إلى الشيء في حد ذاته» يجعلها معبودة. إنها رؤية جدليّة للحب، إذ تنكر على العلاقة بين الجنسين إمكانية تحرّر أطرافها، أو أنها قد تودي بنا إلى أبعاد أخرى سوى الجسد. ونذكر عبارة كانط التي تجعلنا نتصور أنه يوجهها إلى امرأة ما وأنها تنقل خبرة عاطفية عاشها الفيلسوف: «لقد نظرت في عينيها، تماماً كما لو أنني أنظر إلى السماء»، ثم نكتشف أنه يتحدث عن دمية صغيرة كان يمسك بها في يديه.

على الأقل إن هذا الهوس من «التشيؤ» يسمح لنا أن نؤكد بأن الجنس اختيار غير مقبول بالنسبة لكانط. ما يعد فظيعاً بالنسبة لكانط، والذي اضطلع به أكثر من غيره، هو التفكير في شروط إمكانية حريّة مطلقة، متخلّصة من كل الروابط المدنيّة. كبت قاسٍ كان ليحوّله إلى ما يشبه معالج نفسي يمارس عمله في كشك لبيع السجائر. غلاف واقٍ هو ما سمح لكانط بأن يكرّس نفسه للسماء المنجّمة أعلى رأسه، وللقانون الأخلاقي في داخله ولإنتاجه الأدبي الهائل على الأخص. فإما الأبناء أو الإنتاج الأدبي، كل إنسان يختار طريقة خلوده، هذا ما قاله ديوتيم في المأدبة التي كتبها أفلاطون. الجنس أو العمل الأدبي، «لم يكن» كانط ليفعل سوى تأصيل عبارة أفلاطون.

\- 6 -

آرثر شوبنهاور

اغتيال الحب

«نبدأه كشعراء وننهيه كأطباء أمراض نسائية!»

«بين كافة الأدوار، أقل ما نرغب فيه هو دور العاشق.»

إميل سيوران، قياسات المرارة، 1952.

إذا أردنا تلخيص الفكر المتّقد لشوبنهاور حول الحب لوجدناه عبارة عن سلسلة من الشقلبات الساخرة التي يؤديها اثنان من الحمقى بلا طائل يُذكر! إذن، وليس من قبيل المصادفة إذا رأى شوبنهاور، المُخلِص للعزوبيّة وللجيش الألمانيّ، أن هذا الشيء المدعو حبّاً لا يُبَاشَر إلّا في منأى عن الأبصار وداخل الأماكن المغلقة متوسطة الإضاءة. إذ لا يمكن أن يشعر كائن، أيّا كان، بالفخر من هذا الشيء المقزِّز، الذي قد يكون مُسليّاً ولكنه تراجيدي في أغلب الأحيان. ونذكر عبارة سيلين Céline التي كتبها في القرن العشرين والقائلة بأن الحب هو «أن يصير الخلود في مستوى كلب كنيش»، إنه نوع من التنكّر لفصيلة من الكلاب يحبها هذا الفيلسوف المتشائم من دون غيرها من فصائل الكلاب الأخرى! على الأقل لا تحتاج الحيوانات إلى الحكي عن حيواتها الحميمة وممارساتها الجنسيّة اليوميّة التي بلغت بها حد السماء، كما يفعل الرجال والنساء.

يدعونا الفيلسوف من خلال أهم أعماله «العالم إرادة وتمثّلاً» الذي نشر في عام 1819 أن نتأمّل النظرات الملتهبة التي يتبادلها عاشقان وسط حشد من البشر، أو النظرات الغامضة التي يلقي بها عابران لبعضهما البعض على قارعة الطريق، أو حركات التظاهر التي يقوم

بها راقصان في ليلة السبت. ويتساءل لماذا «في الخفاء دائماً، وبشكل خاطف؟». ويجيب: لأنهما يعرفان لا شعورياً أنهما «خائنان»، تلك كانت إجابة الكاتب بشكل قاطع. لأنهما استشعرا من خلال ألاعيبهما المُدانة، إنهما «يبحثان سراً عن تمديد وإطالة هذا الشقاء وهذا الحزن والألم، ذي النهاية الحتمية». كل هذا الشقاء والألم؟ إنه ليقصد الحياة نفسها بلا شك! هذا الشقاء اللانهائي، والذي لا يمكن أن يمتد أو يستمر لهذين العاشقين من دون بعض الاستراتيجيّات الجنسيّة لزوج من الماريونيت الأغبياء.

الحياة لعبة شيطانية

كتب شوبنهاور «تتأرجح الحياة كبندول الساعة يمنة ويسرةً، من المعاناة إلى الملل». إذن فكل إنسان صادق لا بُدّ وأن يقبل أن ما من فرصة للمتعة الدائمة بين هاتين الحالتين من الشقاء. في الواقع، لم يخصّص المتشائم الألماني الكبير، المولود في دانتزيج في 1788، وقتاً بعينه لتأسيس هذه القناعة الراسخة. كان ابناً لتاجر متجوّل بين البلدان، ومثقّف. قام آرثر مع والديه برحلة إلى جميع عواصم أوروپا وهو في سن السابعة عشرة. وبدلاً من الانبهار بجمال أعمدة كاتدرائية نوتردام في باريس، أو الحماسة لحيوية المقاهي في فيينا، أسس عقيدة راسخة على خلفية حملته التي قام بها في مراهقته تقول بأن: هذا العالم الذي يضمّ حوذياً يضرب الحصان بقسوة، وآهات ألم تنبعث من نوافذ المشافي، هو عالم من العبث، ولا يمكن أن يعمره «كائن طيب حسن الخلق». لكن وحش نيروني، يتلذّذ بمعاناة من حوله.

هنا وضع شوبنهاور ديكوراً لمشهد نهاية العالم! ولم تزده اكتشافاته

للبوذيّة والهندوسيّة وقراءاته للأوبانيشاد[1] إلا بلورة هذا الحدس المبكّر. السعادة الحقيقية الوحيدة تتلخص إذن في ألا يُخلق الإنسان من الأصل. ومع التسليم باستحالة ذلك، فعلى المرء أن يفعل كل الممكن ليخلّص الذات من الرغبة العبثيّة «في الحياة»، والتي تجعل «عبقرية الجنس البشري» تقيّدنا ونحن معصوبو الأعين، لنهتم «بملء الحظيرة بسُكنى كُثر، لأن الألم والموت سيبحثان عن ضحايا جدد».

أعلن شوبنهاور المتشائم الحرب الحقيقيّة على الجنس البشري، وهو في الحادية والثلاثين. وهي حالة استثنائية لوضع فلسفة مبكرة بهذا الشكل، إذ إن النصب التذكاري الفكري الذي بناه على أساس من كُره الحياة كان قد أنهاه ونشره، وسط لا مبالاة تامة من الجمهور: العالم إرادة وتمثّلاً. كان بمثابة قنبلة متشظّية، ظلّت لوقت طويل قابعة في الصمت قبل أن تحظى بهذا الكم الهائل من المعجبين، كما لم تكفّ تلك القنبلة عن التشظّي مروراً بكل مراحل التاريخ الفكري من بروست إلى توماس مان، ومن ويليبيك حتى اليوم.

الحب هو فخّ الغريزة الجنسية

لو أن هناك مسرحاً مفضلاً للعمليات عند شوبنهاور ليؤسس عليه معركته العظمى ضد الحياة، لكان هو الحب. ووفقاً لمذهب الفيلسوف

(1) الجزء الأخير في مجموعة من الكتابات الهندوسية التي تُسمى الفيدات (جمع فيدا). وتكوّن الأوبانيشاد جزءاً أساسياً من مصادر الديانة الهندوسية، كما أثّرت في معظم الفلسفات الهندية. ويُطلق عليها أحياناً اسم الفيدنتا ، وتعني الكلمة تجميع الفيدا. أما كلمة أوبانيشاد فتعني الجلوس بالقرب من. مما يشير إلى انها كانت سرّية في الأصل. وظهرت أهم أجزاء المجموعة بين عامي 800 و600 ق.م. (المترجمة).

كليمان روسيه Clément Rosset ، ومن دون أن يساوره أدنى شك، «يُعدّ تأمّل الجنسانيّة أحد المصادر الأساسيّة لمذهب شوبنهاور»[1]، ففيه تسقط الأقنعة، وفيه تتجلّى عبودية الفرد لأهداف وغايات تتجاوزه وتهدمه أكثر من أيّ صعيد آخر. وبالنسبة له فمن غير المجدي أن نكذب على أنفسنا حيال هذه النقطة: حتى وإن بدا الحب نقيّاً ومزيّناً بالنزعة الشاعريّة فإن جذوره تتأصّل في الغريزة الجنسيّة. بل والأسوأ من ذلك أن الحب لا يهدف إلّا إلى الحفاظ على الجنس البشري.

لهذا فإن الحبيبين اللذين يعيشان معاً ويظنّان أنهما يتصرّفان وفقاً للوهم العاطفي وللجاذبيّة المتبادلة ويهدفان إلى الإشباع الشخصي، هما في الواقع خاضعان لعادات القطيع. إذ إن الرضيع الزنّان، هو هدف الجنس البشري بأكمله في نهاية الأمر. وحين يزول الوهم العاطفي، لا يتبقى سوى تأمّل هذا الرضيع، الذي لا يكفّ عن تأريقهم في مهد يصير هو القبر لزوجين كانا حبيبين. هذا الكائن خاضع هوالآخر مثل والديه للفناء والموت، حتى إن الوالدين العابثين يأتيان به إلى الحياة من دون استئذانه.

قد نرى أن ما يقوله ليس بالجديد أو الثوريّ. هذه الطريقة في تحليل وفك غموض الأمر تبدو عاديّة في عصر من العدميّة الشائعة. بعض البشر الساذجين، بسبب خضوعهم للأعراف الاجتماعية، وإن كانوا كُثُرًا بل ويشكّلون غالبية في المجتمع، لا يفهمون هذا المذهب طالما أنهم يلهون بحذاء الأطفال المزيّن متفاخرين بما يفعلونه، ويهددون به أمن

---

(1) Clément Rosset ,Schopenhauer, philosophe de l'absurde, 1967, réédité en 2001 dans ses Écrits sur Schopenhauer, PUF,»Perspectives critiques.«

المارّة. في هذا الصدد، قد نلمح مع ذلك غياب الأصالة الراديكالية في فكر شوبنهاور. لكن هل من شيء مشترك بين فكر شوبنهاور والأفكار الماديّة السوقيّة التي تهبط بالحب إلى مجرّد فعل جنسي حيواني؟ هل هي النزعة المادية؟ بل «هي فلسفة مصفّفي الشعر» كما أعلن الكاتب. وإذا كان الحب خدعة زائفة، وخطّة يتبعها رغبة في الإبقاء على الجنس البشري، فالحب مع ذلك هو فعل مهمٌّ ومعقّد. «الأكثر أهميّة» بين كل شيء آخر. «والهدف الأخير لكل تطلّع إنسانيّ» كما كتب شوبنهاور «أساس كل فعل جاد ومحور كل سخرية». ما من عاطفة تتجاوز الحب عنفاً محتملًا. لهذا لا نستطيع التعامل معه بخفّة أو بسطحيّة أو بتباهٍ أجوف لرجل سوقيّ يريد تقليص صورة الحب لمجرد قصّة تتعلق بالملابس الداخلية.

تشريح صاعقة الحب

كان شوبنهاور مهتمّاً بمظهر غريب جداً للحب البشري، وهو ما سيضعه على طريق نظريّته الأصلية. تلك الغرابة تتمثل في التركيز الحصري على كائن بعينه، هذا التركيز الذي يسيّر الانسان موقّتًا. إنه أمر لا يصدّق أن نرى إنساناً عاقلاً، من حيث المبدأ، يمكن أن يرتبط بفكرة أن «تملّك امرأة بعينها يعني تصوراً للسعادة الأبديّة، وأيضاً بأنه إذا لم يحصل على تلك السعادة فسيعيش معاناة لا توصف[1]».

---

(1) مقطع من كتاب العالم إرادة وتمثلاً، ملحق الكتاب الرابع، والذي أضيف بعد خمس وعشرين سنة من نشر الكتاب الأصلي. غالباً ما كان ينشر منفصلاً تحت عنوان ميتافيزيقيا الحب.

وهي ظاهرة غير معروفة عند الحيوانات، فلا نرى بينهم من ينتحر أبداً لفقد حبيبته، أو يحترق من الزفرات السخيفة، أو يفنى بسبب الشعور بالمرارة. أيتعلّق الأمر بالمعادلة الآتية: إذا ضاعت واحدة، فستجد عشراً غيرها. كل عاشق تم هجرانه قد عايش الخبرة الشنيعة المتعلّقة بالنقيض. فقدنا واحدة وفقدنا معها العالم بأسره. والأمر نفسه يحدث مع المرأة بالتأكيد، فهي أيضاً تغرق في الشطط العاطفي مثلها مثل الرجل. «في درجات الحب الأعلى يصبح السراب مبهِراً وخصوصاً حينما يكون محرَّماً علينا الاقتراب منه، حينئذٍ تفقد الحياة نفسها كل جاذبية وتبدو بعد ذلك خالية من الفرحة، ومملة ومقزِّزة، يسودها القرف حتى سكرات الموت؛ وقد يضع المرء أحياناً نهاية لحياته طواعيّة».

إنها حاجة مجنونة لكائن فريد، تفرّغ العالم بأسره من ساكنيه. تثير دهشة شوبنهاور، وفي الوقت ذاته تظهر «الجانب المؤثّر والسامي لقصص الحب كافّة» حتى وإن كان الفيلسوف عدوّاً راديكالياً للحب فهو لا يتصنّع الجهل بقوّته الكليّة. فشوبنهاور ليس واحداً من قراصنة المفاهيم يهاجم فجأة عدواً آخر أعزل، وقبل أن يضع حلاً نهائياً لحكايته مع الحب احتفى بمكانة الحب وجماله بشاعريّة غنائيّة استثنائيّة.

كما أنه ليس محللاً نفسياً سوقياً تقتصر رؤيته على أن نوعيّة المشاعر تتّسم باللامنطقيّة. هذا التركيز المدهش على شخص واحد لا بُدّ وأن له سبباً قويّاً، ليس بالمعنى الذي استخدمه هيجل Hegel، الذي كان زميل دراسة شوبنهاور، ونجم جامعة برلين، «مفسد عقل الطلّاب»، والذي سرق كل تلاميذ شوبنهاور، ولم يترك له مستمعاً واحداً سوى طالب طب أسنان وحوذيّ، ولكن لأن عنف الحب الشعوري يبدو في عيون شوبنهاور كعلامة على اهتمامٍ سامٍ بالجنس النوعي.

تُرى ما الذي اكتشفه شوبنهاور في ما وراء هذا التعقّب المُلحّ والمستمر لرجل خلف امرأة يجعل منها الشيء الوحيد الذي يستحق الاهتمام في هذه الحياة؟ «ومكوّن جيل المستقبل»، هذا هوالرهان الأكبر في اللقاء العاطفي. إذن علينا أن نعيد تقديم «صاعقة الحب» باعتبارها عملية حسابيّة فوريّة لمليارات المواليد المستقبليّة المحتملة والعرفان الموقت لأفضل الخيارات الممكنة كي يستمر الجنس البشري. وحدها تلك الفرضيّة تسمح بتفسير هذا التركيز المفاجئ وسمته الحتميّة. وتساعدنا لنجد ضرورة لهَوَس غير مؤكد ظاهرياً. وهي نظرية غير برّاقة ولا جاذبة حيث لم ييأس شوبنهاور من تكرار وعدّ النتائج الساخرة وبمنتهى الجدّية.

كما أضاف أن الرجال القصار يبحثون عن ذوات القامة الفارعة، أما نساء الجنوب المتينات فيفضّلن رجال السويد طوال القامة. تتخذ الإنسانية احتياطاتها إزاء الضعف الفسيولوجي بفضل هذا النوع من إعادة التوازن التلقائي والذي يتحقّق من دون وعي من الإنسان. ويضيف الفيلسوف بالطريقة ذاتها وَلَع الرجال بفساتين النساء ذات الفتحة الدائرية التي تكشف عن الصدر «فامتلاء صدر المرأة واستدارته يمارسان جاذبية لا تقاوم عند الجنس الذكوري، بسبب العلاقة بين تلك الاستدارة ووظيفة الإنجاب عند المرأة. والتي تعني توفّر الغذاء لطفل المستقبل». بإمكاننا أن نعدد الأمثلة إلى ما لا نهاية.

وقع بطل رواية بلزاك Balzac «زنبقة الوادي» في غرام كونتيسة مورسوف، حين رأى «ظهرها» وأخذ يقبّل أكتاف تلك الجميلة المجهولة في الحفل. قد نفترض أن هذه الحماسة المفاجئة إزاء ظهر امرأة ممتلئ بالسحر والمفاتن تحرّكه بلا شك الرغبة في عدم إنتاج ذريّة من الشباب النبلاء الأرستقراطيّين ذوي عيوب خلقيّة قاطعة.

سخرية بشعة، يختم بها شوبنهاور. فبينما يعتقد الرجال والنساء عند الاختيار العاطفي أنهم مستقلّون ومسؤولون يكونون في الواقع أسرى حسابات نفعيّة وماديّة تتعلق بجنسهم. في هذه اللحظة المحوريّة من حيواتهم القصيرة التي يختار فيها كل منهم «توأم روحه» أو«سبب كل عذاباته»، يبدوان في أكثر حالاتهما خضوعاً لضرورة حتميّة موضوعيّة بشكل حقير. وهي حتمية مخزية لأنها لا تهدف إلّا إلى هدف لا يتعلق بفرادته بل يتعلق باستمراريّة كابوس مفزع تتوارثه الأجيال.

شقاء الفلسفة

نستطيع القول إن شوبنهاور كئيب بالولادة، مراهق حزين وناضج يبحث عن الثأر، سينجح في أن يقسّم تاريخ الحب قسمين، سبقه على الطريق ذاته لوكريس بالتأكيد، لكن قليلين مَنْ تجرأوا على الوصول بعيداً حيث التفكيك الكامل للمشاعر المُعزّية التي كانت تبدو حتئذ أنها توفّر للبشر تعويضاً عن شقائهم العميق في ظرفهم الإنساني. ولم يتوان عن التفاخر بما وصل إليه في هذا الصدد. وسيؤكده بصوت جهوري وعلى الملأ حيث لم يسبقه لذلك أحد وخاصة بهذا القدر من الجدّية.

«ربما ينبغي أن نندهش كيف يبقى موضوعاً بهذه الدرجة من المحوريّة في حياة البشر قابعاً في الظل، من دون أن يتناوله الفلاسفة بالاعتباريّة الكافية أو البحث والمعالجة حتى يومنا هذا». بالطبع فإن شوبنهاور يبالغ حين يقول ذلك، ويريد خداع القارئ. ولكنه يعود ليؤكد: «الوحيد الذي اهتم به كان أفلاطون، ولكنه انشغل أكثر بالحب اللواطي للغلمان». أما روسو فلم يكثر من الحديث في هذا الأمر، إلا في بعض العبارات القليلة في خطاب حول أصل وأسس اللامساواة

«والتي كانت كاذبة وغير كافية»، يقول شوبنهاور، قبل أن يسخر من كانط ومن عدم أهليته المعروفة للجميع للحديث في الأمر، ومن التعريف «الساذج بشكل فَجّ» الذي صاغه سبينوزا.

ولأن ما من أحد تناول الحب بشكل كاف قبله، فقد اختتم الفيلسوف قائلاً: «لا يسعني أن أشارك من سبقوني ولا أن أعارضهم».

ذهب شوبنهاور إلى أبعد من ذلك، من خلال المحادثة التي رواها في ما بعد بول أرموند شالومل لاكور-Paul Armand Challemel Lacour، أستاذ الفلسفة، الذي أثارته عبارات مايسترو التشاؤم الألماني في أثناء سهرة بملهى ليلي مجهول وفي أعقاب صدور كتاب Parerga et Paralipomena [1]. كان شوبنهاور يشبه قطاً عجوزاً منتوف الوبر، ويزيّن رأسه بباروكة رمادية، وقد أصبح سيد اليأس في أعين جيل كامل من الشباب الأوروبي آنذاك. توجّه شوبنهاور إلى محدّثه قائلاً إنه لم يعد يتردد في تحدي كل المفكّرين والكتّاب من كل العصور على حلبة يرى نفسه فيها المجدّد. وجّه حديثه بسخرية مريرة إلى الشاب، الذي أصبح في ما بعد رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي في عهد جامبيتا Gambetta، قائلاً: اجعل من الحب رفاهية ووسيلة لتمرير الوقت، وتعامل معه كفنان من دون أن تعجب به كثيراً «إذ إن تناسل النوع صناعة لا تهدف سوى إلى استمراريّة الإنتاج».

لَعَن الأخلاقيّون أصحاب الشهوة الجنسيّة الوحشيّة. بينما تحدث

---

(1) Arthur Schopenhauer, Parerga et Paralipomena, traduction de Jean-Pierre Jackson, Coda, 2005.

يوحي العنوان باللاتينية القديمة «فهرس ونصوص فُصلت». لقد جمع ما يقرب من أربعين مقالا مهجورًا، وأصبح الآن متاحًا بترجمة فرنسية.

الشعراء عن الأرواح المكرّسة سلفاً للحب وعن الانجذاب التلقائي. نتذكّر رواية أفلاطون عن الإنسان المتوالد ذاتياً في عصور أخرى، قبل أن يصب جوبيتر رب الأرباب غضبه عليهم، وكي يقضي على غرورهم قسم هذا الجسد إلى شريحتين، مثل السمك الفيليه، ومذّاك وكل نصف يركض بحثاً عن نصفه الآخر إلى أن يجده. إنما الشعراء حالمون والأخلاقيّون أغبياء وأفلاطون يسخر منّا. ولكن البشر ليسوا منحلّين، لا بسبب الرغبة ولا بسبب الانجذاب الإلهي، ولكنهم يسعون، من دون أن يعرفوا، في هذا الاتجاه بغرض استمرارية النوع البشري. والبشر، في هذه اللعبة، هم البطل والوسيلة والضحية في آن واحد[1]. وهكذا فالرجل والمرأة من خلال استراتيجيات وحِيَل علاقاتهم العاطفيّة المستمرة، لا يفعلون سوى إنتاج خليط هائل ومقزز من الأجيال خشية أن يصيب عرقهم البشري زوال قَدَريّ ناتج عن آلاف الأسباب.

عباراته القلقة «أزالت الحُجُب» كما قال لاكور، الذي كاد أن يرى لهيب الجحيم يبرق في حدقات شوبنهاور في ذلك المساء «وبدلاً مما يثيره إيروس، الإله الشاب والساحر، الذي تتسلّح عيناه بالأسهم المتوهجة لتلهب القلوب»، ها هو الرجل العجوز قد لاحظ «إنسان آلي حزين محمّل بأفكار استمرارية الجنس البشري». قال الشاب الجريء لاكور في لحظة حاول أن يستجمع فيها شجاعته بالكامل: «الحب هو السماء». أجاب المهووس العجوز قائلاً: «بل الحب هو الشرّ بعينه»، ثم استدار مغادراً من دون أن يكلّف نفسه عناء تحيّة محادثه.

---

(1) Paul Armand Challemel- Lacour, Etudes et reflexions d'un pessimiste, 1901. L'Essai sur les femmes, d'Arthur Schopenhauer, L'Herne, 2007.

«لا ترغب النساء في فناء النوع البشري، ولهذا أكرههنّ». مع شوبنهاور كانت الأشياء واضحة: ولم يكن هذا النوع من عدوّ النساء الذي يؤنّب نفسه فيراعي كلماته قبل أن ينطق بها. كان أكثر عنفاً من كل آباء الكنيسة المنهارة، إنه جاك السفاح[1] في تاريخ الفلسفة. المرأة تستحق الكره لأنها كابّو Kapo[2] الجنس البشري. إنها كائن تافه ومنافق، لا تهدف إلا لإطالة فترة عذاب البشرية. ويستكمل شوبنهاور قائلاً: «وسط هذا المشهد القاتم، وكي تستطيع استكمال هذا الهدف، فإنها ستضع يدها على مجنون مسكين ليتكفّل برعاية الأطفال الذين ستنجبهم هي رغماً عنه». إنه يقدم الرجل كأبله مسكين. وطالما كانت هناك امرأة واحدة على الأرض، فإن الحلقة الجهنمية للحياة والموت لن تتوقف «ينبغي تدمير المرأة» ربما كان هو شعار حرب شوبنهاور، لذا فلا بد من هدم إنتاجها بأي ثمن.

---

(1) هوالاسم الأشهر الذي أطلق على قاتل مجهول الهوية كان نشطاً في المناطق الفقيرة جداً في منطقة وايت تشابل وحولها في لندن سنة 1888، وقد نشأ هذا الاسم من رسالة كتبها شخص يدعي أنه القاتل، ونُشرت الرسالة في وسائل الإعلام، ولكن يُعتقد بقوة أن هذه الرسالةَ كانت مجرد خدعة، وربما يكون الذي كتبها هو أحد الصحافيين في محاولة متعمدة لزيادة الاهتمام بالقصة، كما عُرف القاتل في ملفات القضية والتقارير الصحافية باسم «قاتل وايت تشابل» و«ذوالمئزر الجلدي» (المترجمة).

(2) هذه التسمية كانت تطلق على الحارسات اللواتي كنّ يعملن في حراسة المحارق التي أقيمت لليهود والشواذ جنسياً داخل المعسكرات النازية إبان الحرب العالمية الثانية. ويستخدم اللفظ عادة للإشارة إلى أشد أنواع النساء غلظة وقسوة. (المترجمة).

وقد عبّر عن ذلك من خلال كتابه مقالات عن النساء[1] أحد أهم أسلحته إلى جانب غيرها من الأسلحة التي استخدمها بضراوة. لن نندهش إذن حين نجد عباراته بمثابة عقيدة عند الرجال العزّاب الذين يعانون من الكبت. وقد بدأت عباراته في ممارسة هذا التأثير منذ عصره، إذ تلمح تأثيرات منها على كتابات موباسان بشكل واضح، الذي كان يصوّر رجالاً متبجّحين وفاسقين وساخرين، وسيّدهم هو شوبنهاور[2]. نجد عند مؤلف صديق مخلص، والذي كان زير نساء، نوعاً من النقد الذاتي اللاذع، ورغم تقديسه الحقيقي للفيلسوف الألماني نجده يقول عنه: «هو أكبر محطِّم أحلام مَرّ بهذه الأرض».

«النساء هن الجنس الثاني على كل الأصعدة، وقد خلقت المرأة لتُنبذ ولتبقى في المرتبة الثانية». وتعود أسباب تلك الهجمات في نظره إلى الوضعية التي تحظى بها المرأة، عبثاً وحظاً لا غير، في الحضارة الغربية. «إن ما نطلق عليه السيدة الأوروبية هو نوع من الكائنات ما كان له أن يوجد أصلاً. وما كان يتوجّب أن يوجد في العالم سوى ربات البيوت، المكرَّسات لأعمال المنزل، وفتيات يتطلعن ليكنّ على تلك الشاكلة، ويتربَّيْنَ على الكبرياء بل على الخضوع». إن اللياقة الفرنسية المعهودة والاهتمام المولى إلى سيدة المجتمعات منذ العصور الوسطى المسيحية ، هو اللفظ الذي كان يكتب بخط مميز لتمييزها وتفخيمها، وكانت تصيب شوبنهاور بالتقزّز والنفور. إذن فلا بُدّ من تعديلات تُجرى على الزواج لكي تعود الأمور إلى نصابها

---

(1) Op. cit. "Sur les femmes" Parerga et Paralipomena, p. 905-915,.

(2) راجع الدراسة الرائعة لجان سالم عن «موباسان وشوبنهاور» في العقل المتجلّي. دراسات شوبنهاورية، فرين، 2005.

نهائياً. فلنؤسس سريعاً لنظام تعدّد الزوجات، وحينها سنشهد على «اختفاء سيدات المجتمع، أو وحش الحضارة الأوروبية والحماقة الألمانيّة المسيحيّة، ومتطلباتهنَ السخيفة في ما يتعلّق بالاحترام والشرف».

وقد وجد شوبنهاور لفرضيّته تلك أسباباً إنسانية. فعند الشعوب التي تقبل بتعدّد الزوجات في آسيا والشرق لا يمكن العثور على «عانس» لم يلمسها أحد بعد، أو تلك التي تضطرّ للقيام بمهمات مضنية لأنها لا تجد من يحميها. بل وذهب إلى أبعد من ذلك في توصيفه للعاهرات، أو المخلوقات البائسات، واللواتي اعتبرهنّ «الضحايا الحقيقيين للزواج من زوجة واحدة، وقرابين الوقوف على مذبح العرس. «فلنلغِ الزواج الأوحد وستختفي العاهرات اللواتي تعجّ بهنّ شوارع لندن»، هذا هو ما يقوله فيلسوف قادر على تبني أي مذهب فلسفي، فقط ليسلب المرأة مكتَسباتها.

الحب قوة الضعفاء

نفى شوبنهاور عن إناث البشر أي سحر جسدي حقيقي. وأضاف أننا نخطئ حين نطلق لفظ «الجنس الجميل» على تلك المخلوقات القصيرة، عريضة الأرداف. وكما هو الحال عند الحيوانات، فإن الذكر هو النوع الأكثر تميزاً في كل الأجناس. بينما تسميَة «الجنس الضعيف» تلائمهنّ تماماً، إلا أن خطورتهنّ تكمن في قلب هذا الضعف. مثل الأسد الذي يدافع عن نفسه بأسنانه وقواطعه، والفيل والخنزير، فلهم وسائلهم الدفاعية. كذلك المرأة تشبه الحبّار الذي يطلق حِبرَه ليحيل الماء من حوله ماءً حارقاً، إذ لا تمتلك سوى التموّه لتدافع عن نفسها،

وهي موهبتها للإيقاع بالرجال. ويختتم شوبنهاور قائلاً من هنا ينبع خداعها الغريزي وميلها الدائم للكذب.

وفي خضَمّ هذا الصراع المرير من أجل الحياة، تختلط جميع الأجناس، بينما يكون سلاح المرأة، في نظر شوبنهاور، هوالزواج. فتكتسب بهذه الوسيلة وحدها القوة الجسديّة والعقليّة التي تعوزها. وتُعِدّ لها الطبيعة ضربة حظ في مطلع شبابها. إذ تمنحها سنوات قليلة من الجمال المبهر الكافي لإلهاب خيال الرجل وحواسه، ثم اجتذابه ليتحمّل مسؤوليتها هي وأطفالها لبقية الحياة. وعلى الرغم من أن جمالها خائر لا محالة، إلا أن الدلال ورونق المظهر كافيان لإنجاز المهمة.

وتُعد روحانيّة الحب أمراً حيوياً بالنسبة للمرأة. يرى شوبنهاور أنه ليس من قبيل المصادفة أن تنقل امرأة مثل ديتوم لسقراط تلك الفانتازيا الكارثية، وأن «ينقل بدوره إلى العالم هذا العلم الجهنّمي كي يخلّد، بإرادة كاملة، ما عاناه من ألم في حياته»[1]. الفيلسوف الإغريقي المحاط بالشباب دائماً يتجرّد من أقنعته ويتشارك موضوعيّاً مع النساء. بالنسبة له ليست مصادفة أن تتعارك النساء بالسكاكين كي تدافعن عن فكرة الزواج الأوحد التي تبرر وجودهن بالقرب من ملايين الرجال الأغبياء. في هذا المضمار، يحرز العدو الأول للنساء نقاطاً. فنحن لا يمكننا أن نفسّر بطريقة مختلفة، كما يقول شوبنهاور برؤية ثاقبة، القسوة الفظيعة التي تسمح لمسخوطة تافهه أن تدين جهاراً فتاة حملت أو إمرأة تزني علانية. إن ضراوة النساء في ما بينهن في مثل هذه الأمور تفصح عن سِرّهن الرهيب. تلك التي تهدد بسلوك مستهتر أن تكشف للرجال كيف

(1) Paul Armand Challemel -Lacour, Etudes et reflexions d'un pessimiste, op.cit.

أنهم مخدوعون في زواجهم، تصبح في هذه اللحظة عدوه لبنات جنسها بأسرهن. أو ربما يفهم هؤلاء من ذلك أنهم يمكنهم نيل ذلك دون ارتباط أو يكتشفون أن ارتباطهم لا يحميهم البتة من منغّصات جادة.

على هذا الصعيد، يكمل الفيلسوف قائلاً إن المحبّة الصادقة بين مخلوقتين ذواتي شعر طويل وأفكار قصيرة ليست سوى مزحة سخيفة. لأن «النساء أعداء بالفطرة» وفقاً لما كتب بثقة تامة، قبل أن يشرح قائلاً: «هذه الخصومة الموجودة على نطاق ضيّق بين أصحاب المهنة الواحدة من الرجال، نجده عند النساء في ما بينهن جميعاً، لأنهنّ صاحبات مهنة واحدة، وانشغال واحد. وإذا التقين في الشارع فإنهن يتبادلن نظرات الجيلف «Les Guelfes» والجيبلان «Les Gibelins»[1]».

إن أقل ما يمكن قوله في هذا الموضوع هوأن مؤسّسة الزواج اليوم تحتضر في الغرب. هل بإمكاننا أن نلخّص ما سبق قائلين إن شوبنهاور أخطأ بشكل قاطع؟ لا، إنما إذا تمعنّا في الأمر، لأن فكرة الحب عاشت طوال الوقت، نستطيع الحديث دائماً عن التنافس في مجال الغواية. منافسة طالما اعتُبِرت شرسة أكثر من الطلاق والقطيعة وباتت الآن عادية. مرة أخرى شوبنهاور برؤيته الثاقبة الصادمة يكون على حق.

السيدة أمّـي

«كل منّا يحمل بداخله صورة للمرأة مأخوذة من صورة أمه. من هنا يتحدّد موقفه تجاههنّ، إما أن يحترمهن، أو يحتقرهن، أو يشعر باللامبالاة إزاءهنّ»، هذا ما كتبه نيتشه في إنساني مفرط

---

(1) هما عائلتان وظهيران سياسيان متنافسان، دامت بينهما المواجهات في إيطاليا طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

في إنسانيته[1] ما قد يجعلنا فضوليين إزاء معرفة الكثير عن جوانّا شوبنهاور، تلك السيدة التي ألهمت ابنها كل تلك اللياقة والتسامح!

لم يكن شوبنهاور قد بلغ الثامنة عشرة حين سقط والده من أعلى سطح البيت، هذا الحادث الذي فسّره المقربون، وحتى ابنه، على أنه محاولة انتحار. «كانت السيدة أمّي تقيم السّهرات في المنزل، فيما كان هو غارقاً في الوحدة، وكانت تتسلّى فيما هو يقاوم المعاناة غير المحتملة. هذا هو حب النساء»[2]. كانت سيدة مجتمع متحجّرة القلب، مشغولة بفساتينها وعشّاقها المحتملين أكثر من انشغالها بعائلتها، وطالما رأت نفسها «كاتبة». ذلك هو البورتريه المؤثر الذي ارتسم للأبد في قلب شوبنهاور، وطبع بقوّة رفضه الحادّ لنصف الإنسانية المؤنث واليأس الذي تملّكه إزاء الوجود بشكل عام.

بعد وفاة الأب لم تتوقف العلاقة بين هاملت الألماني والسيدة والدته عن التعقّد المضطرد حتى وصلت إلى القطيعة النهائية. عاشت جوانا شوبنهاور حياة عامرة في صالونها الأدبي الذي كان جوته أحد روّاده. لم تُخف السيدة عن ابنها أياً من العلاقات التي كانت تتراكم طوال حياتها، بل وكانت تتحدث عنها بين سطور-رواياتها بلا أدنى اهتمام بزوجها، الذي لم يكن سوى ضمانة مادية في أعقاب علاقة عاطفية فاشلة. في معظم الأحوال، لا نرى مراهقين خجولين وذوي عقليّة فذّه مثل شوبنهاور ينتمون لعائلات برجوازية مستقرة. لن يتزوج مؤلف كتاب «العالم إرادة وتمثلا» أبداً، كما لن يواجه فكرة الأبوّة بطريقة سوى الشعور بالغثيان. فقد تحدّد الأمر مبكراً، وسيضرب

---

(1) Humain trop humain,§ 380.

(2) Schopenhauer-Jahrbuch, n 58.

النظام الفلسفي بآخر المسامير في نعش التصالح الممكن بين شوبنهاور والحياة.

الفلسفة وأبناء الزنا

مع كونه أعزب وعدوانياً وساخراً، إلا أن شوبنهاور مَرَّ بعلاقات قصيرة، ودون المستوى اللائق. وجميعهن سيذهبن بسبب الغيرة وعدم الثقة والغياب الراديكالي لصفة الكرم. أما عن متعة الحب، فلا تخطر على بال أحد. حاولت بعض الجامعيّات الجميلات التقرّب، بدأب شديد، من شوبنهاور لشهوته الجامحة، والتي كانت بمثابة برهان على شعوذته، إذ إنها لا تتناسب وفِكرَه المتوّج بزهد ولامبالاة واعتزال للعالم[1]. يعني ذلك أن ننسى أن شوبنهاور الشهواني أحياناً إلى درجة الجنون، الناعم، لم يتعامل مع نفسه أبداً على أنه بوذا الألماني، ولم يتوقف طوال حياته عن الشكوى من المستنقعات الكريهة التي قادته إليها أحياناً «شهوته الجنسيّة الملعونة». وهي نقطة ضعف تعامل معها دائماً على أنها عدو شخصي مثلها مثل المرأة التي هي أداة للشيطان. من المعاناة إلى القرف مروراً بشعور عنيف بالعبث، بدت حياته العاطفيّة، على العكس، متماثلة بدرجة كبرى مع مذهبه الساخر.

كتب شوبنهاور وهو في السابعة عشرة: «كلما رأيت الرجال أكثر، كلما أحببتهم أقل، ولو استطعت قول أكثر من ذلك عن النساء، لأصبح الأمر أفضل». قبل أن يقيم علاقات مع الخادمات والعاهرات وجميع المخلوقات اللواتي كن ينجذبن لنجاحه الفلسفي المتأخّر. ومع ذلك أحيانا كان يُصدّر بعض مشاعر الحب خارجه. في البداية، مَرّ بتجربة

---

(1) مارتيال جيرو، مقدمة ميتافيزيقيا الحب، 1964.

حب فينيسيّة مع امرأة تدعى تيريزا فوجا لكنها سريعاً ما انتهت. كان يراقب عشيقته ليلاً ونهاراً، وفي إحدى المرّات حين كانا يتنزهان على شاطئ الليدو، وهويراقبها بطرَف عينيه، مَرّ اللورد بايرون ممتطياً حصانه. بعدها أفضى لأخته التي كانت موضع سرّه قائلاً: «لم تستطع الإيطالية أن تنساه طيلة النهار».. هذا التعليق مثال مناسب على التأويل العاطفي المبالغ فيه، الجدير برواية السجينة لبروست.

أما بقية مسيرته العاطفية فكانت أقل رومانسية. ففي مدينة دريسدن، حبّل خادمة وماتت رضيعتها سريعاً. وعلّق شوبنهاور على هذا في إحدى مراسلاته قائلاً: «لحسن الحظ، ماتت ابنة الزنا مبكراً». بينما نتج عن علاقته بكارولين ريختر الممثلة وسيدة المجتمع طفل آخر ولد في برلين في عام 1920 تقريباً. لم يعترف شوبنهاور بأبوّته وترك أمه التي كانت فيما مضى «أميرته الحبيبة». إن رجلاً كان ينام ممسكاً بالمسدس في يده طوال حياته،ولم يكن يقطن إلا شققاً في الدور الأول ليسهل عليه الفرار حال وقوع الحرائق، كان يظهر القليل من الاستعداد لخوض مغامرة الأبوّة الآسرة.

العيش في زمن الزواج الأوحد

تلك النجاحات المدوّية لم تدفع شوبنهاور ليعفي البشرية من نصائحه الثمينة في ما يتعلّق بمسائل العلاقة الزوجيّة. حالما يزول وهم الحب، وحالما تهدأ غريزة الجنس النوعي. حينها لا يتبقّى سوى المواجهة الكئيبة بين امرأة سليطة وديك مخصيّ. هذا هو رأيه النهائي تقريباً في الزواج. ومع ذلك فقد كتب في عام 1822 نصّاً يتناول وسائل

إصلاح هذا البرنامج الكارثي[1]. كانت رؤيته للحب غير مسبوقة، وقد أكملها بسعادة وانشراح. مرة أخرى يهاجم الفيلسوف الزواج من امرأة واحدة، ولكن هذه المرة يستخدم أدلّة نسويّة للغاية، وهو ما يصيب الجميع بالدهشة. يرى شوبنهاور بفجاجة أن الزواج لا يسمح للزوجة الشابة إلا «باستخدام نصف قدراتها وإشباع نصف رغباتها». ويقترح نوعاً من «المعيشة الثلاثية» الموقتة يعيش فيها الزوجان وعشيق شاب متّقد ومتحمّس لإشباع وهجها إشباعاً تاماً، وكلما رأت أن اكتفاءها بعضو ذكري واحد أمراً يتنافى والطبيعة الإنسانية، كلما استطالت سنوات نضجها الجنسي.

والأمر ليس وردياً بالنسبة للرجل أيضاً. فمع أنه قادر على إرضاء زوجته في سنوات ارتباطهما الأولى، إلا أنّه لن يكون قادراً على الاكتفاء بها وحدها في ما بعد. إذ من المستحيل، كما يؤكد الفيلسوف، «أن يشبع غريزته الجنسية بطريقة شرعية طوال حياته منذ لحظة ميلاده حتى وفاته، إلا إذا أصبح أرمل في ريعان شبابه». ثم يختتم بعبارة شنيعة شوبنهاورية خالصة، تلخّص لبّ المشكلة: «من يتزوج مبكراً سيتسكّع مع عانس طوال حياته، ومن يتزوج متأخراً ستطاله الأمراض التناسلية ثم ينبُت له قرنان».

كذلك يوجّه شوبنهاور اتهاماً جديداً للعالم الذي لم يستطع التوافق معه أبداً: «لم تهيء الطبيعة العلاقة الجنسيّة جيداً». ولأننا نعتقد بأن عدد الرجال والنساء متساوٍ على الأرض، فنعتبر ذلك إشارة إيجابية في اتجاه الزواج من امرأة واحدة. هذا غير صحيح على الإطلاق. ثم

---

(1) Arthur Schopenhauer, Le Ménage à trois, inédit publié dans Le Magazine littéraire, n. 328, janvier 1995.

تخيّل نوعاً من العلاقة التي ترتبط فيها المرأة برجلين في ذات الوقت، واللذين سيرتبطان بشريكة جديدة طازجة، فلنقل إنها زوجة ثانية، والتي ستتولى «رعايتهما حتى سنوات الشيخوخة». إن أقل ما يمكن أن يوصف به هذا الحل هو أنه غير معقول. ومع التسليم به، كيف يمكنه حل مشكلة الغيرة أو الملل المتأصّل في العلاقة الزوجية؟ هل يصدق هو نفسه هذا الحل؟ كلا، فيما يبدو! إن فلسفة العبث لديه لا تجعله يفضّل إطلاقاً فعلاً قائماً على بذل الجهد بقدر ميله لتصور يوتوبي، هذا التصور الذي طوّره شارل فوريي Charles Fourier في القرن ذاته في فرنسا. يتساوى الحب، غير القابل للإصلاح، في حماقته، مع «الرغبة في العيش» وهذا المصطَلَح الذي يُعَدّ أكثر المصطلحات بؤسًا. بقي أن نسأل ما إذا كان يمكن القضاء على الحب.

شوبنهاور معلّماً

إن العفّة الاختيارية هي أولى الخطوات على طريق الزهد، دافع شوبنهاور عن هذا المعيار بضراوة، كي يتصدّى للمشاهد القاتمة للجنس النوعيّ، تلك المقدرة التي لا تكفّ عن مناوراتها للدفع بالجماهير الحقيرة «أسفل غطاء المتعة، التي تعد جلّاداً بلا رحمة». هذا ما كتبه بودلير. ثم كتب مؤلف «العالم إرادة وتمثلاً» : «إن الشهوة الجنسيّة هي الرغبة التي تكوّن جوهر الإنسان» كتبها بألفاظ تصدر عن مستذئب شهواني حقيقي. «هي التفكير اليومي للشاب وغالباً للكهل، والفكرة المسيطرة على عقل المنحلّ والرؤية التي تفرض نفسها بلا كلل على الرجل الزاهد». أيعني ذلك أن نقبل بأنه ما من أحد يستطيع الإفلات من هذا الإغراء المفزع المفروض على الإنسانية والمدعو

«الرغبة في الحياة»، بما في ذلك حتى الراهب العجوز المنعزل في صومعته؟

ولكن هناك وسيلة لخداعها وإحباط قدرتها وتمشيط فخاخها من الألغام، تلك الوسيلة وفقاً لشوبنهاور تتمثّل في التأمل الجمالي. فلنختزله في حالة من الذكريات ونحوّله إلى «مشهد» عقليّ إذا أردنا، وكم من معاناة ماضية تحولت إلى مصدر للمتعة. ارتكز على هذا المذهب الميتافيزيقي المنتج الأدبي الكامل لأحد أهم تلامذة شوبنهاور في فرنسا: مارسيل بروست. فلا يمكن توقع الإشباع من الحب أبداً عند مؤلف البحث عن الزمن الضائع. فالمتعة المترتبة على حضور ألبرتين لا تتخطى كونها قد مسحت القلق الناتج عن غيابها، وسريعاً ما أفسحت المجال «لملل غامض». ولا تتعلّق السعادة عند بروست، كما هو الحال عند شوبنهاور، باللحظة الآنية، أو زمن المحنة الشعورية.

تساءل بروست في حب سوان: هل الحب «الشر المقدس» بجوهره هولَا حدث؟ فالحقيقة الوحيدة الحاضرة معه هي المعاناة التي يولّدها. والمتعة الوحيدة القادر على جلبها هي مستقبليّة، من خلال أمل زائف، ولكن مُمجّد، بلقاء. بل والمؤكد أنها ماضية كذلك، لأنها تتبدل بالذكرى. كتب شوبنهاور: «إن الشيء الذي نمتلكه لا يحمل أبداً بشائر الشيء الذي نبتغيه، لأنه لا يمنحنا الإرضاء النهائي لمخاوفنا ولإرادتنا». هنا، انفصل الفيلسوف عن التعاليم الرواقيّة. كما نعرف، دافع الامبراطور مارك أوريل والعبد المحرر إيبيكتوس عن ان نرتبط بدقّة بالحاضر، وأن المستقبل هو زمن الهم والقلق، والماضي هو زمن الندم والتحسّر.

إن القدرة التطبيعيّة للماضي تُعَدّ أحد أهم اكتشافات شوبنهاور الفلسفيّة. إنها واحدة من الومضات التفاؤلية النادرة في منتجه الأدبي. كان قاسياً كمسيرته العاطفية، مما يسمح على الرغم من ذلك بالشعور بالخَدَر. أما عند مؤلف البحث عن الزمن المفقود فالآلام القديمة تجعل الآلام الحالية نسبية، والقلب الذي لا ينكسر يوماً ما يتصلّب شيئاً فشيئاً. «لقد عانيت تدريجاً بسبب جيلبيرت ومدام دو جورمونت وألبرتين. ثم نسيتهنّ تدريجاً كذلك. أما الوحيد الذي بقي فكان حبّي المُهدَى لكائنات مختلفة». سجل هذه الملاحظة في الأزمنة المستعادة. إن حباً من خلال لقاءات قليلة لم يعد «حباً». بل هو على أسوأ الحالات هوس رخيص، وعلى أفضلها طريق شخصي، وعلم ظواهر ذاتي، وهو بداية انفصال كامل بالمقارنة بأشباه الحوادث تلك التي تمثّل الحب عند بروست.

لم يذكر بروست أبداً شوبنهاور في البحث عن الزمن المفقود، على عكس أفلاطون مثلاً. عدوّه الرئيسي في مسائل الحب. بينما كانت مدام دو كامبريمر، السيدة الشابة، شديدة الإعجاب بالألماني الفظ، الذي كان يعرف منتجها الأدبي تماماً. إلا أن الدور المحوري لعبه عند بروست، الذي كرّس له صفحتين في يوميات قارئ. أكان يرفض مواجهة ذاته بأنه المكمّل لرسالة شوبنهاور؟ في الحقيقة لا يهم، لأن العامل المشترك بين هذين الناقدين اللامعين للحب كان أكثر إرباكاً من تلك المظاهر.

الهدف هو النيرفانا

كتب شوبنهاور «لا يهم من سيمزّع لباس مايا يوماً ما»، ومن يملك

بداخله «الرغبة في الحياة» لا يستطيع سوى التراجع ذعراً وخوفاً لأن كل ذلك بلا معنى. غالبية البشر يفضلون أن يلعبوا دورهم كعرائس متحرّكة بإيمان كامل، وأن يتبعوا أشباحاً وهمية وأن «يتظاهروا»، وأن ينتقلوا من رغبات بلا معنى إلى مشروعات فارغة، وكأن كل ذلك يؤدي إلى شيء ذي جدوى. وها هو الحب يعرض مشاركته القيّمة تبعًا لهذا السلوك غير الأصلي والذي وصفه باسكال مستخدماً تعبير «إلهاء»، تعبيراً أصبح، مذّاك، عادياً. والمتع الزائفة، كما المعاناة التي تولّدها، هي بمثابة وقت ضائع، أي أننا نبتعد عن الحقيقة ونغرق في تفكير غير مُجدٍ يمنعنا من مواجهة العبث. وفي حقيقة الأمر، فإن الحب هو الإلهاء الأوحد.

بَلْوَر ووليبيك تلك الرؤية، وهو يعدّ مقاتلًا شوبنهاوريًا بلا منازع وعاشقاً آخر للكلاب، حيث أسهمت رواياته هي الأخرى في تفكيك غموض الحب، بقدر ما تعتبر اعترافاً بقدرته الكلية. الحب هو المحور الأساسي للإنسان إذن؛ لأنه يقدم التعزية الزائلة للإنسان ويسبب له جراحاً لا تُداوى في آن. كذلك نجد في احتمال جزيرة لميشيل ويلبيك الوصف الكئيب لحياة تخلو من ذلك النبض الجوهري. «حين يزول الحب الجسدي يزول كل شيء، ليملأ كدر رتيب، بلا عمق، تعاقب الأيام». بالتوازي مع ذلك، فقد وُصِفَ الشعور الجنسي فيها بتركيز ممنهج. البطل المزعوم لويلبيك وَصَف الحب كجحيم مطبق، في الرواية التي هجرته فيها حبيبته الشابة الشقراء ذات التنّورة القصيرة بعد أن دفع هو بسيدة أخرى إلى الانتحار. «فالحب يجعلنا ضعفاء، والأضعف بين الاثنين يُدمَّر، ويقتله الآخر». إن معايير الحب شبّهت بوضوح وبساطة بمعايير النازية «الشباب، والجمال، والقوة»،

ما كان مؤكداً عند شوبنهاور هو أن سيدة ناضجة لم تكن لتشعر بشيء آخر سوى النفور المشروع. ثم يكتب ويلبيك: «أن يكون الحب اللامشروط هو الشرط لإمكانية السعادة، فذلك يعرفه البشر بالفعل، أو على الأقل أفضلهم. إلّا أن الفهم التام للمشكلة لم يسمح، حتى الآن، بالسير قُدماً نحو إيجاد حل ما».

ووفقاً لشوبنهاور فإن الحل للهرب من أهوال الحب متاح فقط للشجعان الحقيقيين وللإستثنائيين من البشر. ويتمثل في اهتداء النظرة، والتحرر الكامل من الرغبة والفكر. وهو ما أراد الدفاع عنه كل من شوبنهاور الفيلسوف الألماني الذي أدرك الفلسفة باعتبارها نوعاً من الفن، وبروست. وقد تقبّلا، هما أيضاً، درس الشيطان القائل بأن ليس للحياة سبب. مجرد خليط من الذرات التي تتشكل باستمرار، وتتحول وتخور تبعاً لإرادة قوة غامضة لا تهتم بالبشر. كذلك أيكون من العبث أن نجمّد الكائنات لتصير أشياء للحب، أي نجعلها مناسبة للمعاناة. لقد رأى بطل رواية البحث عن الزمن المفقود على شاطئ بالبيك، مجموعة من الفتيات الشابات، كياناً جمعيّاً يقود الدراجات، ذوات وجنات وردية يرتدين كنزات رياضية ومَرِحات كفتيات ينتمين للطبقة البرجوازية، ومع مرورهن سمع بعض العبارات الساذجة كعبارة «تعيش حياتها». الجنون هو أن نستخلص من هذا المشهد المتحرّك حالة خاصة، أو نظرة تُؤَوّل عدائية، أو أنّ ثمة ألبرتين، التي ستنفصل عن الجمع، وتصير مذّاك موضعاً لرغبة مؤلمة لأنها غير مشبعة، الرغبة في تملك كل من مرّت وستمر بهم.

وحدها النظرة الفنية أو الفلسفية من الممكن أن تكون علاجاً لهذا النوع من الجنون. وهي عكس النظرة العاطفية. فهي تجعل «الجمال

خفيفاً وجماعياً ومتحركاً». والمهمة أكثر خِفّة هي الأخرى، وأكثر حركة وأكثر جماعية. وعن هذا يقول الفيلسوف جاك رانسيير في كتابه «سياسة الأدب»[1]«تلك النظرة تجعل من الفتيات أكثر تمنّعًا، وأقل إنسانية حين يتم الدفع بهنّ على عجلة التحولات ليعبرن كل مملكات الطبيعة وكل أشكال الفن، ليصبحن شلة من النوارس يسرن في موكب غرائبي على الرمال». لقد تخلّى عن التفريد العبثي للكائنات لصالح تأملهم الخالص. فتحرر من الرغبة وانتقل إلى الأبدية الوحيدة التي لا تخذل.

لم يواجه شوبنهاور، بطريقة أخرى، الحالة المثالية التي ينبغي أن يميل لها أي عاقل. فقد قال في العالم إرادة وتمثّلاً إن الطمأنينة المهيمنة على الإنسان هي التي تخلفها المخاوف والأحزان والأوهام. «تعلو الابتسامة الشفاه، ويتأمل الإنسان في هدوء ملهاة العالم التي كانت في ما قبل سبباً للتأثر والابتلاء، ولكنها في هذه اللحظة تترك أثراً لا مبالٍ. يرى كل شيء كقطع الشطرنج عندما تنتهي اللعبة، أو عندما يتأمل في الصباح الأقنعة التنكرية مبعثرة، بعد أن كانت الأشكال تتلاعب وتستثار بها طوال ليلة الكرنفال». انتهى الحفل، وهدوء الموت يطبق على العالم، وجثة الحب لم تعد تحرك ساكناً.

---

(1) Jacques Rancière, politique de la littérature, Galilée, 2007.

ـ 7 ـ

سورين كيركيجارد

الحب المطلق

«دائماً كان الحب عندي أعظم المهمات،
أو ربما هوالمهمة الوحيدة».

ستاندال، حياة هنري برولارد، 1890.

كان يا ما كان مخلوق بحريّ يغوي الفتيات ذوات النظرة الزائغة على صفحة المياه العاكسة. هذا الكائن المائي الرائع ذوالقشرة البرّاقة سحرَهنّ وهو يتموّج أسفل صفحة الماء كي يمسك بهن ويجتذبهن إلى أسفل السطح ليقبعن للأبد في أعماق المحيط. يوماً ما استطاع الإمساك بالجميلة آنييس، لتستسلم روحاً وجسداً بين ذراعيه. وبينما كان على شفا استدراجها نحو مصيرها المشؤوم، ارتبك بفعل نظرتها العاطفية التي تموج بالسذاجة والرغبة والثقة التامة. اختلج قلبه، متأثراً بعينيها الصافيتين فتجمّد وتجمدت معه حركة الأمواج.

كيف يستطع أن يؤذي تلك البريئة التي ولّدت في قلبه مشاعر حب كانت، قبلئذ، مجهولة؟ فهو لم يكن سوى كائن مائي. كانت الاستجابة للغواية تعني الدمار، أعادها إلى عالمها ومدّدها على الرمل بكل مشاعره ويأسه، واعترف لها بحقيقته الشيطانية بكل ما يحمله هذا الاعتراف من مخاطرة أن تفقد صوابها، فقد كان الحب مستحيلاً. كان الحب هو ما ضيّع حبه. ثم أسرع إلى المحيط الخائر. وحيداً، إنما مقطَّعاً لاثنين. وممزقاً، إنما عظيم.بتضحيته. اختلطت ملوحة عبراته بملوحة البحر، وصرخاته بأصوات تيارات المياه.

«سقطت في أعماق المياه، وأصبح كل شيء معتمًا أمام عينيّ. ولكنني بزغت من الماء من جديد[1]». هذا ما كتبه كيركيجارد، الذي لم يجد شخصاً يقارن نفسه به «باستثناء الكائن المائي» لأن حياته كانت تدور «في الأعماق السرية للنفس». وكما فعل وحش البحار المستلهم من الكونت أندرسون، ترك كيركيجارد حبيبته ريجينا، أو كما كان يطلق عليها «شمس النساء»، على شواطئ العالم المرئي، على الرغم من حبه المطلق لها.

حين رآها في المرة الأولى، كانت في نفس عمر جولييت، أربعة عشر عاماً وثلاثة أشهر. فيما كان يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً. التقيا عند صديقته بوليت روردام. ووسط تجمّع من الفتيات، اكتشف ريجينا أولسن، ابنة مستشار الدولة. فسقط «أعزب كوبنهاجن» في حبها فوراً.

طوال السنوات الثلاث التالية، حاول التقرب منها أكثر، واهتم بدراستها وعزفها للبيانو. كما كان يزورها بانتظام، في بيت من تلك البيوت البرجوازية العريقة المؤسسة على ثلاث طبقات كبيرة من الخشب الفنلندي. ثم تقدم لخطبتها، في أعقاب عودته من رحلة إلى بيت والديه بعد وفاة أبيه. ووافقت في العاشر من سبتمبر 1840.

في اليوم التالي، دوَّن في دفتر مذكراته: «عرفت على الفور أني ارتكبت خطأً. بالنسبة لتائب مثلي، يكفي ما لديَّ من حزن». ومع ذلك فقد كان يحبها. وكان مواظباً على ملاطفتها. كان يهديها أوشحة مزينة برسومات من صنع يديه أو مشاهد رومانسية لطيور الحب، ويحرص أن يخط على ظهرها أبياتاً من الشعر أو رسائل حانية، إلى جانب خطابات ملتهبة عبّر فيها عن موهبته الشعرية:

---

(1) مقطع من الخطاب رقم 26 لريجينا أولسن، كتب في ديسمبر 1840 ونُشر في مراسلات. وهنا نشير إلى أن سورين كيركيجارد قد أثار أسطورة الكائن المائي في كتابه «خوف ورعدة».

«إذا تعين عليّ أن أصوغ اعترافاً، فأنا أعرف تماماً أي اعتراف سأكتب، وإذا تعيّن عليّ أن أكتب سبع أمنيات فأنا لا أعرف إلا أمنية واحدة سأكررها سبع مرات، حتى وإن كنت أعرف أنها ستتحقق منذ المرة الأولى. تلك الأمنية تُعدّ قناعتي الأكثر عمقاً وهي أن: لا الموت، ولا الحياة، ولا الملائكة، ولا الأمراء، ولا أصحاب النفوذ، ولا الحاضر، ولا المستقبل، ولا الرفعة، ولا العمق ولا أيّ مخلوق على وجه الأرض، يستطيع أن يبعدني عنك أو أن يبعدك عني»[1].

بعد طلب يدها بأحد عشر شهراً، أعاد سورين خاتم الخطبة المزيّن بحرف الراء إلى ريجينا فجأة ومصحوباً برسالة:

«في بلاد الشرق يعني إرسال حزام من الحرير أن المرسَل إليه سوف يموت، أما هنا فإرسال خاتم يعني أن المُرسِل هو الذي سيموت». فهددت ريجينا بالانتحار، وعادت العلاقة لمدة شهرين من الصراع المحتدم وتوسّلت العائلة للشاب الدارس للاهوت بالبقاء، إلا أن كل ذلك لم يُجدِ. لطمت صفعة العقل الباردة قلب كيركيجارد، وضرب الملاك القابض بسيفه على رقبة ضحيته الرقيقة. لقد اتخذ قراره، وشرع في رهان حياته.

قال له أخوه الأكبر حينها «ها قد خسرت»، ثم أجابه كيركيجارد بعد ذلك بسنوات من خلال اليوميات «ومع هذا فإذا كنت قد أصبحت شيئاً، فتلك الخطوة هي ما أهّلني لذلك»[2].

والمفارقة هنا أن كيركيجارد كان عاجزًا عن عيش حالة الحب حتى

---

(1) خطاب رقم 21 لريجينا أولسن، غير مؤرخ، نشر في مراسلات.
(2) Journal ,tome 1, Gallimard, 1963, VI A 8.

أصبح أحد الفلاسفة النادرين الذين طالما تحدثوا عن «هذا الموضوع المسيطر» المسمّى حباً.

أخذت القطيعة بينهما شكلها الرسمي، وانهمك كيركيجارد في تحرير الجزء الأخير من كتاب البديل أو يا هذا... يا ذاك والذي يتحدّث فيه عن قيمة الزواج. نُشر الكتاب في عام 1943 من دون اسم الكاتب الحقيقي، ونُسب لاسم مستعار هو فيكتور إرميتا، الذي جعل منه أشهر كاتب في البلد. وكان الجزء الأول منه، الشهير والمشين في الوقت ذاته، تحت عنوان يوميات مُغوٍ. حيث استغرق يوهانا في أفكار كورديليا الصغيرة، وأيقظ حسيّتها، وما إن استسلمت حتى اختفى بشكل غامض. كان سطواً حقيقياً على قلبها. لم يستطع القرّاء إلا أن يروا كيركيجارد نفسه في هذه القصة التي ولّدت لديهم أشكالاً متعددة من عدم الفهم لتراجيديّته الشخصيّة ولفكره.

كتب كارل إيجبي بولسون Karl Ejby Poulson، الذي أرَّخ لبيبليوجرافيا كيركيجارد، أنه هنا تبدأ «واحدة من أعظم قصص الحب في تاريخ الأدب العالمي». قصة كيانين ارتبطا في الأبدية لأنهما لم يستطيعا أبداً الارتباط على أرض الواقع. هنا أيضاً تأسّست أكثر الأعمال الفلسفيّة إثارة للقلق. فيما تأمّل هيجل ما تضمنته القصة من درس قدريّ. إن كيركيجارد، في خضم القرن التاسع عشر، عرّى مخاطر الوجود الإنساني مستخدماً حياته كمادة للتشريح، مستعرضاً دراما حياته الحميمة من عبث واضح في انفصاله عن حبيبته وتمزّقه وتناقضاته. إنه معارض الفلسفة الدانماركي، الذي قال عنه لاكان «إنه المتسائل الأكثر حِدّة حول النفس البشريّة قبل فرويد»، وهنا يعارض سيطرة النظام والعقل، بتأسيس لا نهائي للحقيقة الذاتية، الحرة حتى

أدق الاختيارات وأكثرها حميمية. لأننا لا نولد رجالاً، بل يجب أن نريد أن نكون كذلك. وتتلخّص حكمة المبشّر بالوجودية في «أن يكون المرء مخلصاً لفكرته»، وهي الحكمة التي كوَّنها منذ سن الخامسة والعشرين عاماً، وألهمت بعمق فكر القرن العشرين من هيدجر إلى سارتر مروراً بجاسبرز وفيتجنشتاين.

لا بُدّ أن تكرهني

لماذا قطع كيركيجارد ارتباطه مع امرأة عشقها حتى وفاته، كما كان يردد؟ أي بديل غرائبي فرضه على نفسه وجعله يقتلع قلبه بأيدٍ عارية؟ كيف يبرر «تلك الجريمة» في عيون البشر؟ وبأي شيء يمكن أن تفيد «صفعة العالم» على هذا النحو؟

ستكون جميع كتاباته عبارة عن رسائل مشفّرة إلى حبيبته، وزجاجات ملقاة في المياه، لشاعر «وحيد في صومعته، ووحيد على بحر الحياة الواسع، يطفوأحياناً ويغطس أحيانا ولكن في يد الله في جميع الأحوال». الكثير من الفخاخ، التي توجّه وتدير الرأس عن الهدف في الوقت ذاته، ينصبها أستاذ التخفّي، مستخدماً الدعابة والسخرية تحت عدد لا نهائي من الأسماء المستعارة، يحمل كل منها تناقضاً وجودياً.

أخذ على عاتقه واجب أن يُظهر لريجين وللمجتمع الراقي في كوبنهاجن أنه خائن كبير. فهي الوسيلة الوحيد لينقذ سمعة الفتاة الشابة ويسهِّل عليها الانفصال. تماماً كما تضع الأم على ثديها طعماً مُراً حين تريد أن تفطم رضيعها. فكّر في ذلك كي لا تظل الفتاة غارقة في مشاعر فشل عاطفي تقليدي.

واستثمر كل مواهبه في خداع المحيطين به. الوحيد الذي كان يسمع اعترافاته هو صديقه المخلص إميل بويسن Emile Boesen ، من دون الخوض في التفاصيل والإيضاحات الحقيقية وأحياناً بإضافة نهايات مصطنعة واستراتيجية. وتحول الصديق إلى مخبر منذ الرحلة التي قام بها سورين إلى برلين، لحضور محاضرات الأستاذ شيلينج Schelling، فكان يراقب ريجين، بناءً على طلب سورين ويرسل له تقارير عن أنشطتها وصحتها وعلاقاتها، ففعل كما يفعل كل المحبِّين السابقين، الذين يشعرون فجأة أنهم لم يعودوا يملكون شيئاً، فيطاردوا عشيقاتهم بفضول مَرَضيّ. وقد كتب ذات مرة مبرراً هذا السلوك: «من الصعب أن أفهم نفسي بعمق وسيظل الأمر كذلك لأنني أمتلك قدرة التحكّم في مشاعري (وقد يكون ذلك لتعاستي) عندما أريد أن أخفيها لا يكون من السهل على أحد أن يقرأ أفكاري»، ثم أكمل معاتباً رفيقه: «وها أنت تستمر وتسألني إذا كنت أرى صورتها أمام ناظريّ. إنه هلاك وإدانة! أتريد أن تصنع مني مرة أخرى طفلاً لا يعرف ماذا يريد، طفلاً يجلس ليغنّي وحده في الظلام ويرى أشباحاً ويشعر بالخوف؟». ومع مرور الوقت وفي انتظار أن يهدأ الألم وتخفّ المعاناة، كان يفعل كل ما بوسعه كي ترى فيه صورة المحتال. «تنقسم حياتي إلى فصول، ويأخذ كل فصل منها عنواناً مختلفاً، وبوسعي أن أطلق على الفصل الجاري عنوان «يجب أن تكرهني».

وعند عودته إلى كوبنهاجن كان يتنزه طوال اليوم متفاخراً وحاملاً شمسيته، أحدب الظهر يجوب ممرات المدينة ويتحدث مع المارة ببشاشة. كان يتقاطع مع ريجين كل اثنين صباحاً من دون أن ينبس لها ببنت شفة. ويذهب كل مساء إلى مسرح المدينة ويقضي فيه عشر دقائق على الأقل مستعرضاً شَعرَه الغزير لتنتشر الأحاديث بين الناس عن كونه ليس إلا عاطلاً مترَفاً.

أدّت المسرحية مبتغاها، حتى إن الناس كانوا يتحاكون عن الليلة التي ذهب فيها عند أهل حبيبته لفسخ الخطوبة رسمياً، وكيف أنه قطع فجأة حديث أحد أفراد العائلة، واسمه ويلسون، لينظر في ساعته بوقاحة خشية أن يتأخر على العرض المسرحي الذي كان سيحضره في الليلة نفسها.

والحقيقة أن حكايات ألف ليلة وليلة الخاصة بالكاتب كانت مكرّسة للعمل. فكان عند عودته إلى المنزل يلقي بنفسه - وعلى ضوء الشموع والمعطف لا يزال على ظهره - أمام الورق الذي وضع رزمة منه في كل غرفة من غرف منزله الكبير. حيث اعترف «ساهر كوبنهاجن» في إحدى كتاباته قائلاً: «وكما أنقذَت شهرزاد حياتها بالحكي، أنقذُ حياتي بقوة الكتابة». وكأنه «جاسوس» يخدم قضية سامية.

فكان يعتقد أنه منقاد بفعل «عقيدة» ترافقه «قَدَرياً». قال ذات يوم لصديقه إميل: «إني أحمل شوكة في لحمي تماماً مثل بولس الرسول، ولهذا استخلصت أنني لا أستطيع الدخول في درجات إنسانيّة عاديّة. اقتنعت أن مهمتي في الحياة هي مهمة استثنائية. وهنا يكمن العائق في طريق علاقتي بريجين».

أصل الشر

«شوكة في اللحم» ها هي غرائبية جديدة من غرائبيات كيركيجارد. هل يمكن أن نقرأ في هذا التعبير صورة الرجل الكئيب الذي يرى في حبيبته «العاشقة الأكثر إخلاصاً»، والذي يطلق على عذابه ما يطلقه الإنجليز على منازلهم العزيزة عليهم «حُزني هو قلعتي»؟ ترى، هل قاده شيطانه المفكّر، وهذا النشاط العقلي الزائد إلى مشارف الجنون، لذلك

اعترف له الأطباء بأنهم عاجزون عن علاجه؟ بالإضافة إلى عجز جنسي تولّد لديه من اللاتناغم بين الجسدي والنفسي؟ أم هي تلك المسامير الاعتبارية «للتضحية» المغروزة في جسده، كما سمَّاها هو بنفسه؟

إن حب كيركيجارد لريجين، ووعوده بالارتباط، في فترة كان يتساءل فيها عن ماهيّات دينية، كانت مناسبة ليطرح على نفسه التساؤلات المتعلقة بعلاقته المؤلمة بربّه، ومسيحيته التي كانت راسخة في ذهنه منذ صباه. كان الابن الأصغر لعائلة مكوّنة من سبعة أطفال. ولد سورين لأبوين في مرحلة الكهولة، ميشيل بيديرسن وآن لند، حيث كان الأب يبلغ عند ولادته في الخامس من مايو عام 1813 السادسة والخمسين والأم تبلغ الخامسة والأربعين. كان الابن المفضل عند والده التاجر الثري والكهل الورع. وهو من نقل إليه مسيحيته المتزمّتة للغاية. المصطبغة بالمعاناة والعذاب. «التي يراها الناس: جنوناً».

لنتخيل صورة سورين الهزيل، يرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً من الصوف الرقيق، ولذلك أطلق عليه زملاء المدرسة «ابن الجوقة» أو«سورين الجوارب». كان دائماً «منعزلاً»، ولم تربطه أي صداقة مع أحد من زملائه. وجلبت له عباراته الذكية الساخرة الضربات، كما ستجلب عليه فيما بعد هجوم النقاد[1].

لم يكن يملك أي لعبة في منزله. وحين كان يطلب الخروج من المنزل كان طلبه يقابَل بالرفض. إلا أن والده كان يصحبه، كنوع من التعويض، في نزهات خيالية داخل غرفته، فيمران معًا، في بساطة،

(1) هذه الوقائع رواها كاتب السيرة السويدي جوهانز هولنبيرج في كتابه «سورين كيركيجارد». ألبان ميشيل. 1956.

فوق باركيه الأرضيّة، وفي كل الاتجاهات، وكأنها شوارع المدينة. جعلت قدرات الوالد الذهنية الوهم قوياً ، لقد سرقوا طفولته! أو كما كتب كيركيجارد: «لقد أعطوني زيّ رجل عجوز. كان موقفاً رهيباً!». ومع ذلك يتذكره الجميع كطفل مبتسم. أو الضاحك الباكي مثل أيقونة المسرح الشهيرة، وسط هذا الجو الغثّ، الذي لا يكاد يخففه سوى حنان الأم والأخوات، تعلم مع ذلك أن يحب أباه الذي طالما عانى منه.

كانت تسيطر على أبيه ميشيل بيدرسون فكرة الخطيئة؛ فيوماً ما، حين كان طفلاً، يرعى الخراف في حقول جوتلاند، شعر باليأس والتعب فأنكر وجود الرب الذي لم يساعده. منذ ذلك الحين وهو يظن، كما فعل اليهودي الذي سبّ المسيح وحكم عليه بالشتات الأبدي، أن الرب سينزل عليه عقاباً رهيباً. حتى حين أصبح في ما بعد تاجراً ثرياً، بدت له ثروته كنوع من الاختبار المشؤوم. وحين وقعت لابنه حادثة وهو في الثانية عشرة، في حين أن سورين كان قد مني بستة حوادث غيرها، اعتقد الأب أن لحظة سداد الدين للرب قد حانت، وأنه يتعيّن عليه، وفقاً لعقيدة متزمّتة، أن يضحّي بآخر أبنائه كما فعل إبراهيم مع إسحق. وقاده يقينه المنحرف ليرى كل ورثته يموتون قبل بلوغ سن السيد المسيح، فقبل سن الواحد والعشرين كان كيركيجارد قد دفن خمسة من إخوته بالإضافة إلى أمه. أما أبوه المخطئ العجوز فبدا أنه محكوم عليه بكفّارة طويلة الأجل. مات في عمر الثانية والثمانين قبل أن ينشر سورين بعد ذلك اليوم بشهرين كتابه الأول: أوراق إنسان لا يزال على قيد الحياة. إن كلام الأب دفع بالابن وهو في الرابعة والثلاثين لأن يذهب إلى مسجّل المواليد في الكنيسة ويسأله عن تاريخ انتهاء الصلاحية للحمل المُثقِل على حياته.

تلك الكفارة تجاه الرب لم تكن المصدر الوحيد لتأثيم الرجل العجوز. ففي عام 1835 تقريباً، وفي لحظة سُكر، اعترف لولده بسر رهيب جعل هذا الأخير يشعر بـ «زلزلة عنيفة فرضت عليه قانوناً جديداً للتأويل المؤكّد لكل ظواهر الحياة». ترى هل اعترف أن لديه ابناً من خالة شابة حين كان في عمر العشرين؟ هل تزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجته الأولى التي لم يبق له منها أجيال ترثه؟ أم تزوج من الخادمة الشابة بعد أن ابتزّته؟

المؤكد في الحقيقة هو أن الطفل الأول للزوجين ولد بعد خمسة أشهر فقط من الزواج. ربما يكمن هنا، مع افتراضية الاغتصاب، سر الأصل، والسبب الذي دفع بكيركيجارد «ابن الخادمة» إلى عدم الحديث عن أمه أبداً. نذكر ما كتبه سورين: «إن التفسير الذي أخفيه في أعماق نفسي، هو ما يرعبني» جعل هذا الاعتراف من الابن دائماً وأبداً موضعاً لخطايا الأب. والمُضحّي في ذات الوقت.

ربما يكمن في هذا الاتفاق السري بين الأب والابن، حيث بات كل منهما مرآة الآخر، سِرّ غموض علاقته بريجين[1]. «إذا كان لا بُدّ وأن أفتر نفسي، فلربما عدت إلى أشياء رهيبة، مثل علاقتي بأبي وحزنه والليل الأبدي الذي يكمن في داخله. وانشغالاتي، ورغباتي وشطحاتي».

ترى أهي مصادفة! لقد كان كيركيجارد متعجِّلاً للفجور بعد لحظة الاعتراف العظيمة. ففي إحدى الليالي ترك أصدقاءه يجرّونه إلى جلسة

(1) وفقاً لتأكيد دافيد بريزيس في كتابه كيركيجارد أو الذاتية في المرآة، حيث حلل تلك العلاقة المحاكية التي تربط بين الأب والابن. وهنا نشير إلى الكتاب الثاني للكاتب نفسه كيركيجارد والنسوية. Cerf، 2001.

سكر عند إحدى العاهرات. والمأساة هنا تكمن في أن الأشياء التي يجب أن تُنسى سريعاً، هي التي تعود في صياغة أخرى بعد سنوات. وأحياناً يجعل الفيلسوف نفسه جزءاً من المشهد: «لقد أراد أن يتزوج، وحينها استيقظ القلق من إمكانية أن يصير أباً، أي من احتمالية أن يكون له في مكان ما من العالم كائن يدين له بالحياة، أي بعذاب الليل والنهار». وهو عائق آخر أمام زواجه[1]، كما أقنع نفسه.

جرّب كيركيجارد تعطش الرغبة المؤرق، والذي يقلق الفكر. «وكيف لا يشعر بالإحباط الرهيب "أن يسبر أغوار بحر الملذات اللانهائي"». وشعر أنه أسير فخ «القدرة التي لا تقاوَم التي تجعل تشابك أيد مع أيد تولّد متعة بعد الأخرى. أي هذا النوع من الحماسة المغشوشة القادرة على إنتاج الملل، والتمزّق»[2]. طريق الهلاك ذلك لم يخلق لأجله، بلا أدنى شك!

زقاق الرغبة

يستعرض كيركيجارد في كتاب البديل الذي نُشر في عام 1943، ثم في كتاب خطوات على طريق الحياة، عام 1945، المراحل المختلفة التي تمر بها الحياة، وتمثّل درجات نحو الحب الأسمى. تنقسم إلى جمالية، وعقائدية ودينية، وهي ذاتها المراحل الكبرى التي حددها القديس أوغسطين للارتقاء الإنساني. تتكوّن الحياة من ثلاثة إمكانات وملايين التوافقات.

وإذا كان سورين الطفل يقطع باركيه الأرضية مشياً لمقابلة المارة في

---

(1) Papirer IV A.

(2) Journal, op. cit., I.

نزهاته الوهمية داخل غرفته، فإن كيركيجارد كان يقطع آلاف الأميال هو وأسماؤه المستعارة وأوراقه بغرض الغواية والتلاعب والزواج من الفتيات الشابات الافتراضيات في تجريب للفضاءات المختلفة للحياة. أو بكلمات أخرى «كان يمثّل». إنه في المنطقة الجمالية إذن، حيث الرجل يبحث عن التمتع والبهجة في رغبة عابرة وغير مشبعة بالمرّة. لم يجد «دونجوان» السعادة أبداً، وهوصاحب «الألف وثلاث» عشيقات. وكان يعرف في أعماقه، وفي لحظات قلقه أن النشوة الأبديّة لا تزال متعذّرة. فهي تشبه «تلك الأمواج البيض على صفحة المياه وتشكّل الفضاء للّحظة وتصنع شكلاً موجزاً: كشخص من دون شخصية ولا يفعل سوى أن يُزهر الحياة»[1]. على الأقل سيستمع إلى سيمفونية لموزارت!

آه... موزارت، لقد قال عنه إن معزوفة «دونجوان» التي عزفها في أوبرا كوبنهاجن عام 1835، هي التي قذفت به إلى «محيط الخطيئة». وفي حالته، فهو محيط بحجم وعاء. «إن هذا العمل هو ما ألقى بي خارج ليل الكنيسة الهادئ[2]». لقد اكتشف في نفسه «إيروتيكيّة

(1) OC I, p. 85.

(2) اليوميات، الجزء الأول، دار جاليمار Gallimard، 1963، ص. 99: «استمعوا إلى دون جوان... استمعوا إلى بداية حياته كالبرق المغطى بسحب عاصفة قاتمة، التي تنبعث من أعماق الجدّية، وأسرع من البرق وأكثر نزويّة منه، ومع ذلك فهي أكيدة بلا شك. أنصتوا لها وهي تتسارع فوق تنويعات الحياة وتضرب على متاريسها الراسخة. استمعوا إلى تلك التنويعات الرقيقة من عزف الكمان إلى المعزوفات الراقصة، إلى نداء البهجة والمتعة والحبور، والسهولة الطقسيّة للتمتع؛ استمعوا إلى انطلاقته الجامحة التي يتجاوز فيها نفسه، أكثر سرعة دائماً، ولا يقاوم. إلى شهوة العشق الوثّابة، وإلى همهمات الحب، ووشوشات المحاولات، ودوامات الغواية، وهدوء اللحظة. استمعوا، استمعوا، استمعوا إلى دونجوان موزارت».

استثنائية»، وهو الذي نشأ في جو يدعو لاحتقار الجسد. يا لعبارته المُضحِكة، فأي فتاة مراهقة في أيامنا هذه تعرف عن الجنس أكثر بكثير مما كان يعرف هو عنه. كان ملعوناً بالحسيّة، وعاجزاً عن ترك العنان لها. كان كيركيجارد خاضعاً للمراقبة الذاتية طوال الوقت، وكان ضد انتصاباته. لا نعرف عنه أي مغامرات عاطفية بعد مغامرات بضعة أشهر قضاها في شبابه.

ولكنه أكّدها: الجنس في حد ذاته ليس مُداناً! «فالإنسان وحده كفرد يكتشف أن له جنسانية تكمن في المكان الذي تتوالد منه الحيوانات»، وإذا أخذها في الاعتبار فذلك لأن لها علاقة بالفكر. وكي يحكم على الجنسانيّة، فإنه في مفهوم القلق فيجيليو أوفنيانسيس لم يجد ما يدعو إليه القرّاء سوى دعوته «اذهبوا وانظروا لأنفسكم». بينما تحسّر في كتابه «المرض حتى الموت» على أن الانسان غالباً ما يفضِّل أن يسكن الحسيّ، الذي يمثّله كيركيجارد بالبدروم في البناية، أكثر مما يفضِّل أن يسكن الدور الأعلى الذي يعد دور السيّد بينما لدينا البناية بأكملها.

كيركيجارد لا يجهل أن الحب الحسيّ ليس إلّا «فقدان وعي في الزمن» مثله كمثل موسيقى «ليس لها من وجود إلا لحظة عزفها»[1]. وهكذا فإن المجال الجمالي يحكم على من يضلّ فيه بالمرور عبر زقاق، أو مهرب مميت. والإنسان الذي يبقى فيه سيهلك أثناء بحثه عن المتعة الوقتيّة. إذ تقبع الكآبة واليأس خلف سكر الحياة اللاهية. فتنساب آلاف اللحظات الحزينة.

ويخفي الإنسان اللاهي شقاءه وراء نَزَق ظاهريّ، حيث منظوره

---

(1) Ou bien... ou bien, « Les stades immédiats de l'éros ».

الوحيد هو التخلص من الملل، أو «الشعور الأبدي الخالي من المتعة». قال بطل رواية البديل «حياتي بلا معنى» وأضاف «تلك الحياة هي العالم معكوساً، حياة قاسية وغير محتملة... أحيانا نقول: الوقت يمر، والحياة تتدفق. ولكني لا أرى ذلك. بل يبقى الوقت ساكناً. وأنا كذلك، كل خطط المستقبل التي أرتّبها ترتدّ إليَّ؛ وحين أرغب أن أبصق، فأنا أبصق في وجهي»[1]. والإنسان الذي يهتم بالجانب الجمالي لا يستطيع أن يحِب ولا أن يحَب في نهاية الأمر. حيث لا يحدث أحدهما من دون الآخر. فحب الذات كان عند كيركيجارد هو أساس كل حب. والإنسان الخاضع لكل رغباته، لن يتمتع بأي منها[2].

باختصار، إن القلق هو ما يجعلك تحتضر وتموت كل يوم، ليس بالمعنى العادي للكلمة، ولكن بمعنى أن «الحياة تفقد حقيقتها في عينيك»[3]. ألا يصف كيركيجارد بتلك الكلمات مشاعر عدم التحقق التي تعتري الرجال والنساء من أنصار مذهب المتعة الزائف في مجتمعاتنا؟ «فنحن نعيب على حياة الرهبنة، ومع ذلك، من السخرية أن أي راهب لا يعيش حياة غير واقعية كما يفعل البشر في حاضرنا».

إن الإنسان المشغول بالجانب الجمالي لا بُدّ وأن يختار: إما أن يبقى خاضعاً لـ «شيطان» الرغبة، أو أن يمارس حريته ليغير نمط حياته ويستمر في القفز نحو نمط آخر. وموقف الشباب معروف، يقعون في الغرام ويتساءلون حول إمكانية إقامة حياة لاثنين.

---

(1) OC III, "Dispsalmata", p. 23 et 25.

(2) OC III, p. 28 : «الغالبية تركض وراء المتعة، ولا ينتبهوا لها في غَمْرَة تَلَهّفهم».

(3) OC IV, p. 177.

إذا كان الصعيد الجمالي هو «ما يكون فيه الإنسان على ما هو عليه»، وهي مرحلة أساسية مع ذلك كي لا يظل المرء حيواناً. وإذا كانت مشاعر ذلك الصعيد ترتبط بإيروس فإن الصعيد العقائدي على العكس هو الذي «يصبح فيه الإنسان ما سيصير عليه». فالرجل العقائدي ذو الإرادة الحرة لأداء واجبه هو رجل الارتباط. والزواج، هو تلك المؤسسة التي تُعَدّ اللبنة الصلبة للحياة في داخل المجتمع المشترك، وفي «الزمن الممتد». فهنا في «الجانب الجادّ للحياة» لا تنتفي الحرارة والجمال والإيروتيكية. وكما يقول كيركيجارد «من استطاع إنجاح زواج، هومن عرف، بشكل شاعري، حل الغرائبية الكبرى للحياة في الأبدية وهو يسمع دقات البندول[1]». وهو يربط المستمتع بالواقع، بعيداً عن أن يكون حبلاً في رقبته يخنقه. فالحب الزواجي لا يتبدد مع الوقت، كما يؤكد القاضي ويلم الذي يرمز للرجل المسؤول. بل على العكس، إنه يتعمّق مع تحوّل لحظة الحب الأولى إلى قرار. المشكلة الحقيقية للحب هي أنه كي يستمر يمر بحرب دائمة، وأن كل لحظة تمر تعدّ تحدياً. أي أن «تنصبّ المهمة الأساسية على الحفاظ على الحب مع مرور الوقت، وإذا كان ذلك مستحيلاً، إذن فالحب أيضاً يعدّ نوعاً من المستحيل» كما أكد كيركيجارد[2]. هل يحل الزواج تلك المعضلة العاطفيّة؟ وفقاً لكاتب الكلمات[3] ستكون «الرحلة الأكثر إثارة التي

---

(1) OC IV, p. 124

(2) OC XIV, p. 127.

(3) « Divers propos sur le mariage », Stades sur le chemin de la vie, OC IX. كما ذُكر في البديل من قبل «يقود الحب الزواجي معركته عبر الزمن، وينتصر عبر الزمنَ، وتتحقق بركته عبر الزمن».

يمكن القيام بها في الحياة». ومن «يترك لنفسه العنان فيها» هو الرجل الحقيقي. فالحب هو «مادة الزواج»[1] والزواج السعيد هو ذروة الحب. كان الكوخ وأوراق الشجر المصنوع منها بالنسبة لدونجوان، والسماء الفجريّة ونجومها بالنسبة للفارس. أما سماء الحب فأكثر رفعة من كل ذلك. في الجزء الثاني من كتاب خطوات على طريق الحياة، كانت تلك المحاكاة الساخرة لـ مأدبة أفلاطون التي تعطي لمحة عن السعادة الزوجية من خلال المدعوّين المذهولين في المشهد الريفيّ للزوجين وهما يحتسيان الشاي وسط بهجتهما المنزليّة.

ولكن كليماكوس Climacus قد نبّه مع ذلك في منمنمات فلسفية أنه «تبقى بعض الصعوبات» المتعلقة بالزواج. نعرف أن روتين الحياة الزوجية قد يتحوّل سريعاً إلى ركود مريع. ولكن إذا كانت العلاقة الزوجية لا تلبّي كل طموحاتنا، فمن غير المجدي أن نعزو ذلك إلى الرب أو إلى المسيحية أو إلى طقوس العرس، «بل إلى خطأ الإنسان وحده»[2]، وفيما يسمح الزمن بتعميق المعرفة بالآخر، لا نرى نحن فيه سوى عامل من عوامل التعرية المتسارعة للحب.

هجوم على الزواج البورجوازي

إن أكثر ما يدينه الفيلسوف هم البورجوازيين المتصنّعين الزائفين الذين يتطلعون أكثر فأكثر إلى الراحة ذات الكلفة الضئيلة، ونفاق المؤسسة الكنسية التي تضيّع رسالة المسيح. حارب كيركيجارد في المرحلة المتأخرة من حياته المؤسسة الكنسية الرسمية بكل المشتغلين

(1) L'Alternative, "La valeur esthétique du mariage", OC IV.
(2) OC IV, p. 115.

فيها والذين ينشرون مسيحية مزيَّنة على نحو لم تعد معه سوى «موسيقى مصاحبة لطقوس الزواج والتعميد». وندّد بالزواج الذي أصبح وسيلة مباركة لاتحاد لا يبحث إلا عن إخفاء اندفاعه الجنسي.

هناك نغمة نشاز في المقطوعة الموسيقية وعند تمثال الزوجَين من الحلوى[1]. الزواج لا يمثّل الحب بالضبط. «ولهذا السبب نسمع أن الاثنين أصبحا جسداً واحداً، وليس روحاً واحدة». فالحب والزواج ليسا في نهاية الأمر سوى «تقسيم حب الذات إلى اثنين ليصيرا كيانين أنانيين». واعتبر أن عصرنا يفقد شيئاً فشيئاً العنصر النهائي الذي لا ينفصل عن الفلسفة الأخلاقية، وعند أصحاب الطبقة العليا لن نجد الكثير من النماذج التي تعتبر الزواج بلا أطفال زواجاً مثالياً».

إن رفضه للزواج يُعَدّ جانب الروك آند رول في شخصية كيركيجارد. كان يكافح ضد النظام القائم ويزدري القناعات الموروثة ويطلق شراسته ضد المؤسسة، وضد الجامعيين الذين يشبّههم بكلاب صغيرة تتبع هيجل الممنهج، والثياب الطويلة للكنيسة. كان أكثر تمرداً من أن يقبل «الغرق المشترك»، كما أنه متولّه بالمطلق لدرجة أنه لا يستطيع ان يمتثل لحياة غير المثقفين، الذين يرون جدية الحياة تتمثل في الغرق في الأريكة وتنظيف الأسنان وفي أن يصبح شيئاً ما: ذو هيبة كبيرة على سبيل المثال.

كما أعجب بـ«الأزواج المطلّقين» الذين يمتلكون الشجاعة ليكونوا على ما هم عليه. «فهم يضعون أنفسهم في حالة تمرّد مفتوح» ضد الحياة الزواجيّة القائمة على المصلحة والزيف الأخلاقي أكثر

---

(1) تمثال صغير يُصنع من السكّر الملوّن ويوضع على قالب التورتة. المترجمة.

مما هي على الحب المشترك. بينما استخدم أكثر الكلمات قسوة في وصف الأزواج الكسالى، خائني الحب الذي يتمسّكون بمنزلهم بكل رخاوة! «هؤلاء الذين يتمردون في أفكارهم فقط من دون أن يتجرأوا على الانتقال نحو الفعل إزاء أزواجهم البائسين الذين يتنهّدون منذ وقت طويل بعد أن مضى الحب، ويعيشون مغلِقين كلٌّ على نفسه مثل معتوهين داخل زنزانة الزواج. يتشبثون بالقضبان الحديد ويثرثرون حول مرارة ارتباطهم»[1].

وكما قال كليمو: «أن تتزوج لا يعني أن تتزوج بل يعني شيئاً أفضل من ذلك». وقد لاحظ سورين أن لوثر كان محقّاً حين قرر أن يتزوج «ليطالب بالحقوق الموقتة ولكن قد يكون من المفيد في أيامنا هذه أن يتفادى المرء الزواج».

وقد لاحظ كليموكوس الشيء نفسه حول زواج هيجل، العدو اللدود لكيركيجارد، «إنه القدر الموضوعي والواجب الأخلاقي أن تدخل في حالة الزواج»، كما أكد كاتب أصول فلسفة الحق. أما بالنسبة لكيركيجارد فهو وضع غير مقبول: فنحن لا نفسر الحب، كما لا يفسر المسيحي إيمانه. هراء أن نجد مكاناً للعاطفة وسط سيادة النظام. كما لو كنا نستطيع «معرفة الحب» وترتيب ملفّه على الرف بعد أن نرقّمه! ولكن علينا أن نعترف بشجاعة هيجل لأنه خاطر بالدخول في علاقة زواج، ساهراً على ابنه الذي حظي به من صاحبته.

---

(1) OC IV.

مع هذا، فقد حاول كيركيجارد أيضاً أن «يدخل القوقعة» عن الطريق العقائدي. «إني أقوم بكل ما يتعين عليّ لأستعد لدور الزوج. قيّدت نفسي، وتخلصت من كل ما هو غير لائق كي أختزل نفسي في المقاس العام. فكل صباح، أقتلع كل ما في نفسي من نفاد صبر ومجهود لا نهائي؛ ولكنه جهد ضائع، إذ يعود كل شيء كما كان في اللحظة التالية». ثم يؤكد «ستقتلني العقيدة[1]»، «فحياتي الروحية ودور الزوج هما كيانان لا يتصالحان[2]». «لقد جعلتني ريجين أتلوّى مع كل رغبة من رغباتها، وأقضي النهار وأنا أسلّيها، إذا كان مسموحاً لي، وأن أسعد بذلك. ولكنني لم أقبل أن يسلب مني فكري وأفكاري اللذان أودعتهما حياتي لأن ذلك يعني موتي الروحي[3]». يبدو أنه يقصد روحه العليا التي لا ترى أيّ توافق ممكن بين مملكة الأفكار من جانب وعالم الحياة الملموسة من جانب آخر. أن يكون إنساناً عادياً مثل صورة القاضي ويلم لهو أمر بعيد بالنسبة لإنسان يرى في نفسه كياناً ذا قَدَر استثنائي.

بعد أن تحقق من «هُوّة سوء التفاهم» التي سببت انفصاله عن الفتاة الشابة، التي تصغره بأحد عشر عاماً، شعر أنه «يقف على ارتفاع سبعين ألف باع[4] من الأعماق». هل يصطحبها معه في اكتشافه المجنون لللانهاية؟ هل اعتقد أنها غير قادرة على ذلك، على الأقل ليس بعد،

---

(1) خطاب رقم 68 لإميل بواسون في 6 فبراير 1842، ص 169 - 170 من مراسلات. و«أصول فلسفة الحق» هو أحد كتب هيغل.

(2) خطاب رقم 62 في 16 يناير 1842 لإميل بويسن، ص 157.

(3) Journal, op. cit., I, p 204.

(4) قياس بحري يختلف طوله باختلاف البلدان ولكنه يزاوح بين متر ونصف ومترين. (المترجمة).

كما قال في كتابه مذنب؟ أم غير مذنب؟، ينبغي أولاً أن «تجد السلام» في الوقت الحالي، قبل أن تستطيع تحمّل عبء جديد. إنه اهتمام مشرّف بلا شك، لولا أنها أظهرت كثيرًا من القسوة.

شعر أنه مَدين بالكثير إزاء ضحيته المسكينة. فلقاؤها قَلَبَ حياته. ولكن ذهنه المرعوب جعله يعتقد أنه كي يحبها «بشكل مطلق»، وكي يحتفل بعرسهما ، فلا بُدّ وأن يكرس نفسه للرب، أي للحب نفسه. إذا كان مستحيلاً بالنسبة له أن يرضى بعقد محدّد المدّة، أى مدّة الحياة. إن «تماس الأرواح» الذي يجول حول الارتباطات الإنسانية، وسعادة القاضي ويلم، تختفي عندما يفكر إنه في يوم ما «سيوقف زواجه بالموت». ولكن ما الذي نتذكره من ذلك كله في الخلود؟ «آه... ما نذكره ليس أننا أحببنا المرأة الأجمل في الدنيا ولا أننا عشنا سعداء مع الزوجة الأكثر لطفاً في الحياة، ولكن أننا عانينا كثيراً من أجل الحقيقة». ففي عصر يعيش بالمهدئات والمسكّنات لكل آلام الجسد والروح، هل هناك إنسان لا يزال يفكر بهذه الطريقة؟

إنه انهيار البعد العقائدي، كما فسّره كيركيجارد. أن يبحث دائماً عن ضمانة لتصرّفاته في المعيار العام. والخطر يكمن في نهاية الأمر في أن ينسى المرء كونه فرداً فريداً وينطلق في سلوكيات القطيع، ذلك هو المنحدر الطبيعي للإنسان. لكن هناك مواقف استثنائية لا تجد حلولًا لها في القانون العام وتتطلب «تعليقاً نهائياً لما هو عقائدي» والنظر إلى إبراهيم الذي تحوّل الحب معه إلى فضيحة تامة. بفعل حماسته التي أطاحت بكل الأطر[1] وفقاً لكليموكوس[2].

---

(1) من يحب الحب؟ اللانهائية. من يكره الحب؟ الحدود. «كيركيجارد في يوميات مغوٍ».

(2) OC X, p. 213.

لن يكون الصعيد العقائدي إلا «انتقالياً» هو الآخر كما قال فريتز تاسيتورنوس[1]. فبالنسبة لكيركيجارد، الصعيد الديني وحده هو الذي يتطلب تفرّغاً أبدياً وهو الذي يقودنا نحوالإيمان، ويعطي الحب الوسائل التي تمكّنه من التحقق في الخلود. «إن ما يتحقق بالحب ليس معنوياً وإنما دينياً» كما قال نيتشه. «وكي نحب إنساناً فلا بُدّ أن نحبه الحب الإلهي». ولكن هذا القسم يتعرض للكثير من المعاناة والمتطلبات «مما يجعل الإنسان الحساس يعتقد أنه قد يلاقي سَكينة النفس إذا أحال هذه العلاقة إلى الأبدية[2]».

لهذا السبب يعدّ ابراهيم «أعظم البشر». فهو ليس بطلاً تراجيدياً مثل أجاممنون الذي ضحّى لمسايرة أخلاقيات المدينة، بل هو في علاقة مطلقة مع المطلق. فمع قبوله بأن يمنح ابنه الحبيب إلى الرب، يعتدي على قانون البشر الذي يدين الوأد. ولكن البطريرك جعله يصعد الجبل بإيمان لا يتزعزع. «قيّد روحه، وسار ببطء على الطريق كما ذكر في خوف ورعدة. لم يتخلّ عن إيمانه طوال هذا الوقت، فكان يعتقد أن الرب لا يريد أن يطلب منه إسحاق، ومع ذلك كان مستعداً للتضحية به إذا توجّب ذلك». لقد اعتقد بـ«فضيلة العبث». ولأنه أطاع رغم

(1) كيركيجارد، مذنب؟ أم غير مذنب؟
(2) أعمال عن الحب، ماذا يربط الزمني بالأبدي، ماذا غير الحب، الذي يوجد قبل كل شيء ويبقى بعد رحيل كل شيء؟ وهذا تحديداً لأن الحب يكون بذلك رباطاً مع الأبدية وتحديداً لأن الزمانية والأبدية متغايرتان، حتى إن الحب قد يبدو عبثاً على الحكمة الأرضية المقترنة بالزمانية، وفي الزمانية على حسب ما يبدو للكائن الحساس، لهو عزاء هائل أن يرفض هذا الرباط مع الأبدية ليكون رباطاً مع الذات».

تمزقه كأبٍ، أعاد له الرب إسحق، ابن الوعد. تلك هي دلالة «البروفة» الكيركيجارديّة، لحظة إعادة امتلاك الهبة، التي تكشف لمن يستسلم للتجربة معنى جديداً عن ذاته وعن العالم وعن الآخر.

متتبعاً مثال إبراهيم، ضحَّى سورين بريجين. إنه اتفاق مجنون ذلك الذي أبرمه الشاب مع الرب، قفزة في العبث: أن يموت من أجل هذا العالم مضحّياً بحبه الوحيد. أن يموت في الحياة كي يولد من جديد، ويختار الرب كأب له. كان إبراهيم وإسحق في الوقت ذاته. كان الكاهن والضحيّة. ألم يكن هو الابن الحبيب المقدَّر له التكفير عن خطايا والده؟ وكان متأكدًا من تلك التضحية الإرادوية، المتعلقة بريجين، من دون أن يفهمها. «إن الشقاء، كما كتب هو في منمنمات فلسفية، لا يعني أن العشاق لايستطيعون أن يتّحدوا بل يعني ألّا يستطيعون التفاهم».

كان ينبغي إذن أن يقتلع نفسه منها، ويشطب أحد مباهج الحياة الأرضية. «كان فسخ خطوبتنا بمثابة خطوبة جديدة مع الرب، إذا تجرّأت على القول»، كما لخّص في اليوميات. وتلك العلاقة مع الرب أصبحت «حب حياته السعيد مع بعض الجوانب التعيسة والمؤلمة[1]». وإذا كان الاختيار، كما رأينا، هو «جدّيّة الحياة[2]»، اختيار الرب، «فهو الاختيار الأسمى[3]». هنا المحنة تعلن التحدي حتى إن كيركيجارد يمكنه أن يقول: «إن الحب التعيس هو أرقى أنواع الحب[4]».

---

(1) Point de vue non scientifique sur mon œuvre d'écrivain, OC XVI.

(2) Discours édifiant à divers points de vue, OC XIII.

(3) Discours chrétiens, OC XV.

(4) Journal, op. cit., II.

انطلاقاً من هذا المستوى، فما نفقده يستعيد معنى آخر وقيمة أخرى. أكد كيركيجارد في المرض حتى الموت: «أنا لست متصلّباً أخلاقياً، ولا متحمساً للحرية الشكليّة والمجرّدة؛ فما إن يتحدد الاختيار، حتى يظهر الجمال من جديد، وسوف تراه. ساعتها فقط تصبح الحياة جميلة». وفي «المسوّدات»[1] يشرح معاون القاضي كيف أن الحب هبة من الذات: «وحده من يفقد كل شيء، هوالذي يجني كل شيء». كما ذكر فنلون أن «صدّقوا الحب: فهو يأخذ كل شيء ويمنح كل شيء». وبهذا يكون الحب بهجة مستمرة «خاصة إذا كان تضحية كاملة». إنه تحدٍّ شاقّ على العقل خاصة، إنه «خارج حدود سيطرته». مع نوبات العاطفة المفاجئة، يأتي حب الذات بإسقاط مكتسباته على الآخر. وفي الحب، تكون الأنانية بمثابة سجن، كما يقول كليماكو. لكن هذا الحب مثله مثل المسيحية، هل يمكن أن يُعاش فقط؟ صحيح أنه إذا كان العشاق «طيوراً نادرة»، فالمسيحي «هو أيضاً أكثر ندرة من روميو وجولييت».

اعترف كيركيجارد بنفسه أنه لم يكن «فارس الإيمان»، ذلك النموذج المثالي، في خوف ورعدة، ولكنه «فارس الإذعان الأبدي». «ففارس الإيمان» تزوج وأدّى واجبه المجتمعي في احترام المعايير الاجتماعية، وهو يعلم أنه «يوجد أعلى هذا المجال الأفعواني طريق وحيد ضيق ومتعرّج». وهو ما يعني كذلك أن الطريق الديني لا يلغي الجمالي أو العقائدي. بل على العكس، يحقق التكامل بين أفضل ما فيهم جميعاً. «إن فارس الإيمان لهو إنسان سعيد حقاً ويمتلك النهاية

---

(1) L'Alternative, OC IV.

كاملة». وهكذا فإن حب الإنسانية عموماً لا يعني ألا تكون له تفضيلاته الصغيرة. فقد دعا كيركيجارد إلى: «علينا ألا نكون روحانيين للغاية!». وكل حب، بما في ذلك الحب الديني، لا بُدّ وأن يحتفي «بما تتضمنه الحسّيّة من متعة وشبع». ها نحن قد هدأنا قليلاً!

أما أعمال الحب فكانت واضحة جداً في هذا الصدد: «في عصور أخرى كان الإنسان يبحث فيها جدياً عن فهم المسيحية ومزجها بالحياة، اعتقدنا أنها كانت ضد الحب القائم على الغريزة، وأنها، وهي تؤسس لخطاب بين الجسد والروح، وجّهت كراهيتها نحو هذا الحب الإنساني باعتباره حباً ملطّخاً بالحسّيّة. ولكن ذلك كان بدافع من احتقار للروحانية المفرطة. فمن اليسير إظهار أن المسيحية من التعقّل بما يكفي لئلا تسخط على الحواس وألا تجعلها تتمرّد على الإنسان نفسه؛ تماماً كما تفعل حين لا تمنع عنه الأكل أو الشرب، فلا يمكن أن تكره غريزة لم يمنحها الإنسان لنفسه».

كما أفضى سورين في اليوميات بالعبارة التالية: «إذا كنتُ مؤمناً، لما كنت تركت ريجين». ثم أضاف في خوف ورعدة: «ربما لو استطاع الكائن المائي أن يصدّق إيمانه، لربما حوّله هذا الإيمان إلى انسان». إنه اعتراف مرعب ومؤثر من كيركيجارد الذي عاش كمسيحي ناقص جداً ليكون له الحق في السعادة. إذا كان إيمانه حقيقياً لامتلك كل شيء. «لم يفقد ابراهيم إسحق بسبب الإيمان، بل على العكس: لقد استعاده بسبب الإيمان».

وتخيل للحظة أن ريجين يمكن أن تعود إليه هي الأخرى. نلمس ذلك من خلال كتابه الصغير والرائع «البروفة». إذ نرى فيه البطل يواجه عودة علاقته مع حبيبته. فقط عند التحرير النهائي للكتاب قرأ

كيركيجارد في الجريدة خبر خطوبتها من فريدريك شليجل، الولد الذي تركته من قبل من أجل كيركيجارد. وكانت نتيجة «تلك الصاعقة الرعدية» تمزيق خمس صفحات من المسودة، ووضع نهاية جديدة على شكل ذيل سمكة. فالشاب الذي مات في النسخة الأصلية، بُعث في النسخة النهائية. «ها أنا عدت لذاتي من جديد» كما أعلن لنفسه بصوت عالٍ وقوي. وكأن المؤلف يحتاج أن ينهض بنفسه مثل ملاكم سقط على الحلبة.

لقد رغب في «الارتباط بها إيمانياً»، «في هذه الحالة، هو ليس ميتاً، بل متزوج وبصحة وعافية». تزوجت ريجين أولسن من «فريتز» في 3 نوفمبر 1847، بعد شهر تقريباً من نشر كتاب أعمال الحب المؤثر، والذي كان موجَّهاً لها.

هي ملكي إلى الأبد

في عام 1849 مات تيركل أولسن، مستشار الدولة ووالد ريجين. فحضر كيركيجارد القداس الذي حضّرته العائلة. كانت مناسبة ليتصل كيركيجارد بخطيبته السابقة من جديد. في يوم 19 نوفمبر 1849، أرسل بخطاب إلى شليجل مصحوباً بآخر إلى ريجين، خطاب ينبغي أن يعطيه لها زوجها إذا قبل الفكرة. في لباس وحش كتب كيركيجارد إلى غريمه يقول: «في هذه الحياة هي تنتمي لك، أما في التاريخ، وفي الأبدية، فهي تنتمي لي، وأرجو ألا يزعجك ذلك، ستحبني أنا أيضاً». وعادت له الرسالة من دون أن تُفضّ.

لم يستطع التحدث مباشرة مع ريجين، التي كانت تحت الحماية، لكنه أكمل، بهوس أكبر، توجيه حديثه لها من خلال اليوميات: «صحيح

أنني كنت قاسياً، وأفهم أنك عانيت بطريقة لا توصف، ولكنني عانيت أكثر كما أعتقد وكما أعرف؛ ومع ذلك فأنا أطلب منك العفو».

في 17 مارس 1855، سافرت ريجين وفريتز بسبب ظروف عمل زوجها، وتدهورت صحة سورين بشكل ملحوظ. كان وحيداً ومنهكاً من كثرة صراعاته مع نفسه، ومع الكنيسة، ومع الصحافة والصحافيين المقيتين، بل وضد أوروبا كلها في نهاية الأمر، إلى أن انهار وسقط وسط الشارع في يوم 28 سبتمبر من العام نفسه.

أُدخل إلى المستشفى بعد ذلك بأيام، ومات رافضاً تناول القربان الأخير. توفّي في 11 نوفمبر 1855 وهو في الثانية والأربعين من عمره. ولكن ماذا يعني الموت في نهاية الأمر، يعني كما شرح هو: «توقّف بسيط على الطريق، يحدث للمرء مرة واحدة».

وُجدت وصية في خزانة له، وكانت مخصَّصة لريجين. لربما كانت انتهت الحكاية المضحكة لو مرّ بعيادة طبيب نفسي!

دوّن في اليوميات بتاريخ 24 أغسطس 1849: «قالت إنها ستشكرني لو قضت معي بقية حياتها، ولو في الخزانة. لهذا صنعت الخزانة من دون رفوف». وفي الداخل كان كل ما يشير إليها «وكل ما يذكّره بها»، كان محفوظاً بعناية. ووُجد فيها كذلك نسختان من كل كتبه التي وقّعها بأسماء مستعارة «نسخة لي ونسخة لها»، إلى جانب رسالة «تخصّها» لا تُفضّ إلا بعد موته.

«إليها وإلى أبي أكرّس كل كتاباتي: إلى أستاذيَ، إلى الحكمة النبيلة لعجوز، وإلى اللامعقول الرقيق لامرأة»، «إلى الشخص غير المعروف الذي سيصبح ذات يوم معروفاً، إليها أهدي كل نشاطي الفكري، إلى

خطيبتي السابقة، مدام ريجين شليجل». كما كتب أيضاً: «وأنا ملزم في الخطوبة كما أنا في الزواج، لذلك فكل ما أملك سيذهب إليها كما لو كنّا متزوجَيْن».

ولأنها كانت متزوجة من رجل آخر فقد رفضت ريجين التركة، طلبت فقط أن تردّ إليها خطاباتها المرسلة إليه وبعض الأغراض التي تخصّها. ولكنها، وهي التي عاشت خمسين سنة، اعترفت في ما بعد أنها كانت دائماً تشعر بتلك العلاقة الاستثنائية التي جمعتهما في ما وراء الانفصال[1].

في اليوميات[2] كان سورين واعياً تماماً لعبقريته كما كان واعياً لأهمية «حبه البائس» لريجين، فقد صرّح: «هي من أحببتها، وحياتي أثّرت بلا شك على حياتها، ولهذا فإن نشاطي ككاتب يشبه الجبل المشيّد على شرفها ومجدها. وسأحمله معي في التاريخ. وأنا حزين ولا أملك سوى رغبة واحدة: أن أسحرها؛ وفي مكاني هذا، ليس ممنوعاً عليّ؛ فهنا أسير إلى جانبها كسيّد الحفل سأقتادها منتصراً وأقول: من فضلكم أفسحوا مكاناً لها، لريجين الغالية الرقيقة ولما بيننا». أما في الأبديّة «أتمنى أن يفهم كل منا الآخر وأن تسامحني هناك[3]».

في هذا العالم، لم يستطع كيركيجارد أن يصالح الأبديّ واليوميّ، بلا شك، لأنه كان صاحب طموح أعلى بكثير. ففيما يخص الحب، كان يشعر «بالخوف السرّي» من أن يختلط المثالي مع الواقعي. بات جلياً على أي حال، تعقيد كيركيجارد، الممانع الحقيقي لأي متعة تتعلق

---

(1) Regine Olsen, Kierkegaard, le Don Juan Chretien, Le Rocher, 1989.
(2) Carnet de Notes 15;24 Aout 1849.
(3) OC IX, p. 353.

باللحظة الراهنة، وهو ما استحال معه أن يصير زوجاً. كان كيركيجارد غير قابل للتصنيف. وكان من الأفضل له أن يصير قدّيساً وهو ما تمنى لريجين أن تكونه. ولم يكن أدورنوAdorno مخطئاً حين لام على كيركيجارد أنه يحب البشر كأنهم أمواتٌ[1].

ربما كان هذا الانفصال «غبياً» كما قالت عنه سيفيرين Severin ، إحدى شخصيات واحدة من أجمل الروايات الكيركيجارديّة للكاتب فانسنت دولوكروا بعنوان «ما هو ضائع»[2]. ومع هذا «قد يحدث أن ندمر أكثر من أحببناهم» حين نضع الحب في أعمالنا أكثر مما نضعه في حياتنا، حين ننقل تلك الخبرة الداخلية لمشاعر تحترق إلى شمس الأبدية، لقد ضحّى كيركيجارد أيضاً بطريقة ما من أجل قرّائه. وسواء كان تعيساً أم سعيداً، فقد كشف للإنسان حقيقة جوهره و«دفع به إلى الأمام دائماً». ما من شيء يمكن أن يصل لما هو أبعد أو أرقى من هذه المشاعر، والتي حالما تكون حقيقية تصبح لا محدودة، إذن فالمهمة تنصبّ على «الإبقاء على الحب».

يبدو غريباً جداً اختيار كيركيجارد في أيامنا هذه على الأقل. هل نستطيع تأمل تشخيصه للإنسان الغربي الذي يراقب بهلع التعلق المتزايد بالتملّك والأشياء المادية وبكل أنواع الأوهام الزائلة: «إن شقاء زمننا هو أن يتحوّل الإنسان، حصرياً، إلى«زمن»، فالزمانية في غمرة تعجّلها لا تريد أن تسمع شيئاً عن الأبدية... فأن نجعل الأبديّة

(1) Theodor Adorno, Kierkegaard. Construction de l'esthetique, 1933.
(2) Vincent Delecroix, Ce qui est perdu, Gallimard, 2006.
فيلسوف هوالآخر- متخصص في كيركيجارد وهومؤلف دراسة فكرية تحت عنوان «فلسفة فريدة» صدرت في Félin عام 2006.

مموّهه لن ينجح أبداً؛ «لأنه كلما تخيّلنا أن باستطاعتنا الخروج للأبدية، كلما كان احتياجنا العميق هو الأبدية».

وإذا قشّرنا قلب كازانوفا، سننتهي بأن نعثر على تلك النواة المتصلّبة المتمثلة في الرغبة بأن يصير محبوباً مع ضمان «الأبدية». إنه مطلب معكوس نلاحظه عند الآخر. فريجين لم تسمعه، و«مارس كيركيجارد الحب وحيداً». والأبدية تتطلب الصبر، تَذَكّر من ينتصب بفعل فشله كمثال.

كيركيجارد، هو الذي فرز كل أصحاب التاريخ الأدبي، والذين وزّعوا حزنهم وكآبتهم على كتبهم: «حيث يعلّمون الناس أن يشكّوا في الحياة ويتقزّزوا منها قبل أن يعيشوها، بدلاً من أن يعلموهم كيف يعيشونها». ولم يتذوّقه بالتأكيد كتّاب الرواية في عصره ممن لم يعرفوا أن ينقلوا للجمهور سوى حكايات شقائهم الجنسي.

في مواجهة اليأس المعاصر، أظهر لنا كيركيجارد على العكس طُرُقاً لكي نحيا، طرقاً يكون فيها «الحب الأبدي» حاضراً ويرجع إلينا أن نختار بأن نتصرف بحرّية.

ها هو الكائن البحريّ يغوص مرة أخيرة في قلب المحيط العميق مخلّفاً وراءه مساحة من الظل، وغرائبية أفكار قلبه وسِرّ حياته المقدس. من هنا يأتي الحب[1]؟ أين يكمن أصله ومصدره؛ ووطنه، من أين ينبع؟ أهو مكان سري، أم إنه يُعلّمُنَا إياه سراً. «ففي عمق داخلي، يوجد مكان تأتي منه حياة الحب؛ لأن الحياة تنبع من القلب».

كان كيركيجارد يصرخ: جرِّبوا الحب! فهو مركز الوجود، وهو ما يمنح الطبيعة الإنسانية «تناغماً لا يمحى بالكامل أبداً».

---

(1) Œuvres de l'amour, OC XIV.

مُدان أو غير مُدان؟ على طريقته القاسية، هوالذي كرس كل انتاجه الأدبي إلى «ريجينا»، التي لن تنساها الأجيال اللاحقة، والتي أخلص لها: «إليكِ، إلى الأبد».

- 8 -

فريدريك نيتشه

الحب بضربة المطرقة

«الحب، الحب الوحيد، هو حب كائن ما.
فلقد عرفت، في غياب هذا الحب،
فراغ السماوات الحقيقي، وطفو كل
ما كنت عازماً على الإمساك به فوق سطح البحر
الميت، وصحراء الزهور».

أندريه بروتون، الحب المجنون، 1937.

دون خوسيه: «نعم، سوف نبدأ حياة جديدة، بعيداً عن هنا، تحت سماوات أخرى!».

كارمن: «كلا، فأنا أعرف جيداً أنه قد حان الوقت، أعرف أنك ستقتلني، ولكن سواء كنت سأحيا أم سأموت، كلا، كلا، كلا، لن أستسلم لك أبداً!».

وماتت كارمن المُغوية والمتباهية بضربة من قبضة رجل مذهول. «وُلدت حرة، وماتت حرة!» لأن الحب طائر متمرّد، وطفل بوهيمي لم يخضع لقانون أبداً، وفقاً لهافانية[1]. وكما كتب فريدريك نيتشه في حالة فاجنر، الذي نشر في عام 1888: ««ها هو الحب أخيراً، عائد إلى الطبيعة!». كان نيتشه عاشقاً للموسيقى وكان يرى فيها «الفكرة الحقيقية للعالم»، حضر أوبرا بيزيه للمرة الأولى في 27 نوفمبر 1881 في مسرح باجانيني بمدينة جنوا. حضرها أربع مرات، وفي كل مرة كانت تنسال من عينيه الدموع. وفي هجائه لريتشارد فاجنر، احتفى نيتشه بأوبرا كارمن للفرنسي بيزيه، باعتبارها «نقيضاً ساخراً» للألم، والبلادة والتقوى المنحطّة للمقطوعات الألمانية لأستاذه القديم وعدوّه الحالي. إنه رد

(1) رقصة كوبيّة.

صادم على الرومانسيين وعلى عبثيّتهم الأخلاقية التي يلوكونها حتى الاختناق. إنها الترياق لسمّ فاجنر في مقطوعاته، فلا نجد مشاعر «الفتاة المثاليّة»! ولا أثر «للشاعرية المقدسة»! كما أضاف نيتشه في إشارة إلى بطلة شبح السفينة. بل على العكس، صرخات حادة لشعور وحشي وقاطع، مثل ساطور، لتراجيديا «تكفل من دون أخلاقيات مبالغة» الاحتفاء بإيروس «المغوي، واللّاهي، والشرير، والشيطاني الذي لا يقاوَم، «كما أحسّ به القدماء. الحب «القدري، الساخر والبريء، والقاسي». بالنسبة للفيلسوف، ترمز بوهيمية الزهرة والمروحة النسائية إلى الحرية الثابتة واللاأخلاقية المرحة، والقبول الإرادوي للقدر، والبطولة القابعة في عمق الفكر الذاتي. وتعد أوبرا كارمن لبيزيه، وفقاً لنيتشه، أفضل ما كُتب عن العاطفة منذ ستاندال وكتابه عن الحب.

وقد انحاز نيتشه لقدرة المشاعر الحقيقية على مواجهة أمثلة العاطفة التي قُدّمت في نسختها «المعيبة»، ومواجهة تلك العفّة التي يخنق بها الدين أعظم غرائز الإنسان، وتملّك المسيحية المُميت للحب. نعم، فالحب هو انبثاق للقوى، وحركة شاطحة قد تصل بالإنسان إلى حد الفناء و«شيطان مخيف» بحسب تعبير سوفوكليس Sophocle. حتى الرب جهّز الجحيم لأولئك الذين لم يحبّوه. فالحب يلتهم المحبّ ويتملّكه كلّيّة، ويهيمن بالروح والجسد على قلب ضحيّته، فيقضي عليه. نعم، المحب يحلم أحياناً، متقمّصاً شخصية مصّاص دماء، يحلم أن يمص دم المحبوب، وهو ينظر اليه بغيرة، منساباً في العروق تحت طبقة الجلد الرقيقة المكشوفة، وأن يشربه حتى آخر قطرة كي يحتفظ بالآخر الذي يحبه، ويكرهه لأنه أفلت منه، في داخله إلى الأبد. ويؤكد

نيتشه في إنساني مفرط في إنسانيته[1]: «كل حب عظيم يُوَلِّد الفكرة القاسية العنيفة المتعلقة بتدمير المحبوب كي يسرقه مرة واحدة في لعبة التغيير المدنّسة: لأن الحب يخشى التغيير أكثر مما يكره الدمار». كتب جورج باتاي George Bataille عن الجمال السّام في الدراسة الفكرية التي خصصها عن الفيلسوف: «هوس أم غضب الحب الذي يتملكني مُشرَع على الموت كما تُشرع النافذة على الحديقة[2]».

ونتذكر الصيحة النهائية لدون خوسيه فى ختام أوبرا كارمن: «نعم! أنا قتلتها، أنا قتلت معشوقتي كارمن!» هذا المقطع بالذات هو ما اختاره نيتشه ليدوِّنه بخط يده. لأنه في تلك العبارة تكمن روح الحب التراجيدية التي تشكّل جوهر العشق. بل وذهب إلى القول إن مفهوماً مماثلاً عن الحب هو «الوحيد الذي يليق بفيلسوف». كما ردد التعبير كلمة كلمة في كتابه هذا هو الإنسان حين سأل الأجيال اللاحقة التي ستقرأه: «هل جهزتم آذانكم لسماع تعريفي للحب؟ إنه الشيء الوحيد الذي يليق بفيلسوف. الحب ووسائله هي الحرب، ومبدأه هوالكراهية القاتلة للجنسين».

تُرى أيّ آذان منصتة ومتنبّهة يمكن أن تستقبل الرسالة النيتشوية القابلة دائماً للتأويلات المغلوطة كما كانت الحال دائماً، لا سيما في المجال السياسي، إذ لم يشوَّه إنتاج أدبي كما حدث معه. فهو يقتضي توتّراً جدليّاً دائماً لأنه لا يطرح نفسه بسهولة ويعبس في وجه القراءات المتشظّية والمنطلقة من افتراض سوء النيّة. ويضاف إلى ذلك أخته التي

(1) Humain trop humain II, §280,»Cruelle invention de l'amour».

(2) George Bataille, sur Nitzsche. Volonté de chance, in La Somme athéologique II, Œuvre completes VI, Gallimard, 1986.

زوّرت كتاباته اعتباراً من عام 1894 حين ترأست «أرشيف نيتشه»، لقد كانت «إوزّة معادية للسامية» كما وصفها الفيلسوف نفسه. ولم يتوان التاريخ عن إنتاج الكاريكاتورات الشنيعة لإضفاء النزعة النازيّة على مفكّر «إرادة القوة» و«الإنسان الخارق».

مثل هذه المعاني العكسيّة التي ترى فيه داعية للعدميّة في حين كان هو، على العكس، مراقباً حريصاً على تحذير معاصريه منها. ينبغي أن نحصّن أنفسنا من هذه الأخطار فقارئ كتاب زرادشت لا بُدّ أن يقبل بانقلاب جذري في وجهة النظر حتى يمكنه متابعة مفكك الأصنام في متاهة أفكاره الباهرة الضوء لدرجة أنها قد تعمي العيون، والمتنبئة بعالمنا المعاصر. تعد الأخلاق مرض الإنسانية بحسب قول نيتشه. فقد زيّفت بإضفاء سمة أخلاقية سامية على كل ما يخص المجال النفسي. يتعلق الأمر إذن بالقطيعة مع هذا التراث الذي يريد أن يقرن الاندفاعات بقيم تخرج مباشرة من أحكامنا الأخلاقية المسبقة. وليس على الفيلسوف أن يحكم على الغرائز بأنها حسنة أو سيئة فمهمته أن يرى ما وراء الخير والشر. هكذا يبلور نيتشه علم نفس واقعي يجد أصله في أحشاء الإنسان وخبرته المُعاشة. إن «الحرب التي يتحدث عنها هنا في موضوع الحب لا علاقة لها بوصف القتال المبتذل القائم بين أساطين التعذيب، بين جلاد يكون في الغالب ذكراً، ضد ضحية منتقمة تكون في الغالب أنثى. ليس هناك أب ضارب بالسوط ولا نِمرة في يدها فرّادة العجين. هذه الحرب تدور في أعماق الوجود، في اللعبة السريّة للاندفاعات التي تنعش بحسب رأيه كينونتنا ورغباتنا وأفعالنا وكذلك

أفكارنا»[1]. هذا التأمّل له قنوات اتصال بالتحليل النفسي الفرويدي الذي يعلن بعض إرهاصاته. من خلال هذه الفكرة اللاعقلانية عن الوجود في جانب منها، نتعرف بالتأكيد على ميتافيزيقا شوبنهاور التي كان يدرسها بدأب هذا المدرِّس الشاب في بازل قبل أن ينفصل عنها تماماً مفضلاً على تشاؤمها المريض تأكيداً مبتهجاً للحياة.

مصدر الحسّيّة

تكمن العلاقة بين الجنسين في قلب الحياة، وتُعدّ التعبير الأكثر بدائية وبراءة عن الحياة نفسها. أمّا الجنسانية فقد أصبحت خطيئة عند البشر بينما كان الإغريق يحتفون بها على امتداد التاريخ من خلال تقديسهم لديونيسيوس[2]. كما نجحت المسيحية في أن تجعل من إيروس وأفروديت، كما حلل أورور Aurore[3] «كوبولد[4]ملعونين وأرواح مخادعة في وعي المؤمنين، فيتصاعد الندم مع كل إثارة جنسية يشعرون بها حتى الهلع». لقد تأسست الحضارة الأوروبية على غرائز مكبوتة. هذا «الإخصاء[5]» للعواطف الذي ينادي به كل «ديناصورات

---

(1) شذرات بعد وفاة المؤلف: خلف الأفكار والمشاعر يوجد جسدك وذاتك في الجسد: الأرض المجهولة. لأي غاية جاءتك هذه الأفكار وهذه المشاعر؟ إذ تريد أن تصنع شيئاً من ذاتك في الجسد.

(2) ديونيسيوس، إله الخمر والحب والموسيقى عند اليونان، في مقابل أبوللو إله الشعر والعقل والحكمة. (المترجمة)

(3) Aurore, § 76.

(4) قزم يرد ذكره في الأساطير الألمانية على أنه يحافظ على كنوز الأرض. (المترجمة)

(5) Le Crépuscule des idoles.«La morale comme manifestation contre nature», 1 et 2 .

الأخلاق»، بحسب نيتشه، عمل إجرامي لمن لا يمتلكون ما يكفي من الإرادة ليفرضوا معياراً لرغبتهم ولا يتوصّلون إلى التسامي بها إلى أن تكون رغبة في الابتكار أوالمعرفة. شيطنة إيروس هي في نهاية المطاف أخلاق «الضعفاء» التي تحوّل الإحساسات الضرورية إلى عنف كامن لا يقود إلّا إلى الضعف وتدمير الذات. ويدين نيتشه الدعوة إلى العفّة قائلاً إن «الدعوة إلى العفّة هي تحريض علنيّ نحوالطبيعة المضادة. إن كل احتقار للحياة الجنسيّة باستخدام فكرة الدَنَس هي محاولة اغتيال للحياة، إنها الخطيئة الحقّة ضد الروح المقدّسة للحياة[1]».

الإنسان «القوي» هو على العكس، مَنْ يتمنى إنماء إرادة القوة لديه، والتي ليست شيئاً آخر سوى تأكيد للوجود وإضفاء للنبل، بتحرير نفسها من تأنيب الضمير الذي يسمم الطبيعة في الحياة الجنسية. «ليست الشهوة سماً إلّا بالنسبة إلى «الذابلين» الذين يحتقرون الجسد والمصابين بهذيان العالم الآخر». بل هي على العكس زبدة الزَّبَد لمن يمتلكون «إرادة الأسد». وإضفاء السمة الروحية على هذا الاندفاع من خلال ربطه بالروح أو بالسعي إلى التسامي به، بحسب التعبير الفرويدي، هو ما نطلق عليه «الحب». كل حب عظيم يجد أصله إذن في الحسيّة. قبول هذه «السعادة في الجنة الأرضية[2]»، بل وأفضل وسيلة لحماية النفس من الانحلال الجنسي. يوصي زرادشت بأنه «إذا كانت العفّة ثقيلة على الإنسان فينبغي الالتفاف حولها حتى لا تصبح الطريق إلى الجحيم». ويعلن نيتشه أن ما هو أكثر غرابة أنه بفضل الإدانات الكنسيّة وموارباتها، أصبح الفعل الإيروتيكي أكثر الأفعال أهمية وإثارة

(1) Ecce homo, «pourquoi j'ecris si bons livres 5».

(2) Ainsi parlait Zarathoustra ,III.2§ ,

في الشؤون الإنسانية. وهي ملاحظة جعلت البعض يبتسم عند علمه بمحدودية اللذات الجسديّة في حياة الفيلسوف. فعن حياته الجنسية لا نعلم إلّا بعض المرور النادر ببيوت الدعارة والتي قد تكون السبب في إصابته بداء السفلس الذي أدّى به إلى ليل الجنون الطويل في السنوات العشر الأخيرة من حياته حتى موته في 25 أغسطس 1900.

حاولت أخته المتلاعبة إليزابيث أن تجعل عزيزها «فريتز» قدّيساً صغيراً، لا يعرف الحب المبتذل، في السيرة الخيالية تماماً التي خصصتها له في عام 1935 [1]، ولكننا نعلم كيف أن أخته ليست شاهداً محل ثقة على تاريخه. إن سعيها المحموم لتقليص مكانة أيّ امرأة أخرى مرّت بحياة الفيلسوف، لتدعم اعتقادها بأنها الوحيدة التي كانت محَطّ عاطفة أخيها، يسمح بالفعل للمعلّقين بالتحدّث عن «مشروع امتلاك محارم»[2]. ولكن فيما وراء الحكاية الحميمة، فإن الملاحظة النيتشوية عن الاهتمام المبالّغ فيه من قِبل البشر للاستمتاع الجسدي يتصل أيضاً بالفكرة التي عبّر عنها في واحدة من *شذرات بعد وفاة المؤلف* والقائلة إنه «بالنسبة لعاشقين، بالمعنى الحرفي والقوي للكلمة، لا يعني الإشباع الجنسي شيئاً جوهرياً، إنه، بصورة أصيلة، مجرد رمز».

سيكون الصراع ضارياً

على الرغم من كون تجربته الإيروتيكية ضئيلة للغاية، فإن نيتشه

---

(1) Elizabeth Förster-Nietzsche, Friedrich Nietzsche et les femmes de son temps, Michel de Maule, 2007.

(2) Pascale Hummel, La Legende du Sens.

قد أطلق على نفسه لقب «أول عالم نفس بالمؤنّث الخالد[1]». هذا التأكيد أثار حفيظة النسَويين الذين هاجمهم بعنف في مجمل كتاباته. هذا الهجوم لم يكن بدافع كراهية راديكالية للنساء، وإن كان لا يخلو من شيء منها، بقدر ما كان بدافع عدائيته للأفكار «التقدميّة». عند إعداده لكتاب إنساني مفرط في إنسانيته الصادر في عام 1878، نصحته صديقته المقرّبة مالفيدا فون ميسينبوج Malwida von Meysenbug التي اشتهرت بكتابها مذكّرات مثاليّة وكانت من أوائل رموز تحرر المرأة في القرن التاسع عشر، بعدم نشر الكتاب. على الأقل ربما كان لدى الفيلسوف العزم على الإقرار بأنه لا توجد حقيقة عن «المرأة في ذاتها، إذ كان يشعر قبل لاكان بأن «هي» غير موجودة». وبقيت الصعوبة في التوفيق بين أقوال كل منهما المأثورة عن المرأة. وربما يتعين أن نضمّ «بسذاجة» لما قاله دريدا: «نيتشه لم يكن يرى هذا الموضوع بوضوح ولا بطرفة عين[2]».

أما على صعيد الجنسانيّة والحب، يدعم الفيلسوف ذو الشارب الكثّ وجود اختلاف عميق في التوجّه والممارسة بين الرجل والمرأة. بل وترتكز وجهة نظره على عدم مساواة مبدئيّة غير قابلة للعلاج. فالرجل يتملّك، والمرأة تمنح نفسها، ذلك هو قانون الجنس القاسي. ولكن «هذا المنح» هنا هو «منح الذات لأَجَل» مما يكفل لها نوعاً من السيادة هي الأخرى. فبأخذهن «مظهر الزينة الهشّة التي قد تتأذّى بذَرَّة غبار»، يدافعن عن أنفسهن «ضد صرامة وقانون الأقوى[3]». إن قوة

---

(1) Ecce Homo, 5.

(2) Jacques Derrida ,Éperons, les styles de Nietzsche ,Flammarion, .1978

(3) Le Gai Savoir, §66, «La force des faibles».

المرأة تكمن في طبيعتها الضعيفة، فهي تستعيد مكاسب كبيرة بفضل الغواية التي تمارسها، ودورها الأولويّ كأم. «الرجل بالنسبة للمرأة وسيلة، والهدف هو الطفل» كما أكّد زرادشت.

إن مسألة الأمومة هي المحور الذي تميز به الفيلسوف عن زميله الأكبر شوبنهاور. فمن المعروف أن هذا الأخير كان يودّ لو يقذف الرضيع بماء المرحاض. بينما اشتهر نيتشه بكونه «مفكّر الحَبَل» وفقاً للمصطلح الصادم الذي أطلقه دريدا. ومع ذلك فالطفولة محتفى بها في أعماله الأدبيّة. سواء على المستوى الطبيعي لدى المرأة، أو المستوى الروحي لدى المتأملات، هؤلاء «الأمهات المسترجِلات». وهكذا تكسب المرأة أرضاً جديدة، وهو أمر إيجابي من وجهة نظر نيتشه. المرأة تمنح الحياة. وكل منهن تعد غرائبية «مغطّاة بغلالة محاكة من الذهب، غلالة من الإمكانات الجميلة، التي تمنحها مظهراً مبشّراً، متمنِّعاً، لعبيّاً، ساخراً، حنوناً ومُغوياً». من هنا جاء التأكيد الحازم في العِلم المرِح «نعم، الحياة امرأة[1]».

ولكن الحَبَل هو ما يجعل النساء أكثر جاهزية للخضوع والإذعان، وهوما يجعلهن «أكثر نعومة وحنوّاً وتسامحاً، وأكثر خوفاً». إذن فالرجل والمرأة يمتلك كل منهما سلطة تملّك نوعيّ على الآخر، تجعلهما يتواجهان ويتّحدان بالتناوب. «يغير الرجل والمرأة أماكنهما، ويتبادلان الأقنعة إلى ما لا نهاية» كما قال دريدا. صحيح أن كلاً منهما يعكس من سِماته على الآخر، ويريان في ذلك مثالاً على حبهما، ومصدراً لزوال أوهامهما في الوقت ذاته. وقد استلهم نيتشه من هذه الخلاصة أن المرأة

---

(1) Ibid.339§

تمتلك «الفهم» بينما يمتلك الرجل «الحساسية والعاطفة[1]» وقد أضاف «أن الرجل يبحث عن الرجل المثالي، وتبحث المرأة عن المرأة المثالية. وكما تحابّ ديونيسيوس وأبوللو في الأسطورة الإغريقية[2] ليولّدا التراجيديا، كان صراع الهويتين خصبًا، من خلال الانجذاب الجنسي. أحدهما والآخر، أحدهما بواسطة الآخر، فكل منهما يثري ذاته عن طريق اتحاد القوى والسعادة. لكنها معركة أيضاً: «إن حظ العشاق هو الأذى (اختلال التوازن) الذي يخضعهم للحب الجسدي. فمحكوم عليهم إلى الأبد بتدمير الانسجام بينهم، وبأن يتعاركوا ليلاً. وما يسببه الواحد للآخر من جروح هو ما يجعلهما يتحدان، والقتال هو الثمن».

ولكن ما يراه نيتشه خطأ في مطالبات المرأة المتحررة يتمثّل في ما سمَّاه نزق إرادة التخلص من القوة الممنوحة لها بفضل ضعفها. ففي أثناء محاولتها كسب فضائل ذكوريّة، تباشر قدرتها على إثارة الرغبة، وفي الوقت نفسه تأثيرها النافع على الرجل. إن إلغاء الفارق بين الجنسين يعني منع الحرب الشرسة والمثمرة في الوقت ذاته بين الجنسين.

يستحيل إذن أن نضع حلاً لتلك الخصومة الطبيعية، بما فيها من قسوة وشناعة وغرائبية وأزليّة. لأننا نستوعب الحب في مجمله، في عظمته ورهافته، فهو شعور «لا أخلاقي» بطبيعته وبشكل أبدي. كذلك

---

(1) Humain, trop humain I،411§ ,L'intelligence féminine.،

(2) ديونيسيوس هو إله الخمر وملهم طقوس الملذات والنشوة، يطلق عليه كذلك باخوس. أما أبوللو فهو إله الشمس، إله الموسيقى، إله الرماية (وليس إله الحرب)، إله الشعر، إله الرسم، إله النبوءة، إله الوباء والشفاء، إله العناية بالحيوان، إله التألق، إله الحراثة. يملك جمالا ورجولةً خالدين. (المترجمة).

فإن ما نفعله بحب يبقى دائماً كذلك «في ما وراء الخير والشر[1]».
فالحب طفل بوهيمي.

إنه صراع ضار بالضرورة، وإلا فلن يكون حبّاً. أليس من يقوى على مقاومتنا هو من يصير أكثر إغواءً؟ وإذا كان أن نحب يعني أن نمنح ذواتنا، فإن هذه الهبة لا ينبغي لها أن تكون امتهاناً للذّات. وإلّا فإنه السقوط. كم للحب من صرعى ومصعوقين! كم من جسد متيبّس. من ينكر ذاته لن يكون لديه ما يقدّمه ولا ما يأخذه. وإذا ما تنكّر الاثنان لذواتهما بسبب الحب فماذا ينتج عن ذلك؟ «لا أدري ربما مكان فارغ؟» كما تساءل ساخراً في كتاب العلم المرح[2].

«ما الحب إن لم يكن أن نتفهّم أن شخصاً ما يعيش ويتصرف ويشعر بطريقة مختلفة عن طريقتنا ومتعارضة معها؟ لكي يوحّد الحب الأضداد بفرحة لا ينبغي له أن يلغيها أو ينكرها. - حتى حب الذات شرطه ثنائية (أو تعددية)لا يمكن اختزالها في شخص واحد[3]».

لكي نقاتل ونقاوم صدمة القوة المتعارضة، أي لكي نحب، ينبغي أن يكون هناك جندي يَقِظ وأنا مستقرة بصلابة «كائن متشبث بالأرض بساقيه».[4] وإجمالاً لكي تنجح الـ «نحن» ينبغي أن نعرف كيف نقول «أنا». وحدث أن نيتشه التقى في أحد الأيام أثناء قضائه للربيع في إيطاليا إنسانة تقول عن نفسها إنها لا تعرف سوى «أنا». بلا شك كانت هي بالنسبة له كارمن أو ملهمته الشيطانية أو مَثَله الأعلى.

---

(1) Par-delà le bien et le mal, Maxime 153.

(2) Le Gai Savoir ,V.363§ ,

(3) Humain trop humain II, § 75, «Amour et dualité».

(4) Ecce Homo, « Pourquoi j'écris de si bons livres », 5.

مجنون لو

في عام 1882، شرع الفيلسوف، الذي بلغ من العمر 38 عاماً، في حياته كهارب ضال بعد أن تحرر من التدريس في جامعة بازل بسويسرا لأسباب تتعلق بصحتة المتعبة، راح يتنقل من فنادق متواضعة إلى بيوت عائلية، في نيس وروما وتورينو، نازحاً مع إيقاع تغيّر الفصول وباحثاً عن الجوّ الأفضل لألم رأسه وعيونه المتعبة ومعدته المتقلّبة. بحر في الشتاء، وجبال في الصيف. مع تفضيل للبحيرات في أعالي التلال. ومعه كانت خزانة مليئة ببطاقات تحمل اسمه تشهد على الأماكن التي يمر بها وحِلّتان داكنتان ومخطوطات وكتب وزجاجات من العقاقير التي يتعاطاها لمقاومة الآلام التي تنغّص حياته.

شعر منذ بضعة أشهر أنه يسترد عافيته وكأنه يبدأ حياة ثانية. كان ذلك بعد أن نشر كتاب الفجر وانتهى تقريباً من كتابة «*العلم المرح*». فقد منحه الصيف الماضي النيّة في **العودة الخالدة** وأصبح يشعر أنه، مذّاك، كالآلة المستعدة للانفجار في أية لحظة. ذهب إلى جنوا بدعوة من زميله الناقد الأخلاقي بول رِيْ Paul Rée مع صديقته القديمة مالويدا. لقد وجّها له دعوة لاكتشاف جوهرة في روما نادراً ما تأتي من روسيا واسمها لو. منحاه وعدهما بأنها «كائن فوق العادة»، بل وربما أنها توصّلت إلى استخلاصات فلسفية تشبه ما توصّل إليه هو. أعجب نيتشه بذلك ولكنه دوّن الملاحظة التالية: «حيوا تلك الروسية باسمي. فأنا متعطش لهذا النوع من البشر، وسأضع نفسي قريباً فريسة لهذا النوع من الشرك، فأنا بحاجة إليه مع تقديري لما أعتزم القيام به في السنوات العشر المقبلة. أما الزواج فهو فصل آخر تماماً، وبإمكاني مواجهة زواج

لمدة عامين[1]». بدا أن ما كان يبحث عنه كان أمرًا محددًا تماماً: يريد من تساعده في المعسكر. يريد امرأة ناعمة وذكية حظيت بتعليم جيد، تستطيع مداواة عينيه بإعادة نسخ الكتب التي يعيد قراءتها. لم يثره الأمر بقدر كبير فذهب أولاً إلى ميسّينا قبل أن يلحق بالفريق الروماني حيث أبعدته الرياح المزعجة في صقلية. كان حُبٌّ قَدَريّ!

التقى عدوّ المسيح مع لو للمرة الأولى في 26 أبريل أسفل قبّة كاتدرائية سان بيير في روما. فاستهلّ لقاءه بعبارة: «من أي نجم سقط كل منا على الآخر؟[2]»، إنها عبارة كافية لتذيب من يسمعها. وقد أُعجبت بها لو بلا شك. إلا أن لو لم تكن من النوع الذي يسقط بسهولة مثل ذبابة. حتى ولو على نجم عال، فهي كوكب مستقل في حد ذاتها. فالشابة الروسية، كانت متعلّقة بفكر كانط وسبينوزا منذ طفولتها، وتتمتّع بـ «ذكاء حاد» ونظرة «تشبه نظرة بابا نويل»، كما قال عنها فرويد في ما بعد، حين أصبحت واحدة من تلامذته. كانت مغوية حقاً.

في مدينة سان بطرسبرج، كانت في الثامنة عشرة من عمرها حين أربكت بأنفها الأفطس القس جيلو الذي علّمها الفلسفة واللاهوت. كان المسكين متزوجاً ولديه طفلان، وفقد عقله عند رؤيتها، حتى إنه شرع في إجراءات الطلاق ليطلب يدها. ولكنها رفضت طلبه بغلظة، مؤكدة «مقتها العميق» للزواج ولكل أشكال التعاقدات المماثلة. ولم

---

(1) Friedrich Nietzsche ,Paul Rée ,Lou von Salomé ,Correspondance, PUF) .2001 ,Lettre à Paul Rée du 21 mars(1882

(2) Lou Andreas-Salomé le rapport dans Ma vie, PUF 2001. كما أنها كرّست عملاً آخر للفيلسوف بعنوان
Friedrich Nietzsche à travers ses œuvres, Grasset, 2004.

تكفّ مغناطيسيتها الحيوانيّة عن اجتذاب أعظم العبقريات التي عاشت في عصرها. كانت مستقلّة، ذات اكتفاء ذاتي، ومسيطرة بالمعنى الكامل للكلمة. تلك المغوية للرجال كانت ترفض منحهم جسدها، حتى إنها بقيت عذراء لما بعد سن الثلاثين. والأمر ينطبق كذلك على فريدريك كارل أندرياس، المستشرق الذي تزوّجها في سن السادسة والعشرين من دون أن يمسّها. ظل الأمر كذلك إلى أن ذاقت في أحضان الشاعر الشاب رينيه ماريا ريلكه النشوة الجنسية لثلاثة أعوام كاملة. هل كان الأمر بالنسبة لها: إمّا أن يعاني الإنسان أو أن ينتحر؟ فكل ما كان يعنيها هو حريتها. أما نيتشه الذي أكد في ما قبل أنه يريد من المرأة أن تكون «اللعبة الأكثر خطورة للرجل» فقد وقع على قنبلة موقوتة، عذراء مميتة، ومتصوّفة لا أخلاقية.

كما سقط صديقهما بول رِى في شباكها أثناء نزهاتهما الرومانية على ضوء القمر، ورفضت طلبه لخطوبتها، ولم يكن نيتشه قد أدرك كل ذلك بعد، ذاب نيتشه تحت تأثير تلك العبقرية الماكرة الشقراء ذات الواحد والعشرين عاماً بعد لقائها ببضع ساعات. وعهد إلى رِى المسكين بمهمة عرض طلبه على لو. أينبغي التأكيد على أنها تخلّت عنه؟ هنا «بدأت التراجيديا» كانت تلك العبارة هي العنوان التحذيري للحكمة الأخيرة في العلم المرح.

متزوّجون!

نيتشه والزواج... تاريخ مؤلم! وذلك وفقاً لما قاله توماس مان Thomas Mann في دراسته الفكرية المعنونة عن الزواج[1]، والمنشورة

(1) Thomas Mann, Sur le mariage. Lessing, Frued et la pensée moderne de mon temps, Aubier-Flammarion, 1970.

في عام 1925. حيث شبّه الزواج بالجليد الأملس والخادع، إذ يتطلب الرقص عليه شجاعة خارقة ورغبة مجنونة تمكّن الإنسان من اعتباره أمراً مبهجاً. وقد يكون من الملائم، كما قال مان هازئاً، أن نستدعي مجموعة من الصليب الأحمر عند بداية هذا الحفل الخطير المقام فوق طبقات الثلج لأداء الإسعافات الأولية.

يضيف نيتشه، عن الارتباط الزواجي، واصفاً المخاطر الغادرة التي تترقّب العاشق المتزوج، حيث تحوك العادات حوله شبكة من الأسلاك التي تزداد ضيقاً يوماً بعد يوم، ثم لا تلبث تلك الأسلاك أن تتحول إلى بحيرات، فيما يبقى هو غارقاً وسطها، مثل عنكبوت تشبّكت خيوطه وبات عليه التغذّي على دمّه. ولذلك فقد ذكر في كتاب إنساني مفرط في إنسانيته أن الروح الحرّة تكره كل العادات والقواعد وكل ما هو مستمرّ ونهائي. وهذا هو السبب الذي يدفعه إلى البدء من جديد، متألماً، في قطع كل أسلاك الشبكة من حوله باستمرار. ولهذا فهو غير مؤهل، ربما أكثر من غيره، لاتحاد ينبثق من وعود أبديّة. ويضيف نيتشه إن خصومة النساء تُعدّ خصومةً لطيفة بالنسبة لرجل ينطلق في بحور المعرفة. فهن يرغبن في منح الراحة إلى أزواجهن، والبيت الدافئ والمريح، ويسلبن بإرادتهن الكاملة زخم الاندفاع الداخلي للروح البطوليّة. إنهنّ يتصرفن تماماً، من دون أن يَعين ذلك، مثل شخص يزيل الأحجار من طريق العدّاني[1] كي لا تصطدم قدمه بها، بينما يبحث العدّاني في الحقيقة عن هذا الاصطدام! وهكذا فقد وجد سقراط المرأة المناسبة في نهاية الأمر، إنها كسانتيب الشنيعة، التي شجعته باضطراد مستمر على أداء

---

(1) هو المتخصص في علم المعادن، الذي يجمع الأحجار المطلوبة ليحللها ويكتشف المعادن بداخلها. (المترجمة).

مهمته حين جعلت المنزل منفّراً، وحين كانت تطرده خارج المنزل. «فهي بهذه الطريقة أسهمت في جعله أكبر مجادل في أثينا، وحتى في لحظات موته أقلقت بنحيبها راحة الفيلسوف الأخيرة». إن الأرواح الحرة تشبه الطيور النبويّة قديماً، فهي تفضل الطيران وحيدة.

لكن عند النزول إلى أرض الواقع نجد أن غالبية الرجال يكرّسون أنفسهم لصور زائفة. ما الذي يعنيه زواجهم؟ ربما يعني كما قال زرادشت: «آه! فقر الروح الذي يتشارك فيه اثنان. آه! قذارة النفس التي يتشارك فيها اثنان. آه! هذا الهناء الشقي الذي يتشارك فيه اثنان». ويضيف «إن ما تسمّونه حباً هو عبارة عن الكثير من لحظات الجنون القصيرة، ويضع زواجكم نهاية للحظات الجنون القصيرة الكثيرة تلك ويستبدلها بغباء طويل الأمد[1]». وقد عرض المسرحي السويدي أوجست ستريندبرج August Strindberg في كتابه «متزوِّجون» مشاهد الخلافات الزوجية، وانقشاع الأوهام، وعدم التفاهم والتفاهات الزوجيّة بشكل مرير. ظهر الكتاب في عام 1884، وهو يتكوَّن من ثلاثين قصة كتبت بجذل شديد موجّه إلى مؤسسة الزواج. يصور الكاتب نفسه ماثلاً أمام القضاء ومتَّهماً بسبّ الدين لأنه سخر من الزواج. وقد اعترف ستريندبرج بنفسه بما كتبه عن الزواج: «الأكثر شناعة ولكن الأكثر جمالاً في الوقت نفسه، الأكثر إثارة والأكثر قرفاً!». وقد أشاد نيتشه، في خطاب مؤرخ بتاريخ 27 نوفمبر 1888[2] بالكاتب والكتاب، الذي قرأه مرتين وأكد أنه «وجد فيه فكرته الشخصية عن الحب».

مرة أخرى يُشهر الفيلسوف مطرقته حين يقول إن كل شيء زائف

---

(1) Ainsi parlait Zarathoustra, 1er partie, «De l'enfant et du mariage».

(2) Dernières lettres, Rivages, 1989.

في هذا الأمر. «لا نستطيع أن نحذف الحب ولكن الكنيسة تريد تعقيمه بالزواج» كما كتب بودلير في «زهور الشر». أما الفيلسوف، الذي كان معجّباً بالشاعر، فقد أراد أن يشاركه الرأي. فهو يرى أنه حيلة دينية مسيحية تجعل الناس يعتقدون أن بإمكانهم حبس الحب داخل مؤسسة الزواج وحفظه في مكان جاف ودافئ كي يعيش مدى الحياة. وهنا يطوِّر الدين فكرة أن الحب عاطفة خالدة، على عكس الحقائق العديدة التي تثبت لنا العكس. ولكن كما هو الحال في كل مرة، نحوّل العاطفة، ذات الطبيعة المتغيرة والعابرة، إلى كيان مؤسسي، وبهذا «فإننا ننتج الكثير من النفاق والكذب في العالم من أجل عيون هذا التحوّل». يعمينا هذا الاعتقاد، تحت وطأة مشاعر تجعل «معظم الأشياء تتبدى لنا كما لم تكن من قبل»[1]. حتى أكثر الرجال حكمة يشتري زوجته مثل «قطة في جيبه» كما عبَّر زرادشت.

علاوة على ذلك فإن نيتشه لم يكن يرى حوله سوى أزواجٍ غير متجانسين؛ عقول مزدهرة مع أخرى مدلّلة وتافهة، عمال مع مرفَّهات. أيّ نكبة مستقبلية على الجنس البشري تفوق هذه النكبة عند من اقترف هذا الخطأ الشنيع. ويضيف أننا حين نخالط شخصاً أغبى منّا فإننا نخاطر بشدة بتخدير الذات. وبالنسبة لمن لم يصبه بعد داء البقر فإنه واقع تحت تهديد الاكتئاب. خاصة وأنهم يطالعون أمام عيونهم وجهاً تحول مع مرور السنوات إلى «ورقة مكرمشة»، حينها لن يتبقى لهم إلا أن يتجرّعوا «الشراب المر». ثم يؤكد نيتشه أن «الزواج الحديث» يخلو من المعنى، «نحن نعيش لليوم، نعيش سريعاً جداً، ونعيش بطريقة غير

(1) L'Antechrist, § 23.

مسؤولة: وهذا ما نسميه تحديداً «حرية»[1]. «ثم تتوالى الأزمات، ويتوالد الكره، ويُصاب الأطفال بالخسارة». ويختتم قائلاً: «ينبغي أن يُمنع على الإنسان، حين يكون عاشقاً، أن يتخذ قراراً يكون مُلزِماً له طوال حياته».

ومع ذلك بقي نوع من الزواج قد يكون جيداً بحسب نظرته؛ وهوالزواج القائم على حب أعلى وليس حب «حيوانين يعمل كل منهما على فكّ أسرار الآخر»، حبّ يحمل عنوان الصداقة. وهنا توفّر الثقة المطلقة «غرائبية شهيّة، وروعة برّاقة كبريق الذهب[2]». هنا تفسح تلك الرغبة المتبادلة بين اثنين المجال لتطلّع جديد وتعطّش مشترك أرقى، لمثال يتّخذ مكاناً يعلو الشريكين. هذا المثال يرتكز على أن يخلق للاثنين، من خلال «الاحترام المشترك»، «واحد يبتكره الاثنان». قد يكون طفلاً أو أيّ هدف آخر مشترك يسمح بتحقق الطرفين. أما العاطفة، والجنس وروعة الأيام الأولى فجميعها أشياء موقتة. ولا يبقى سوى الكلمات التي نتبادلها والنقاشات التي تثري العلاقة. لذا فالسؤال الوحيد الحقيقي الذي نطرحه على أنفسنا قبل الزواج هو الآتي: «أتستطيع أن تبقى مع هذه المرأة حتى سنوات شيخوختك؟». وكي نجيب عن هذا السؤال علينا أن نتعلم «أن نحب في ما وراء الذات»، أي الرغبة في التسامي.

أعزب مدينة بازل

نعرف أن نيتشه لم يجرِّب بنفسه اختبار الزواج. ومع ذلك فإنه، قبل أن يقابل لو، في مرحلة تردده بين الاعتزال في حياة الريف أو رغد الحياة

---

(1) Le Crépuscule des idoles, «Flâneries d'un inactuel § 39».

(2) Humain trop Humain.

البرجوازية، فكّر أكثر من مرة أن يستسلم «للكذبة الصغيرة المُهَندَمَة». إنه الأمل، بلا شك، في التخفّف من وحدة المفكّر. وربما الرغبة في طمأنة من حوله، من يرونه دائماً غارقاً في أفكاره السوداوية. كان فاجنر يمثل في سبعينات القرن التاسع عشر النموذج الأبوي لنيتشه، للشاب مدرِّس الفلسفة الذي فقد أباه وهو في سن الرابعة، وقد قال عنه ذات مرة «لا بُدّ أن يتزوج»[1]. كما أنه عبّر عن الرغبة ذاتها في خطاب مؤرخ بالعام 1874 ومرسل لمدموازيل ميزينباج حيث كتب «أتمنى أن يجد سريعاً زوجة مناسبة». أما مالفيدا التي كانت في مقام والدته وتكبره بثمانية وعشرين عاماً، فكانت تتقمص روح الخاطبة وتبحث له عن زوجة بمنتهى الجدّية. وهكذا فالجميع كانوا قد تبنّوا فكرة الزواج كحلّ. وانطلق الكل في بحث عن الرفيقة الكاملة. وتقاسم البارون فون جيرسدورف المشاركة في البحث مع الجميع، وكان مرّة في إحدى السهرات عند عائلة فاجنر عندما أجابه نيتشه، بادياً عليه المرح: «يا له من تفكير سماويّ، ما الذي تتخيله أنت وهؤلاء من عائلة بايروت، إننا في الجمعية العامة للمجلس الزواجيّ! نعم ولكن! عليك أن تجيب، خاصة وأن هناك الكثير من النساء، وأنه ينبغي عليّ أن أجد الزوجة المناسبة من بينهنّ. هل يتوجب أن أنطلق، كفارس، في حملة عبر العالم لأصل إلى تلك الأرض الموعودة وفقاً لنصيحتك؟ أم تقترح أن تأتي النساء ليستعرضن أنفسهن أمامي، كي أعرف أياً منهنَّ الأنسب؟». وهكذا أصبح نيتشه «أعزب» مدينة بازل.

---

(1) Curt Paul Janz, Nietzsche, Gallimard, 1984.

Rudiger Safranski, Nietzche, biographie d'une pensée, Solin- Actes sud, 2000.

H.F. Peters, Ma sœur mon épouse, Gallimard, 1977.

بالطبع كان أمامه الكثير من المرشحات إلّا أن العبقرية النزقة أرادت ممارسة تكتيك شديد التفرّد في الغواية، حيث اعتاد أن يطلب يد الفتيات الشابات للزواج بعد بضع ساعات فقط من الخروج معهن. وهذا ما فعله تحديداً في شهر أبريل من العام 1876 عند إقامته في جنيف مع المسكينة ماتيلدا ترامبيداخ، عازفة البيانو الشابة ذات الثلاثة وعشرين عاماً، التي لم تكن تنتظر منه عرضاً كهذا ولذلك فقد صُعقت من طلبه، كان الموقف محرجاً للغاية خاصة وأنها كانت متعلّقة برجل آخر. ثم تزوجت فيما بعد من هوجو فون سينجِر الذي كان يعمل مدرِّساً. وأخيراً أقرّ نيتشه لصديقه جيرسدورف بعد ثلاثة أيام من رفض ماتيلد: «أفضِّل عشرة آلاف مرة أن أظل أعزب إلى الأبد». إنه الكبرياء، هو الذي تكلم. إلا أن المشروعات لم تتوقف لوقت طويل. كما أن صحته أخذت في التدهور ونصحه طبيب في مدينة فرانكفورت بالزواج. جدير بالذكر أن ريتشارد فاجنر كان قد مرّ بالمدينة، وأفاد الطبيب الطيّب بأن المرض الذي يعاني منه نيتشه ليس له اسم سوى «الاستمناء». وعرف الفيلسوف بذلك الأمر في ما بعد وتحدّث عنه «بعدائية مميتة». وهنا تفاقمت «الحالة فاجنر»!

إلا أن الحلم بالعيش الحميم داخل بيته ظل يداعب خياله، حتى إنه في عام 1877، في خطاب لأخته الطاغية، أرسل قائمة بأسماء الخطيبات المنتظرات بطريقة فظّة بعض الشيء. ذكر في الخطاب آنسة تدعى ب. ن.!، قضى معها ستة أسابيع لكنه تراجع عن رغبته، وبعد أن كان يشعر بانجذاب نحوها أصبح «لا يريد أن يراها أو يسمع صوتها».

ناتالي هيرزن؟ قال عنها إنها في «الثلاثين من عمرها هي الأخرى، ربما كان من الأفضل لو تكون أصغر باثني عشر عاماً». كما أثار الحديث عن زواجه من امرأة «تلائمه ولكن ثريّة بالضرورة». وفي الأول من شهر

يوليو من العام نفسه بدا نيتشه عازماً أكثر من أيّ وقت مضى، فكتب لمالفيدا: «من الآن وحتى الخريف أنا في مهمة ساحرة تتعلق بالعثور على امرأة لي، وينبغي حينها أن آخذها إلى جدول صغير»[1].

ومع ذلك لا شيء يتجسَّد. كانت هناك التي تُدعى لويز أوت، فتاة من الألزاس، جميلة جداً، مثقفة وموسيقية وأحبّته، إلا أنها كانت متزوجة بالفعل. لكن تراجَعَ نيتشه عن فكرة أن تنخرط المسكينة في حياتة المعذّبة. وبعد ذلك ينبغي الاعتراف أنه إذا كانت «المرأة الكاملة»[2] هي «شكل أسمى للكائن الإنساني» أكثر من الرجل الكامل، فهي كذلك «سلعة شحيحة أكثر منه بكثير». إذن، فإن نيتشه حين عرف «لو» رآها باعتبارها «منظوراً ذهبياً في فضاء الحياة المستقبلية».

كنز التنين

إذا كانت «لو» رفضت الزواج من نيتشه ومن رِى، فقد كانت تفكر في شيء ما يخص الاثنين. خطة رائعة قالت عنها: «إنها إهانة أخلاقية حقة وفظة». نوع من المعيشة الثلاثية الخاصة بالمثقفين، تشبه «ندوة مرحة وجادة» في آن واحد، في شقة ذات غرفتين، وسط الكتب والزهور، وكل منهم يذهب ويجيء. حلمت «لو» بذلك وقَبِلَ كل من نيتشه ورِى الأمر[3]. توجب للثالوث المقدس أن يتأسس في فيينا أو باريس في العام التالي. في الحقيقة، لم يفقد الرجلان الأمل في أن

---

(1) خطاب إلى مالفيدا فون ميسينبوج، بتاريخ الأول من يوليو 1877.

(2) Humain, trop humain, 337.

(3) Lou Andreas-Salomé, Ma vie, op. cit.

يغوي كل منهما الفتاة الصغيرة، ولا في أن يلعبا أدوار جول وجيم[1].. ذكر الكاتب بنجامين كونستان، مؤلف كتاب أدولف الشهير، والذي ورد ذكره في الحالة فاجنر قال: «إن الحب هو الشعور الأكثر أنانية بين كل المشاعر الأخرى». أما نيتشه فقال شارحاً إن الرجال أصبحوا يرون الحب شيئاً غيرياً فقط لأنهم يخوضون طوال ألفيتين كاملتين في الماء المقدس. «الكذبة» الجميلة! ثم يطالب ابن القس الألماني بأن نرتاب في ما يتعلق بغرائزنا «غير المهمة». فهي ليست إلا طريقة متسترة وواهنة للاعتماد على الآخر في «منحنا بريقاً ذهبياً». لا توجد علاقة بين الحب وبين الإحسان، فنحن نحب لأن ذلك يشعرنا بالرضا، ويثير فينا أحاسيس المتعة التي نرغب بها، وللشعور بالراحة الذي يمنحه لنا اهتمامنا بالآخر، ونجزل العطاء لفرحنا بالشعور بأننا مُحَبّون. وهكذا فسعادة الاثنين تنبع من التبادلية المشبعة بأنانية رائعة. «طمع وحب: أي مشاعر مختلفة تتملّكنا مع كل لفظ من اللفظين!». ومع ذلك قد تكون الغريزة ذاتها هي التي تحمل تسميتين. وهوالحب بين الجنسين «الذي يبدو بالطريقة الأكثر وضوحاً كرغبة في التملك[2]». حقاً، يريد العاشق دائماً أن يحرم العالم أجمع من سعادته، وأراد نيتشه بعزم وتصميم أن يكون «التنين الملتف حول كنزه».

منحته «لو» الأمل الزائف بمرور الوقت. ذات مرة، عرضت عليه

---

(1) جول وجيم هو عنوان فيلم فرنسي للمخرج فرانسوا تروفو مأخوذ عن رواية بنفس الاسم للكاتب هنري بيير روشيه وظهر في عام 1962. بطلا الفيلم يقعان في غرام نفس الفتاة وهي كاترين التي تقرر الزواج من جول، وبعد بعض الوقت تعترف بأنها غير سعيدة معه فيوافق على أن تتخذ كاترين جيم عشيقاً، إلا أن كاترين لا تكف عن تغيير موقفها العاطفي بين الرجلين.

(2) Le gai Savoir, § 14 .

قضاء يوم كامل وحيدين بمعزل عن الباقين في مونت ساكرو، بينما كانت أمها ومالفيدا وريلكه يغليان من الغيظ على ضفاف بحيرة أورتا حيث يقضون إجازة الربيع. «هل قبلت نيتشه على المونت ساكرو؟»، تساءلت لو بخبث في مذكراتها التي كتبتها بعد سنوات. إلا أن النزهة بقيت بالنسبة له «الحلم الأكثر روعة في حياته». وفي يوم 8 مايو خَرَّ الفيلسوف مرة أخرى على ركبتيه في مدينة لوسرن في سويسرا. إنه السقوط الثاني. ثم غادر بعدها مباشرة في حَجّ مؤلم إلى تريبشن، تلك الجزيرة التي كانت «مبهجة» في أوقات سابقة حيث قضى فيها أروع أيامه مع عائلة فاجنر. علينا تخيّل نيتشه في هذه اللحظة أشعث الحاجبين، مثقل القلب وتدل هيئته على الإحباط ويرسم بطرف عصاه دوائر على الرمال، وحين رفع عينيه وجد أمامه لو ووجهها غارق في الدموع. كان ذلك في اللحظة ذاتها التي قرّر فيها أن يلتقط الصورة التي صدمت كل الأوساط آنذاك. لو، سالومي تمسك سوطاً في يدها وتعتلي عربة يجرها مفكّرَان لامعان مسخَّران هما ريلكه ونيتشه، كرمز صارخ على خضوعهما. هذا المشهد كان أول ما رشحته المرأة العجوز في كتاب هكذا تكلّم زرادشت: «سوف ترى النساء! ولا تنسَ السوط!» نيتشه الذي قرر أن يقوم بالإخراج الكامل للملصق الشهير، لم يحدد أبداً في كتابه إلى أيّ منهما وُجّه السوط في نهاية الأمر.

الصيف المميت

شعر الفيلسوف بأن قلبه «يصعد حتى وصل إلى عقله». فقد خسر معركتين أمام لو. كما أنه يعرف أن احتياج المرء لأن يكون محبوباً

أليس هو «الأعظم بين كل المنشودات»[1]. لكن أليس هو نيتشه العظيم؟ هو من يقسم القصة إلى اثنين؟ هما لو، وربما قنبلة! ولكنه بالتأكيد يمثّل الديناميت في هذه القصة. ولكن لو قدَّمَت له جرعة من الترضية: خمسة عشر يوماً يقضيانها وحدهما في بيت كاهن في حضن غابة توتنبرج الألمانية. كانت ساعات من المحادثات المسترسلة بلا انقطاع. المحادثات التي أدّت بهما «إلى الدوار الذي لا يبلغه المرء إلا غارقاً في الوحدة». ثم دوّنت لو في اليوميات التي كتبتها لريلكه، غريم نيتشه، أن من يسمع محادثاتهما «ربما يعتقد بأنها حوارات بين شيطانين». أما نيتشه فكان يعتقد أنه يرى نسراً، فهي بالنسبة له «أكثر النساء ذكاءً»[2]. ولكن أنشودة أغسطس الرعويّة انتهت. حيث كان على لو أن تغادر لحضور مهرجان بايرويت، وتظل عند عائلة فاجنر. بعد رحيلها لم يعد أيّ شيء كما كان من قبل. وكانت أخت نيتشه عند عائلة فاجنر هي الأخرى، وكانت أسوأ خصم للمرأة الروسية. كانت تفور بالغيرة، فكانت تتوقف عند هفوات لو كما لَو كانت أخطاء تتعلّق بأمور الدولة، وجعلته يعتقد بأن لو تبحث عن غواية الممثلين وأنها تسخر منه أمام الناس، فاستشاط نيتشه وكاد جوفه أن يحترق، وتذكر على الفور أوبرا كارمن. تحدثا معاً، وهو فَهِمَ الأمر. كتب إلى صديقته القديمة مالفيدا وهوخائب الرجاء: «يبدو أني لم أعنِ شيئاً بالنسبة لها أبداً، مجرد برهان على الذوق الجيد». وفي الخطاب الأخير الذي أرسله إلى لو في 23 نوفمبر 1882 لم يطلب منها أكثر من شيء واحد عوضاً عن تخلّيه عن كل الحميمية التي كانت تجمعهما «أن نشعر أننا متّحدان

---

(1) Humain trop humain I, 523.

(2) Lettre a Peter Gast du 20 äout 1882.

في كل ما لم تبلغه الأرواح». ولكن حتى هذا رفضت أن تَعِده به. لم تكن نسراً، بل كانت جناحين عابرين.

كل ما تبقى له من تاتنبرج هوحجر الحياة الذي صنعته لو، وأهدته إياه قبل أن تتركه في الغابة. وطالما تردد على ذهنه بيت من الشعر: إذا لم يكن لديك المزيد من السعادة لتهدِها لي/ إذن فلن يتبقى لك سوى عذاباتك». ووجد نفسه في نهاية الأمر مع «أخيه ريلكه» الذي كانت لو السبب في تعايشهما معاً لمدة خمس سنوات. وفي أوساط المثقفين أطلقوا على الشاب لقب «آنسة الشرف»، بينما أطلقوا لفظ «جلالتها» على من تجعل الشمس تشرق حين تدلف إلى مكان ما، كما كانوا يقولون عنها، فيما يجتر راهب ديونيسيوس ألمه. هي «الوريثة» الموعودة لأفكاره «والروح البطولية بحق» وقرينته في الجنس المؤنث، وأفضل تمثيل «لرجولته الفَذّه»، أصبحت وفقاً لما كتبه عنها «تلك الجافة، القذرة النسناسة بثدييها الاصطناعيين، إنها مصيبة!». كان يلوم عليها «أنانية القطة» التي لا تستطيع أن تحب أحداً، كذلك طريقتها في اعتبار المعرفة «متعة إلى جانب غيرها من المتع». تلك الخائنة الروسية لم تكن في نهاية الأمر سوى صورة ساخرة لمثاله الأعلى. «وكما تعرفون فالمرء يصبح مريضاً حساساً للغاية حين يتعلق الأمر بمثاله الأعلى» كما أفضى هو إلى مالفيدا. لكنه كان يشتاق إليها «على الرغم من كل عيوبها[1]».

اقتادته أخته الغاضبة، وأراد الفيلسوف أن يتحرش بريلكه ويدفعه إلى مبارزة، ثم اكتشف في النهاية أنه سقط ضحية «رغبة شنيعة في الانتقام[2]»، كانت طريقة نيتشه الأساسية في التفكير ترتكز على دفع مشاعر الكره والبغض بعيداً، وكذلك الآثار القائمة على رد الفعل،

---

(1) في خطاب إلى إيدا أوفربيك، بداية عام 1883.

(2) في خطاب إلى صديقه أوفربيك في أغسطس من عام 1883.

كتب لصديقه أوفربيك: «هذا الصراع هو ما يقرّبني... من الجنون». لم يعرف الكره أبداً من قبل تجاه شخص ما، حتى فاجنر «الذي تجاوزت خياناته حركات لو بكثير[1]»، من دون الحديث عن كل ممثلي بايرويت الذين كانوا سبباً في إطلاق سمعة أنه شاذ جنسياً. لكن في تلك اللحظة كانت لو هي التي يلعنها. «كثير من عدم الرقة وقليل من العرفان! إذا لم يكن الخلود الأنثوي ما يأخذ بتلك الفتاة إلى أعلى، فهو بالتأكيد الخلود الذكوري». قال ذلك في ثورة عارمة. أخذ نيتشه ينعزل أكثر فأكثر، وآنذاك كان يتكلم مع أشباح في خياله أكثر مما يتكلم مع شخص ما بعينه. وصَعُبَ عليه أن يمضغ سهراته السابقة مثل طفل تائه في الأربعين من عمره في «غرفته» الصغيرة. «قديس عجيب» مثله، يحكي عن الجرح كاملاً ويحمله وحده «في وحدة مرعبة»[2]، إن ثقل الحقائق القاسية، يعادل فقد كائن مثل لو.

لقد كتب في زرادشت «إنك تريد أن تداعب كل الوحوش، هواء زفرة حارة وقليل من فراء الحيوانات الأملس: وكنت مستعداً على الفور أن تحب وأن تجتذب إليك». ثم اعترف في ما بعد أنه إذا كان لقاء الآنسة سالومي هو «الأكثر خطورة وإثارة للزوابع» بين كل اللقاءات التي حدثت له في حياته، فهو أيضاً بالنسبة له «الأكثر قيمة والأكثر إرباحاً»[3].

---

(1) في خطاب إلى أخته، صيف 1883.

(2) في خطاب إلى مالفيدا في نهاية شهر يوليو 1888، قبل بضعة أشهر من التدهور الذي حَلّ بالحالة العقليّة لنيتشه: «يتمثّل الجرح في عدم سماع إجابة، ولا أقل زفرة من إجابة، وأن تحمل منفرداً، في وحدة مرعبة، الحمْل الذي طالما أردنا مشاركته، والذي طالما تمنينا أن نلقيه على آخرين...».

(3) من أجل الاطلاع على آثار لقائه مع لو على المنتج الفلسفي لنيتشه راجع الدراسة الرائعة: Jean- Pierre Faye, Nietzsche et Salomé, Grasset, 2000.

حَبَل نيتشه

كان غارقاً في أمراضه العقلية الرهيبة، وكان وحيداً «يستكشف المخلّفات ويسبر أغوار الأعماق»، هنا أنجب نيتشه زرادشت، آخر حلفائه. إنها عبقرية الحياة مع لو، والثمار التي وضعتها في بطون الرجال. ها هو يمزق الغلالة، فقد منحته المرأة الكاملة منظوراً جديداً للعالم. لقد قطعت آخر حبل يربط «بالون منطاد الفكر» بغرفته الصغيرة، وانطلق نحو طبقات السحاب الخالدة. من هنا، من أعلى، أمسك بيدَيْه عجلة القدر الإنساني العظيمة. وقال نعم للبهجة، أي نعم لكل الألم في الوقت نفسه، «لأن جميع الأشياء متسلسلة ومتشابكة بعضها ببعض في حب[1]». وهكذا بلغ حب الحياة. ومن خلاله يصبح كل شيء ممكناً، بل ذهب إلى قول «إنه لا بُدّ وأن يكون الحب المخلوق المحوري لكل شيء. الأمر لا يتعلق بعادة أن نحيا، بل بعادة أن نحب». ربما فقد طبقة جلده الواقية في هذا الصراع الهمجي، ولكن تكوَّنت طبقة أخرى أكثر رهافة وحساسية. كتب شاعر في القرن العشرين إن من يبحثون لا يكتشفون إلا إذا كانوا محمومين أو مطرودين. وكان نيتشه الحالتين معاً. وكما هوالحال مع الكيميائي الذي يحوِّل الرصاص إلى ذهب، حوّل الفيلسوف حطام حبّه إلى معجزات. فكل ما كتبه من كُتب بدمه تحولت إلى انتصارات وسُجّلت باسمه. هل يعد مثالاً على سموٍّ أقصى للحب؟ لقد كانت تراجيديا. نيتشه صحراء من الوحدة كما قال ستيفان زفَيج. «وحدة، وحدة، يا بلادي[2]» كما كتب نيتشه على لسان زرادشت. فالرجل القادم من مدينة ديونيس قادر على تحويل كل صحراء إلى أرض خصبة.

---

(1) Ainsi parlait Zarathoustra, trad. G. Bianquis, Aubier 1962, p. 621-623.

(2) Stefan Zweig, Neitzsche, Stock, 2005.

- 9 -

مارتن هايدجر وحنة أرندت

«قد يكون للمثقف عشيقة تنتج كتباً،
ولكن لا بُدّ له من زوجة تنتج قمصاناً».

دينيس ديديرو Denis Diderot، جاك القدري ومعلمه،(1783).

لم يكن مارتن هايدجر فيلسوف الحب. وقد كتب عنه كارل ياسبرز Karl Jaspers ذات يوم أن فلسفته : «بلا حب، لذا فإن أسلوبه غير محبَّب[1]». هذا الهدوء الظاهري، في فترة كتابة عمله الأعظم الكينونة والزمان الذي نُشر في عام 1927، كان أكثر إشكالية مما يبدو عليه، إذ عاش فيه هايدجر مغامرة عاطفية مكثّفة مع حنة أرندت التي كانت تلميذته في جامعة ماربورج. أما هو فحين تحدّث عن هذه العلاقة، في العلن للجمهور، قال عنها إنها كانت «الأكثر ملاءَمة» لحياته، واعترف أنها كانت ملهمته وكانت تبثّ «الفكر العاطفي» في كتاباته. ونلاحظ أنه لن يطرأ تغيير كبير على الانجذاب الدائم في هذه العلاقة التي جمعت بين «اليهودية المتشرِّدة» و«عصفور الغابة السوداء» على الرغم من تعاطف هذا الأخير مع النازيّة. ولم يكن أحد ليتنبّأ، في بداية هذه العلاقة، بالشكل الأسطوري الذي ستصبح عليه في ما بعد، وهي التي جعلت من مفكّر الأنطولوجيا الجديدة (علم الوجود) فيلسوفاً عاطفياً يحتل مكانته إلى جانب أفلاطون وروسو.

للتأكد من ذلك علينا أن نقرأ كتاب الكينونة والزمان. الوجود،

(1) Karl Jaspers ,Notizen zu Martin Heidegger ,Munich, 1978.

الموجود، الزمان، الموت. لا إشارة إلى الحب. أو بالأحرى هناك إشارة واحدة في هامش سفلي في المقطع رقم 29 ولا تحتوي على رأي الكاتب بل على استشهادين. الاستشهاد الأول لباسكال Pascal وهو التالي: «عند حديثنا عن الأمور الإنسانية، نقول إنه لا بُدّ أن نعرفها أولاً كي نحبها، وهو ما أصبح مَثَلًا دارجًا في ما بعد. أما القديسون فكانوا يقولون العكس عند حديثهم عن الأشياء الإلهية، إذ يجب أن نحبها أولاً حتى نعرفها، وأننا لا ننفذ إلى الحقيقة إلا من باب الرحمة، وتلك كانت واحدة من عباراتهم المهمة». والاستشهاد الثاني للقديس أوغسطين Saint Augustin: «نحن لا ننفذ إلى الحقيقة إلا بالحب». وليكن، فهذه ليست إلّا بداية. على الأقل إن الاستشهادين يشيران إلى أوّليّة أنطولوجية للحب باعتباره ممراً للعبور إلى الحقيقة. فلنوسّع حقل الملاحظة. وإذا أخذنا في اعتبارنا مجمل أعمال هايدجر وأرندت والمنشورات الحديثة التي تضمّنت مراسلاتهما، إلى جانب تلك التي حافظوا عليها في زواجهما الاعتباري، لوجدنا في النهاية نصاً ثميناً. وقد نجرؤ على الجزم بأن الحب قد احتل مكانة محورية في فكر كل منهما. وها هو الملف.

الموجود العاطفي

فلنعد إلى الكتاب الذي زعزع فلسفة القرن العشرين. واستندت إليه محاضرات جامعة ماربورج، في صيف (1928)[1]باعتباره مرجعاً أساسياً. إذ استعاد فيه هايدجر تأمّلاً مستوحى من تبادلاته مع ماكس شيلر Max Scheler، ويفضي هذا التأمل إلى أن الحب والكره يشكّلان المعرفة. واستفاد من باسكال والقديس أوغسطين في دعم منطقه.

---

(1) محاضرات الفصل الدراسي الصيفي في عام 1928 في ماربورج في Gesam-tausgabe (œuvres completes), GA 26

كتب شيلر في أوردو أموريسّا: «الإنسان قبل أن يكون كائناً مفكراً أو كائناً راغباً هو كائن مُحِبّ[1]». وفي رغبته لتجاوز مفهوم القصديّة التي صاغها أستاذه هوسرل Husserl، الذي يصف العلاقة بين ذات وموضوع على أنها علاقة معرفة، يطرح هايدجر «الموجود، هنا» كقضية مركزيّة أو طريقة الوجود في أن يوجد فيكون «وجوداً- في- العالم». ذلك يعني أن يحمل بداخله، بصورة أصلية وبنيوية تلك المقدرة على السموّ التي تضعه في علاقة مع الأشياء ومع الآخرين. وهكذا يكون الإنسان «مفتوحاً على العالم مع كل معرفة ومع كل تراكيب الذاتية». إن المعرفة قائمة بالأساس على «كائن- مجاور- للعالم». كما يقول في الكينونة والزمان. يرى الفيلسوف الإيطالي جورجيوأجامبن Giorgio Agamben في دراسة موجزة ومهمة[2]، أنه إذا كان هايدجر يستدعي أوغسطين وشيلر، فذلك يعني أن الحب بالنسبة له هذا النمط من الانفتاح الأكثر أصليّة من المعارف الأخرى كافة. وبمعنى آخر «إنها الإشكالية الأساسية في الكينونة والزمان». لا تزال الصورة ضبابيّة في كل ما سبق، فلنتأمل التالي.

في المحاضرة التي ألقاها عن نيتشه[3] في عام 1936، أَسَس هايدجر نظرية للمشاعر. فعرّفها أولاً، ثم انتقل إلى آثارها مثل «الطرق الأساسية التي يمثل فيها الإنسان دليلاً على وجوده ها هنا، وعلى انفتاح وانسحاب الكائن الموجود فيه». ثم ميّز الحب والكراهية كعواطف في مواجهة

---

(1) Idib.

(2) Giorgio Agamben- Valeria Pizza. L'ombre de l'amour. Rivages. 2003.

(3) Martin Heidegger. Nietzche. tomes 2. Gallimard. 2004

الانفعالات البسيطة. وهي دائماً موجودة في داخلنا «وتخترق وجودنا بأسره بطريقة أصلية». والدليل على ذلك أنه يمكن أن نقول «إننا نغذّي الكراهية» ولا نقول مثلاً «إننا نغذّي الغضب»، «فالحب والكراهية لا يستلزمان وقتاً أطول فحسب، بل إنهما الشعوران الأصليّان الوحيدان اللذان يحملان مسافة زمنيّة واستمراريّة حقيقيّة في وجودنا». وإلى العاطفة وحدها «ينتمي العناق الذي يأخذنا بعيداً وينفتح». ويشرح هايدجر أن ذلك العناق لا ينقلنا فقط إلى ما وراء ذواتنا، ولكنه «يجمّع وجودنا على أساسه الحميم». العاطفة تفتح الوجود في هذا التجميع. «بهذه الطريقة، فإن العاطفة هي ما تجعلنا واثقين من أنفسنا ونصبح بذلك أسياداً للوجود فينا ومن حولنا». إذن، يمتلك الإنسان بالحب والكراهية في نهاية المطاف الظرف الذي ألقي فيه منذ البدء ويتجلّى أمام ذاته. هاتان العاطفتان هما الطريقتان الأساسيّتان كي يختبر الإنسان الموجود في عمق غموضه[1].

ومن جانبها كتبت حنة أرندت، في عام (1953)، ما يشبه ما كتبه هايدجر من قبل على الرغم من تباعد فكرهما: «لا شيء يقودنا إلى قلب العالم النابض حقاً ومؤكداً أكثر من الحب»[2]. الحب إذن هو قدرة تجعل الممكن يحدث. وقبل ظهور الكينونة والزمان بعامين، تحديداً في 13 مايو 1925، كتب هايدجر إلى حنّه أرندت هذه الكلمات: "أتعرفين ما أصعب شيء بين الأشياء جميعها، وبين كل ما مُنح للإنسان ليحمله؟ بالنسبه للباقي توجد طرق ومخابئ ليحتمي الإنسان بها، إما أن تقع فريسة للحب فذلك يساوي أن يُعامَل الإنسان

---

(1) Ibid., t. I,p. 51

(2) Hannah Arendt, Journal de pensée, t. I, Seuil, 2005.

بازدراء في حياته الأكثر خصوصية». استطاع سان أوغسطين أن يقول: أنا أحبك، أريدك أن تكون ما أنت عليه[1]. تحب يعني أن تخوض تجربة الحياة الأكثر «خصوصية» وتكتشف مع شريكك أن كيانك «المُبتَلى» في الوجود يعني كذلك أنه يريد وجود الآخر. بل ويريده بإصرار. قال هايدجر لتلميذته: «هذا ما أنت عليه بكاملك وما ستظلين عليه، وهكذا أحبك».

واجب الحب

في الحب، وفي الوقت الذي نتكشّف فيه أمام ذواتنا، فإن هناك كياناً آخر يعطينا من تاريخه ومن إمكاناته ومن عالمه. وهو يوفّر لنا أن نظل محاطين بالغموض، إذ يبقى الآخر في أعيننا قريباً وغريباً في آن، وإلا فلن يكون آخر بعد الآن. فالمرء يطالع معشوقه، ويشعر بأن وجوده بديهي كما لو كان امتداداً للذات، ومع ذلك نسأل أنفسنا عما يفكّر به، وما يشعر به، وعمّن يكون في حقيقته. ولكن مهما كان هذا الحضور الذي لا يخبر بكل شيء عن نفسه، فهو هبة مؤكدة لأنه يبقى في صورة غرابة مختلفة عن الذات. «في هذا المصير هناك كيان إنساني آخر يعهد إليك بنفسه». وإذا كان حضور الآخر يُحدث إقتحامًا مفاجئًا لحياتنا «فليس في استطاعتنا ولا في قدراتنا ما يمكن أن يوقف هذا المَدّ».

كان هايدجر وحنَّة عشيقين منذ فترة حين تبادلا هذه المراسلات في بداية عام 1925. كان الموقف معقَّداً ومؤلماً. فقد عاشا علاقتهما في السر. كان يكبرها بسبعة عشر عاماً، وكان متزوجاً ولديه طفلان،

---

(1) Hannah Arendt-Martin Heidegger, Lettres et autres documents 1925-1975, Gallimard, 2001.

بينما هي طالبة تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً. كانت تشعر بالقلق إزاء مستقبل علاقتهما، من ناحية مشروعيتها. أما بالنسبة له، فعلى العكس، كانت التساؤلات لا تعنيه، فالحب لم يترك لهما خياراً سوى «أن ينفتح كل منّا على الآخر وأن نترك الأمور تسير على ما هي عليه». «فلندع الموجود يوجد» كان ذلك هوالتفسير الدقيق للحرية الذي قدمه في رسالته عن الإنسانية[1]. الطريقة الوحيدة للحب هي أن يترك كل منّا الآخر ليكون ما هو عليه بحريّة. من هنا جاء الاستشهاد بالقديس أوغسطين الذي لازم أرندت طوال حياتها، حتى إنه ليس من قبيل المصادفة أن تختار موضوع رسالة الدكتوراه بعنوان «مفهوم الحب عند أوغسطين»: «أريدك أن تكون ما أنت عليه». إذ تتجذّر الثقة من خلال تلك الحرية، ففيها يكمن تأكيد الحب. أن تحب إذن هو أن تحافظ على «الآخر» وأن تتركه يكون ما هو عليه، أي دون أن تحاول تملّكه. أن نستسلم لما يتجاوزنا، فلا نستطيع أن نتملك تلك الهبة ولكننا نستقبلها فقط. «أن يكون الحب، فهنا يكمن ذلك العبء المَرِح المقدّر للوجود كي يستطيع بدوره أن يكون». إذن فالحب هو ما يجهّز الوجود. تلك الفلسفة كانت «محبوبة»، فقد شغل فيها الحب مكانة بارزة.

ماذا قالت أرندت في يوميات الأفكار؟ قالت إن «الحب قوة الحياة، في المقام الأول، ونحن كائنات حيّة لذلك فإننا نخضع لأوامر هذه القوة. ومن لم تصبه هذه القوة لا يكون حياً، ولا يعدّ جزءاً من الكائنات الحيّة». ولكن يبقى «العبء»! أي المهمة والمسؤوليّة التي تقع على كاهل من يستقبل تلك الهبة ويتمنّى أن يعيش الحب من دون

(1) Martin Heidegger, Lettre sur l'humanisme, Aubier, 1964.

أن «يشوّهه». إن العرفان الذي نشعر به، تلقائياً، تجاه المحبوب، الذي يعد وسيطاً لعودة هذه المشاعر إلينا، يتحول إلى «أمانة تجاه النفس»، كما قال هايدجر. وأن تكون في خدمة الحب يعني أن تحافظ على تلك الهبة يقظة كما كانت حالتها في يومها الأول». أهو المعنى الأوّلي للإخلاص؟

نلاحظ الانجذاب الهائل والاضطراب الذي يكمن وراء تلك الأفكار عند حنَّة أرندت، الشابة الحالمة التي كانتها في تلك الأيام. وفي الظلال، ذلك البورتريه الذاتي القَلِق، الذي أرسلته إلى هايدجر، تحدثت فيه عن «التفاني الراسخ تجاه إنسان وحيد»[1] الذي تشعر به تجاهه. ومع ذلك فالأمر يتعلق هنا بحب مستحيل. ما من شك في أن هايدجر أحبّها، وأنه ساعدها على التحقّق حين دفع بها لتكون كائناً حراً. إلا أنه رفض بصرامة تغيير مجرى حياته لأجلها. بالتأكيد كان لهما عالمهما ولكنه عالم متكوّن من لحظات خاطفة. كانت اللحظات التي لها «السيادة» هي: «من 5 إلى 7» وهي الأوقات الأكثر ملاءَمة بالنسبة له والأكثر ألماً بالنسبة لها. كانت تريد المزيد. أن تكون «ملكه»، وأن تعيش إلى جانبه. بينما أراد هو أن تكون حبه الأناني وأن تظل ملهمة ابتكاراته النظريّة. أما مسألة أن يترك زوجته فقد كانت لا تقبل النقاش. لذا كان على حنّة أن ترحل هي. وإذا رفضت أن تكون هذا النجم المضيء العابر في حياته فلن يحاول استعادتها، ولكنه في الوقت نفسه، لن يفقد الأمل في الاستيلاء عليها مرة أخرى.

في عام (1929)، في برلين، تزوجت حنَّة من زميلها جونثرن ستيرن

---

(1) Cité par Elisabeth Young- Bruehl, Hannah Arendt, Athropos, 1986.

الذي قابلته في العام 1925 في محاضرة لهايدجر، ولم تكن تحبه إطلاقاً. وفي يوم زفافها كتبت إلى عشيقها القديم: «لا تنسَني». ظلت السيطرة قائمة حتى العام 1933 حين التحق هايدجر بالحزب النازي. وبعد أربعة أشهر من «خُطبة رئاسة الجامعة» الشهيرة التي ألقاها في جامعة فريبورج، هربت حنة من ألمانيا لتعيش في باريس. حيث أدارت الفرع الفرنسي للمؤسَّسة الصهيونية «إلياه». وقابلت في عام 1936 من سمَّته «حبها الكبير»، الفيلسوف الألماني المنفي هاينريش بلوخر Heinrich BlÜcher، أو سبارتاكوس السابق في الحزب الاشتراكي. وهربت معه في عام 1941، حاملة خمسة وعشرين دولاراً في جيبها. هربت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فرّت من ويلات الحرب، تاركة خلفها «خوف الطفلة». أما «الثعلب» هايدجر، الذي أصبح «ميتاً» في نظرها، فقد بقي محاطاً بنادي المحبين من طلابه وزوجته الشنيعة.

روحي الحبيبة

كانت زوجة هايدجر تشبه أخت نيتشه قليلاً، يبدو أنها كانت مكرّسة لتبقى أحد مظاهر الظلال الضارة. والسبب بديهي، كانت مشهورة بمعاداتها للسامية، تشبه الخفّاش الذي يبسط منقاره وأظافره على اهتمامات زوجها العظيم وأبنائها. صاحبة معتقدات قوميّة اشتراكيّة، وتعزَى اليها «الحماقة الكبرى» التي ارتكبها زوجها وجعلت منه لفترة من الوقت رئيس جامعة فريبورج. كان لنشر خطابات هايدجر إلى «روحه الحبيبة»[1] في عام 2007، الفضل في إبراز الدرجات اللّونيّة لتلك اللوحة البسيطة في ظاهرها. إذ كنا نعتقد بأننا وقعنا على علاقة قائمة

---

(1) Heidegger, Ma chère petite âme, Seuil, 2007.

على الإذعان البورجوازي وعلى طبخة شريرة طهتها ساحرة المنزل. لنكتشف وجود ارتباط عاطفي عميق يربط بينهما، إلى جانب عدد هائل من العلاقات العاطفية في حياة هايدجر حتى بلوغه الثمانين. من طالبات وشاعرات، إلى أميرات وسيدات مجتمع، وجميعهن يصغرنه بفارق في العمر، متبعاً المسيرة الكلاسيكية لدونجوان هَرِم. وإذا كانت حنة أرندت هي «عشق حياته»، كما أكد لها عند لقائهما في العام 1949، إلا أنها لم تكن الوحيدة التي استسلمت لسحر الفيلسوف أو لشهيّته الحسّية. إلا أنه دائماً ما كان يعود إلى زوجته ألفريد، محطته الثابتة و«وطنه».

حين تعارفا في فريبورج في العام 1915 كانت تدرس الاقتصاد السياسي في الجامعة، وواظبت على محاضرات مارتن، الذي كان يكبرها بستة وعشرين عاماً. وانطلاقاً من المنطق ذاته، حاول غواية تلميذته ذات الاثنين وعشرين عاماً. كان وسيماً ذا عينين زرقاوين، وأقصر منها ببضعة سنتيمترات وشعره أسود مجعّدًا. وكانت هي بروتستانتية تنتمي لأسرة ميسورة الحال، بينما كان هوكاثوليكيّاً وابناً لخادم الكنيسة في قرية في باد- وورتمبرج وينتمي لأسرة قرويّة فقيرة عاشت في قلب ألمانيا. وذات مرة وصفتهما أرندت وهي تتحدث مع زوجها الثاني بلوخر قائلة: «كانت حالة كلاسيكيّة من الارتباط الشعبويّ- النخبويّ»[1].

الدين والتربية الروحيّة كانا ما زيّنا رغبة هايدجر في ألفريد عند بداية العلاقة. كتب ذات مرة «إذا لم يكن الحب سوى شبق حيواني، لكنت أفضّل اليوم أن أغرق في الفراغ». خلال إحدى نزهاتهما في

(1) Hannah Arendt- Heinrich Blucher, correspondence 1936-1968, Calmann -Levy, 1999.

شوارع برلين في عام 1918، وكان يصف لها «الجو غير المحتمل من الجنس المدفوع بشكل اصطناعي نحو درجة من السوقيّة في حي ريدريشستراس» الشريان الشهير لنزواته وعاهراته، حين كان مجنّداً في الجيش الألماني. كان بالنسبة له الرمز الأساسي للفساد الذي يثقل على كاهل المدينة. كان يفتقد «العظمة الإلهية البسيطة» كما قال هايدجر. «لقد فقد الناس أرواحهم حتى قبل أن تصبح الحرب رهيبة بالنسبة لنا»، قال هايدجر تلك العبارة ببروده الشهير، البرود الذي لوحظ حين لم يحرّك ساكناً وهو يرى زملاءه اليهود يُفصَلون من الجامعة في عام 1930. تضمّن هذا الفصل أستاذه العجوز هوسّرل، مكتشف الفونومينولوجيا، والذي يدين له بكل شيء تقريباً.

أراد هايدجر أن يتحمَّل هو وألفريد مسؤولية واجب ابتكار الظروف اللازمة لعودة الربّ الذي قدّر لهما أن يكونا معاً، في مواجهة الانحطاط المزيّف للعالم الحديث. كما تمنّى أن يَرْبى أطفالهما «وسط مشهد الجماعة الأدبيّة» التي تمثل «الكنيسة غير المرئيّة». «رعشات الأبدية» شعور «بإحترام مؤلم» إزاء «الأعجوبة»، «السعادة الكبرى» الساحقة، «يد الملاك» «للنفس» التي تبذر الورود. هذه الدفعات الصوفية المغشوشة إن لم تكن بصراحة بلهاء لا يَنْدُرُ وجودها في كتابات الشاب سواب. وتحوَّل الزواج مذّاك إلى «مهمة إنسانية أصليّة»، ومنزلهما إلى «عشّ تتجمع فيه الروح والطهارة والطيبة». وينبغي أن يوفر للفيلسوف الحرارة اللازمة «للراحة عند عودته متعباً من البلاد البعيدة ذات الأسئلة المعقّدة». وبذلك كان الهدوء وإنكار الذات بالنسبة لهايدجر هما سمات «الطبيعة النسائية» التي ينتظر تذوّقها عند زوجته. إنها بالتأكيد لحياة مليئة بالتضحية لتلك التي تقطع دراستها وتبقى وحيدة معظم الوقت في المنزل، متقمّصة شخصية «القديسة».

تلك القصة عن الزواج لا تمُتُّ بصلة مع الأسف إلى «حيوان الحب البرجوازي» الذي يظن أنه يزدهر «بفضل محتويات وأشياء مشتركة». فأن نعيش معاً «في منزلها»، أو أن نسافر حاملين فرشاة أسنان لاثنين، لا تخلق عاشقَيْن في عيون هايدجر. فقد نشعر بالسعادة، ولكن ذلك لن يكون إلا بسبب الحكايات والنوادر المتبادلة أو الصور التذكارية في تاج محل مثلاً. إنه لحظات سحر متجددة دوماً، وتقرّب بين الإثنين بلا أدنى شك، ولكنها لا تكفي لتأسيس هذا «الجانب الخارق في الحياة» الذي يمثّله الحبّ حين ينقضّ. تتلخّص فرصة العشاق بالنسبة له في «القدرة على إيجاد الآخر، على الرغم من أي شيء، في أشكال الحياة النسبية والحفاظ عليه لبعض ثوانٍ». حينئذ تصبح اللحظة هي المطلق. ويأخذ الزمن كامل قيمته على صعيد انتظار وتوقّع كائن «مليء بالثقة في الارتباط الذي سيعود»، أو على صعيد الذكريات «المليئة بالعرفان» حيث «يستمتع المرء بالهبة التي مُنحت له». المحبوب غائب، ولا أزال أحبه مع ذلك. هجرني الحبيب، وأنا أتمتّع الآن ببهجة هذا الحب القديم. الحب إذن هو مثال على نشاط ممتد «في مَدّه الذي لا ينقطع».

لم يكن حباً برجوازياً، إذن، ولا ارتباطًا قائمًا على «العقل»، إذ ندَّد هايدجر بكليهما بفزع شديد على الرغم من هروبه العاطفي المستمر والمتعدد من زوجته: «الحب الضروري». هل كان هايدجر وألفريد هما سارتر ودو بوفوار منطقة «الغابة السوداء»؟ صحيح بدرجة ما، فالكثير من الصراحة النسبيّة كانت تسود علاقتهما. والدليل أنه في عام 2005 ألقي الكثير من الضوء على زواجهما عندما نشرت مراسلاتهما في ألمانيا، وأظهرتِ أن هيرمان، الابن الثاني لهايدجر ومالك الحقوق الأدبية لمؤلفاته كافّة، هو في الحقيقة الابن البيولوجي للطبيب فريدل

كايسر، صديق طفولة الفريد. وهو الاكتشاف الذي يبدو أنه لم يؤثر إطلاقاً على الحنان الأبوي لهايدجر تجاه الطفل. وتنبغي الإشارة إلى أن رد فعله على اعتراف زوجته له في عام 1919، كان شديد اللياقة، ويدل على عَظَمة حقيقيّة. ومن دون الخوض في التفاصيل الكاملة وتحليلها نذكر هنا أنه أجابها قائلاً: «أعرف منذ وقت طويل أن فريدل يحبك». وأكد لها أنه يراه خسيساً. كما فضّل أن يذكّرها بأيامهما الحلوة خلال فترة خطوبتهما في عام 1916، ثم أكد لها «ثقته المتفهّمة». «وهكذا خلق التباعد المعتاد نوعاً من الاقتراب المطلق» كما أكد هو. وما يهم في نهاية الأمر «هو أني متعلّق بك للأبد». وهي طريقة أخرى لقوله إنه مع الوقت نستطيع إقامة رابط بين الأساسي والثانوي. ثم يختتم قائلاً: «فلنحافظ على عمود العلاقة بيننا». بقي القول إنه قد يكون فعل ما فعله بدافع الانتقام، وهوالذي ذكّرها بغلطتها بعد مرور خمسة وثلاثين عاماً على وقوعها، في حين أنه لم يكفّ عن خياناته.

الثنائي الوجودي الألماني

حين وقع هذا الشجار بينهما، كان مارتن يعاشر ماريلين بوتخر وهي مؤرِّخة فنون في الخامسة والثلاثين من عمرها، وكانت قد وقعت في الفخ هي الأخرى في واحدة من محاضراته. وما كتبه من صفحات في 18 إبريل (نيسان)1918، وتضمنت ذكراً لتلك العلاقة المؤلمة لألفريد، لم تخلُ من ذكر «اتفاق الشفافية» الذي كان مبرماً في التوقيت ذاته بين سارتر وكستور. هل تكمن الثقة «في وضعيّة قبول كل ما يمكن أن يحدث ولا ينهي مصير ارتباطنا» فحسب؟ إن ارتباطاً استمر عقوداً، مقاوماً تحديات الحياة المشتركة، لا يمكن أن ينفكّ، كما أكد مارتن. «إن الثقة هي القدرة على قول نعم على ما كان مختفياً وعلى المَسكوت

عنه». في ظل تلك الحرية يصبح لا مكان «لأشياء تحدث في الخفاء». تزامنت تلك «النعم» التي منحها إياها مع اعترافها له بأصول ولده هرمان وحقيقة والده. القبول بحياة حميمة ومستقلّة بشرط التبادليّة، وهو وعد حافظ عليه وأسّسه زوجان استطاعا الرهان على لحظة حبهما القصوى على المدى الزمني الطويل. مثلهما مثل عاشقي فلور[1]، عاشا حياة عاطفية وجنسيّة مزدحمة للغاية، وطالما سعيا لفرض قانونهما العشقي في الحياة على الأطراف التابعة التي تتقاطع مع مسارهما. كثيراً ما كان هايدجر يحث ألفريد على إقامة «تقارب اختياري» مع عشيقاته، تماماً كما كان يطلب من عشيقاته احترام الديمومة الأساسية لعلاقته بزوجته. بل إن ألفريد حاولت مرات عدة إقامة صداقات مع غريماتها الأكثر خطورة. وحين عادت علاقة حنة أرندت بعشيقها القديم بعد ستة عشر عاماً من القطيعة كان لقاؤهما تحت أنظار زوجته.

لم يكن هايدجر يجهل أنه في مثل هذه الوضعيّة العاطفية «يستمر الألم». وقد أظهرت سيمون دو بوفوار هي الأخرى في رواياتها الجانب شديد القسوة في هذا البناء. كانت ألفريد هي التي تألمت أكثر منه بلا شك بحكم غيرتها. ففي أعماقها، كانت تعيش مغامرات زوجها مع عشيقاته الشابات، واللواتي غالباً ما كنّ يشاركنه العمل، بشكل مأساوي. ففي إحدى الرسائل التي لم ترسلها له قط، وكتبتها في يونيو 1956، عبّرت عن تلك «المرارة» التي كان يلومها عليها هايدجر في بعض الأحيان. «أتبحث عن وطن عند امرأة أخرى، واحسرتاه مارتن!! ماذا أصبحت أنا إذن؟» ثم سألته، وهو الذي قضى سنوات يدرس دلالات اللغة «هل فكرت يوماً في ما يعنيه كلام فارغ وكلام أجوف؟».

---

(1) جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار.

وقد نشعر بالرجفة حين نقرأ بعد ذلك بسنوات ما كتبته على هامش بطاقة المعايدة التي أرسلها لها زوجها في عيد ميلادها، «مقطع من خطاب لمارتن كتبه في العام 1918، نموذج خطاباته لعشيقاته العديدات». بحيث من الممكن أن نخمِّن أنها سعدت بالأزمة القلبية التي أصابته وهو في عمر الواحد والثمانين لتنهي مرحلة زير النساء وتقصره على مملكته الوحيدة. وفي أحد الأيام، كان على «موعد مع امرأة»، هي التي دوّنت على ظهر خطابه العبارة السابقة، ثم أضافت «إن الأزمة التي رسّخها هنا، قد تفاقمت تماماً، فلم نكن أبداً بهذا الانفصال عن بعضنا البعض». ومع كونها عبارة أليمة إلا أنها تظل برهاناً حقيقيّاً على الحب. وقد أفضت لحفيدتها التي عهدت إليها بنشر تلك الرسائل، بأن تلك الأيام الأخيرة مع هايدجر كانت أجمل أيام حياتها. حيث عاشا حبًّا بين اثنين موجودَيْن معاً، «حباً متعذِّر الاختزال»، حباً يولد داخل الذات في التّو بالقرب من الآخر. حباً يجعلك تتكيف مع العالم في الوقت الذي يكشفه لك . ترجع تلك «العيشة المشتركة» جزئياً إلى زعزعات سنوات الجنون التي عاصراها معاً حيث بدآ يجرِّبان أنفسهما في طرق جديدة لممارسة الرغبة. بمعنى ما، فقد شكّلا زوجاً (couple) ينتمي حقاً إلى العصر الوجودي. وقد يتوجب عند الحديث عن حالتهما أن نستخدم عبارة «زوج وجودي قروي، منافق ومستسلم لمصيره دينيّاً» التي استخدمها كل من آلان باديو Alain Badieu وباربارا كاسين Barbara Cassin في المقدمة التي حرّراها للمراسلات بعد نحو خمسين عاماً[1].

---

(1) "Ma chere petite ame" Seuil, 2007.

قهوة في المنزل الألماني، وديكور وجَوّ متغير وصارخ، تماماً مثل الجوهر العميق. على العكس من سارتر، كان هايدجر يشعر بالتأثيم إزاء ألفريد، وإذا كان يردد بانتظام أنه سعيد لأن الأمور مستقرة في نصابها بينهما إلا أنه كان «حزيناً» في الوقت نفسه «لأخطائه وطيشه». «أسقُطُ في نوبات من الحزن والأسى داخل نفسي حين أرى أن تلك السقطات تؤلمكِ»، هذا ما كتبه في عام 1952. وأحيانا كانت تبدو عليه علامات الجبن، ويحاول تبرير ما يفعله واتهام إيروس! «ضربات جناحَي هذا الإله تلطشني في كل مرة أطرق فيها طرقاً جديدة غير معتادة». كان يصف نفسه كما لو كان ملبوساً من شياطين، في حين أن الشياطين لا تستطيع، في أشد حالات نشاطها الشرير، أن تفعل أكثر مما يفعل هو. شبّه هايدجر نزواته بوثبات نحو الحقيقة المخفيّة التي ينبغي عليه أن يكشفها. لن تكون هناك رغبة إلّا رغبة الآخر، وهذا الآخر يجسّد حقيقة منقّبة. وتعد تلك المغامرات التي تقع خارج إطار الزواج وسيلة حتميّة لإعادة تنشيط سيرورة الإبداع ولتسمح له باستكمال مهمته. أو كما قال «وسيلة غير مكتملة» ولكنها ضرورية لإثراء فكره. وتورّط، دون لَعِب سيئ بالكلمات، للآلة الانعكاسية. لأنه «بالإرادة لا نصل إلى شيء حول هذه النقطة». فالحقائق لا تتأكّد بالعمل وحده. وقد أضاف «إذا كانت روحي مفعمة بالعاطفة، فالصوت قد يخبو أما المصدر فلا ينفد أبداً». إن لم يكن هناك جنس فليس هناك موجود. أمام هذا النوع من العبقرية الديناميكيّة، لم تستطِع ألفريد شيئاً سوى الإذعان.

من المؤكد أنه يسهُل اكتشاف هذا التنكّر المفاهيمي من أجل إشباع رغبة الإغواء التافهة. فهو ليس الأول ولا الأخير من بين المبدعين

الذين استخدموا إبداعهم كغطاء لنَزَقهم، كما أنه ليس الوحيد الذي أقنع نفسه بحيوية وضرورة هذا النَزَق. لا بُدّ من الإشارة هنا إلى أن النساء اللواتي عبرن في حياته مثّلن بالنسبة له الإلهام، ولا شك أن حنة أرندت كانت الأكثر تأثيراً بينهن، وبالتالي كانت أكثر من تحسّر عليها.

لقد ذكر سارتر في كتابه الوجود والعدم، أن بروست وستاندال أظهر أن الحب لا يمكن أن يُختزل في مجرد رغبة في امتلاك امرأة، ولكنه يهدف إلى امتلاك العالم بأسره من خلال امرأة. إذن فربما هي مبادرة من ذلك النوع الذي دفع بهايدجر إلى الإكثار من غزواته. الولوج إلى الحقيقة عن طريق الحب كانت أيضاً ملاحظة القديس أوغسطين في الكينونة والزمان. مثله مثل دونجوان، الذي كان ينتقل من امرأة إلى امرأة بحثًا عن المرأة، أي بحثاً عن حقيقة المرأة، أما هايدجر فقد جال بين طالبات الدكتوراه الجميلات، والشابات المتحضِّرات، والفنانات، بحثاً عن حقيقة الموجود.

كما نلاحظ أن هايدجر لم يبدُ عليه أنه أفلاطوني. ومهما كانت درجة السموّ الروحاني التي يتطلبها الحب، فهو يظهر في النشوة الجنسيّة أكثر مما في أي مظهر آخر. إذن فإهداؤه كتابه عن أفلاطون إلى ألفريد لم يكن بدافع بريء. كما أن إرساله بعض أبيات من أجاتون لسوفوكليس في التوقيت نفسه إلى حنَّة أرندت، بدافع التحية، لم يكن أمراً غريباً. أرسل لها الجزء الذي تمجّد فيه الجوقة إيروس: «ومن بين جميع الآلهة وجميع البشر الفانين لا يوجد إنسان قادر على الإفلات منك». وإذا كانت مهمة الفيلسوف تنطلق بواسطة الإشباع الشهواني، فالمنتج الأدبي يهدى إلى الزوجة القدّيسة عند تمامه. العشيقات هنَّ المصادر أما ألفريد فهي الوعاء. ويتمحور الإخلاص التناقضي للخائن

حول «أن تكون في توافق تام مع هذا، وتحتفظ، على الرغم من كل شيء، بما يخصّك، وتتبع نوبة الطيران ثم تعود، رغم كل شيء، إلى الميناء الآمن».

مَلَكِيّة مزدوجة الرأس

في العام نفسه، في 1950، فكّرت حنَّة أرندت بدورها في مسألة الإخلاص. فكل ما كان حولها كان يقودها إليه. فبعد رحيلها في عام 1941 إلى الولايات المتحدة، تجد نفسها عائدة إلى أوروبا لتراه. وعندما قابلته ووجدته «كلباً مرتبكاً يضع ذيله بين ساقيه»[1] بحسب تعبيرها. كانت مناسبة لتستعيد مشاعرهما القديمة وعدم الأمان العاطفي الذي كانت تترك لنفسها العنان فيه. على صعيد آخر، كان زواجها يعاني من أزمة، حيث عرفت حنَّة بعلاقة زوجها مع الكاتبة روز فيتلسون، الشابة اليهودية ذات الأصول الروسيّة، والتي كانت حيويّة وحسّيّة، وتنتمي لمجموعة من الأصدقاء، مثل «قبيلة» من المنفيين. وعلى الرغم من «قابليتها المعتلّة»، انتهى الحال بحنَّة إلى أنها أدركت الأمر. واتفقا أنه لن يكون هناك سِرّ بينهما بعد الآن. وبهذا فقد أقامت نوعاً من الملكيّة ثنائيّة الرأس، من دون أي ملمح للهيمنة، فكل منهما كان مشغولاً بأن يحيا حياة مريحة، وحريصاً على فردانية الآخر. وكانا يتشاركان في وجهات النظر ذاتها إزاء «الأشياء العظيمة في الحياة»، كما كانا معجَبَين ببعضهما البعض، وحافظا على كونهما «فلاسفة متحضّرين» حتى في أثناء خلافاتهما الزوجية. كتب ألفرد كازِن Alfred Kazin في مذكراته عن «الإثارة الزواجية» بينهما أمام أي اكتشاف فلسفي لم يشك فيه حتى

(1) Letter de Hannah Arendt a son amie Hilde Frankel, 10 fevrier 1950.

تلك اللحظة. وكانت تعاند هاينريش حتى وإن كانت توافقه الرأي، كانت تلك المشاهد هي المحاضرة الأكثر إثارة التي حضرتها بين رجل وامرأة متزوجين»، وقد أهدته كتابها أصول الشمولية، الذي سمَّته «كتابنا»، أو«ابن فكرهما». ومع ذلك لم يكن الأمر يتعلق بصداقة ثقافية بسيطة. وقد أكدت حنة «أنه لا يمكن لصداقة أن تصمد أمام متطلبات الزواج». «أما الحب، فإنه يستطيع. حين يُختَزَل الزواج كمؤسسة إلى فراغ لصالح القرار الحر لكائنين».

فيما يبدو أن حنة قد تجاوزت الغيرة، تماماً مثل هاينريش الذي شجّعَهَا على معاودة الاتصال بأستاذها القديم، ونقلت إليه كل مراسلاتهما وقالت له إنها في أثناء ذلك كانت تفكر فيه. وحتى حين شعرت بالقلق من غضب ألفريد كان هاينريش يهدّئ من روْعها قائلاً: «اتركيهم يشعرون بالغيرة مما يحدث هنا، في منزلنا، «فمن لا يغير أبداً» ينتظرك، ويحبك حقاً على طريقته». وأجابته «نعم يا حبيبي فقد نضج قلبانا في علاقتهما ببعض. وتلك الرابطة لا يمكن أن تهتزّ، مهما تتابعت مسيرة الحياة. هؤلاء المجانين الذين يظنون أنهم مخلصون إذا تخلوا عن نشاط الحياة واتحدوا معًا ليكونوا واحداً حصرياً، هؤلاء ليسوا فقط بلا حياة مشتركة ولكن بلا حياة على الإطلاق. وإن لم يكن ذلك يحمل خطورة، فإنه ربما يتعين علينا إخبار العالم يوماً ما كيف يكون الزواج». أما الخداع الذي لا تحتمله حنَّة أبداً فلم يكن يتمثل في الخيانة بل في الهجران. في نكران الحب الذي جمعهما في المنفى في باريس في عام 1936، والذي جعلا منه ملاذهما، بل كان «الجدران الأربعة» التي تجمعهما في أيام حالكة. ولهذا فإنه حين كانت تجوب العالم لتتحدث عن أصول بديهية الشر، إذا تأخر «بيتها المتنقل» في الاتصال بها كانت

تلك المرأة القوية تتحول إلى أنثى مغلوبة على أمرها. وقد كتبت له في عام 1950 أنها لا تستطيع «أن تندفع مع منحدر العالم، مثل إطار انفصل عن السيارة، الذي لا يشبه منزلي على الإطلاق، من دون أي شخص أو أي شيء يمكنني الاعتماد عليه». كان بلوخر يحب بإخلاص لأنه لم يكن حبيباً مخلصاً، فهدّأ حبيبته المتمثلة بـ «كانط» قائلاً: «بيتك هنا ينتظرك، من دون أي لحن من ألحان الأشباح».

جريمة عدم الإخلاص

في كتابها يوميات الفكر[1]، والذي كان بمثابة مخزن فلسفي لها، اقتطفت حنة نهايات مقاطع حديثة ومتعددة من حياتها. وها هي تميز بين «عدم الإخلاص غير البريء» والذي يتجسد «بتقدم الحياة والعمر»، وبين «جريمة عدم الإخلاص العظمى» التي «تغتال كل ما كان حقيقياً» و«تدمر ما يحمله الإنسان للعالم». وهنا تتموضع «الإبادة الحقيقية» لقلب الإنسان الذي تعرّض للخيانة. بالوفاء، والوفاء فقط، نمتلك ماضينا. إذ إنه الوحيد القادر على أن يؤكد لنا أن تاريخنا كان ولا يزال هو ما عشناه بالفعل. فوجوده بالكامل معتمد علينا نحن، كما أنِ وجود الحقيقة في هذا العالم من عدمه يتوقف علينا أيضاً كلية. وإذا كانت إمكانية الحقيقة و«الحقيقي» غير موجودة، فلن يكون الإخلاص سوى «عناد» أخرق. والعكس بالعكس، إذا لم يوجد الإخلاص، لما وُجدت الحقيقة بدورها، ولكانت «غير واقعية بالمرة». وبسبب هذه العلاقة بين

---

(1) خطاب من بلوخر إلى حنة أرندت بتاريخ 7 يونيو 1952 ومن أرندت إلى بلوخر في 13 يونيو، في
Correspondance 1936-1968, op. cit.

الإخلاص والحقيقة ينبغي «حذف» مفهوم الإخلاص «بكل تصميم». فنحن لا يمكننا أن نُجبر الإخلاص على أن يكون ما نحتاجه منه، وهو أن يكون حقيقياً، إذا لم يكن هو كذلك، ولم يكن كذلك في يوم من الأيام. والرد على «عدم الإخلاص كما نعرّفه بشكل اعتيادي» بالغيرة، يُفسد الإخلاص. إنها لإرادة مَرَضية تلك التي تجعلنا نحجّر الأشياء، و«نسيّل حيوية العالم» التي تتحول إلى «هلع» من فكرة أن الحياة تستمر على نحو ما في مكان آخر مع شخص آخر. فعدم الإخلاص الأكثر خطورة، في عيون أرندت، و«الخطيئة الوحيدة الحقيقية لأنها تهدم الحقيقة، الحقيقة كما كانت» هي النسيان. النسيان فقط.

كانت حنة أرندت واعية تماماً لحقيقة أن «مشاعر العشق الحقيقية شديد الندرة مثل الأعمال الأدبية العظيمة بالضبط»، وفقاً لتعبير بلزاك Balzac الذي اتخذته لنفسها. وهو السبب الذي جعلها، على الرغم مما أصابها من ذعر عند التحاق مارتن هايدجر بالحزب النازي، تحافظ على علاقتهما طوال حياتها». وينبغي أن نتجاوز العفو، إذا استطعنا تحقيقه، لنصل إلى الحديث عن إرادة عدم تدمير ما عشناه بالفعل، أي «حدث» الحب. وفي بطاقة صغيرة لم ترسلها أبداً، كتبت أنه كان الرجل الوحيد الذي «بقيت من أجله مخلصة وغير مخلصة، من دون أن تكف عن حبّه». لم تكن قصة حنة أرندت ومارتن هايدجر قصة حب مخلص بكل تأكيد، ولكنها كانت قصة الإخلاص للحب.

-10-

جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار

حُرّيّة الحب

«ينتزع الحمار السوط من يد سَيّده ويسوط نفسه لكي يصير سيداً، ولا يدرك أن فانتازيا حياكة غرزة جديدة في لباس سيّد لا تتأتّى بهذه الطريقة».

فرانز كافكا، تأملات حول الخطيئة، المعاناة، الأمل والطريق الحقيقي.

ها قد وجدا المَخْرَج لمتاهة استمرت آلاف السنوات. المَخرج من أبواب تُصفق، وأكاذيب بائسة، وأنماط شنيعة من الطلاق، ويوميات تُطفَأ في رتابة البريق المتلألئ للقبلات الأولى. حيث أزال هذا الزوج المرموق في مكان ما من شارع السان جرمان العريق، في سنوات الثلاثينات من القرن الماضي، تلك التعويذة الأزلية التي طالما قَبَعت فوق الحب وأثقلته. وباتت الشفافية ممكنة، أخيراً. ولم يعد لفخّ الغيرة من مكان. وغُلبَت المعاناة. رباط عاطفي متين ومطلق ومع ذلك غير حصري. ها هي أسطورة «عشّاق مقهى فلور»، والمسرحية الأولمبية التي لعبتها دو بوفوار حتى نهايتها، متذكّرة إياها وهي مفتونة بملحمتها الذاتية.

كانت الحقيقة أقل مجداً، نعرف ذلك منذ أن تتابعت المراسلات الخاصة والتعريات العنيدة بينهما، وبدأت مراقبة فراش الثنائي الوجودي بكل أنواع المُخبرين مبيّتي النيّة. أكان حباً، ذلك الرباط الذي جمع هذين المفترسَيْن ذوي الدم البارد؟ فلنسخر أكثر فأكثر! «كان نوعاً من الشعوذة خدع كثيرًا من الناس»، كما كتب ماثوران موجارلون المعروف باسم فرانسوا جورج المتدرِّب الشاب في مجلة «الأزمنة

الحديثة»[1]. حين بثّت أحداث مايو 68 الإحباط في أصحاب الميول التفاعليّة، لم تكن التجارب التحرريّة لسارتر وسيمون دو بوفوار إلا في طور البداية.

مشعوذان أم راقيان؟

هلويز وأبيلار[2] القباب الوجودية ، كانا ليكذبان إذن في ما يخص حياتهما العاطفية أكثر مما فعلا في ما يخص المسائل السوفياتية. ويداريان خيبتهما، مُخفيان، بحالة من التنكّر، موقفاً يكاد يكون لزوجَين عاديّيْن. أهو«حبٌّ عابر متكرّر» ما سيتيحه لهما «حبهما الضروري»؟ خيانة، والتي، كي تستمر تبادليّة وطقسيَّة، كانت برجوازيّة ثابتة. ها نحن نسمع من يتناولها بسخرية لاذعة، كما أكدت الروائية دوريس ليسينج Doris Lessing بعد حصولها على جائزة نوبل في أكتوبر من عام 2007 بعدة أيام، إذ قالت إنها لم تصدق أبداً هذا النموذج من «الثنائي الثوري المعدنيّ» وبدت لها دو بوفوار «أشبه بامرأة» وكذلك بدا لها سارتر «أشبه برجل». والأبدية في مواجهة زير نساء وآلة للمعاناة، هي آخر كلمة يمكن أن تواجهها علاقة بين رجل وامرأة، حتى بالنسبة لنسَويّة إنجليزية تاريخيّة في ما يبدو.

لكن إذا نفينا الأصالة عن ارتباط سارتر وامرأته «السارترية العظيمة» نكون قد أطلقنا عاصفة تفوق ما أطلقته النسويات في الماضي حين

---

(1) Mathurin Maugarlonne ,A la rencontre des disparus ,Grasset.2004 ,

(2) اسم مسرحية تتكون من ثلاثة فصول للكاتب روجيه فايّان Roget Vailland وظهرت في عام 1947. اسم المسرحية يتعلق باسمَيْ الشخصيتين الرئيسيتين اللتين مثّلتا بطلَيْ قصة حب مضطربة دارت في القرن الثاني عشر. (المترجمة).

وصفوهما كزوج من العشاق، نجيا بأعجوبة من التآكل التقليدي. «زوج من الكلمات والأفكار المتبادلة»، تلك كانت العبارة التي كتبتها دو بوفوار عن طيب خاطر لمعجبة شابة كانت تبحث عن فهم مغزى علاقتها بسارتر. سريعاً ما أصبحت علاقتهما علاقة عقلية بحتة. إخلاص صلب لا يخلو من حنان جارف بالتأكيد. أما الجنس والحرارة والوساوس والدموع فكانت مع الآخرين بلا شك. الأمريكية السمراء دولوريس، ونيلسون ألجرين الوسيم، وبوست الصغير، و«الأختان كوزاك» أولجا وواندا، وبوردان الشابة، ولينا زونينا، والمترجمة الروسية التي تملّكت سارتر لعامين كاملين، وكثيرون غيرهم.. مشاهد من الحياة متبعثرة في كل مكان، بل ومشاهد رعب. كمشهد بيانكا لمبلان وهي حبلى، الذي دفع بالزوج الأدبي ليمنعاها من استخدام حياتها في واحدة من «رواياتهما التافهة»[1]. لم يتجاوزا إذن عذابات الغيرة، ها هما العشيقان قابعان داخل خزانتهما، أما عن المشاعر الحقيرة فسيحملونها على الآخرين، وسوف تتعدّد. بقي الحب على حاله بعد سارتر ودو بوفوار: مشكلة مؤلمة.

الارتباط... قلعة حصينة

أهي ملهاة عادية في نهاية الأمر، ملحمة العشق المتكرر لسارتر وسيمون دو بوفوار؟ أم ترتيب فاتر في مأمَن بشكل تعسّفي من غوايات اللاتطابقية؟ لو كان الأمر كذلك لكان بسيطاً وملائماً وهزلياً في الوقت ذاته. ولنسيا الكتب، ونسيا التحليل المُربِك الذي تضمنه كتاب الوجود

(1) Bianca Lamblin , Mémoires d'un jeune fille dérangée, Balland , 1993.
لويز فيدرين، هو الاسم المستعار الذي أطلقته عليها دو بوفوار في خطاباتها إلى كستور وإلى آخرين.

والعدم، كذلك الحال نفسه بالنسبة لروايات دو بوفوار التي تضمّنت وصفاً للقسوة الجوهرية الكامنة في ميثاق علاقتهما أكثر مما تضمّنته من الصبغة الرسمية أو استكشافات السيرة الذاتية. قليلون هم الفلاسفة الذين سيذهبون بعيداً كما فعل هذا الزوج في إدراكهما الحميم للأسر الناتج عن التملّك والقابع في نوع خاص جداً من العلاقات اسمه الحب، هذا التملك الذي لا يحوي سوى القليل من الأشياء إلى جانب رغبة يسيرة فى الهيمنة الجنسيّة والنفسية. ربما ينبغي أن نعاني بقسوة لنسبر أغوار آليات القوى البنائيّة التي يتطلبها الحب.

فلنخاطر بطرح فَرَضيّة ما: المؤسسة سارتر- دو بوفوار ليست زوجاً من العشاق، ولا هي شراكة مؤسسية أقيمت بين «ماركتين» ثقافيتين مرموقتين. إنها متراس متين في وجه العذاب العاطفي الذي عرفا تفاصيله الدقيقة أكثر من أي شخص آخر. إنها «قلعة داخلية» وفقاً للإمبراطور الرواقي مارك أوريل Marc Aurèle. قلعة ذات معقلَيْن حصينَين في مواجهة الهاوية التي قد نغرق فيها بسبب الحياة العاطفية.

لحظة الاختيار

يمكن أن نصف لقاءهما بأي شيء سوى صاعقة حب[1]. كانت دو بوفوار فتاة فقيرة لأب سلطوي، مهمَلة المظهر. وكانت غارقة في حب رينيه مايو؛ شاب مفتول العضلات وجنسيّ للغاية «له ابتسامة عريضة لكلب ماكر»، والذي سريعاً ما لا يبدي احترامه للمرأة حالما يتملّكها. وهو من سيجد لها في ما بعد التسمية الشهيرة «كستور». بينما سمَّاها

(1) Hazel Rawley ,Tête-à-tête. Beauvoir et Sartre, un pacte d'amour, traduit de l'anglais par Pierre Demarty ,Grasset.2006 ,

سارتر «فالكيري» نظراً لشخصيتها المحاربة العذراء، ولقامتها الطويلة. في حين لم يبلغ طوله متراً وستين سنتيمتراً. لم تكن عاشقة، بل وجدته قبيحاً بمنتهى الوضوح، واختارته نكاية في الشاب الذي أحرجها بعد الحصول على الشهادة في عمر الواحد والعشرين. كتبت السيدة دو بوفوار في سنوات نضجها في المذكرات: «لبّى سارتر أمنيتي التي كنت أحملها وأنا في الخامسة عشرة، إذن كان القرين، ففيه وجدت كل سمات شخصيتي محمّلة باتّقاد. حين تركته في بداية شهر أغسطس، عرفت أنه لن يخرج من حياتي أبداً». ولكن الأمر كان أكثر اختلاطاً في عقل الفتاة الشابّة[1].

«أحتاج إلى سارتر وأحب مايو. أحب ما يسببه لي سارتر، وأحب ما عليه مايو». كما أكدت أن ما بينها وبين سارتر لم يكن اتصالاً شهوانياً على الإطلاق بل «هي السعادة». وشعرت معه الفتاة خارقة الموهبة، لأول مرة في حياتها، أن هناك من يسيطر عليها فكرياً. «بعض المجانين يشعرونني بإذلال مهبلي حين يكتشفون ما في قلب بتلة الزهرة تلك من تشابك جهنّمي». تلك العبارة المدهشة للشابة دو بوفوار تكشف عن مشاعر سوف ترسم مصير حياة كاملة. إنه اختيار بين الإعجاب الرائق والمشاعر بين أفضل مدرّب فكري على الإطلاق وبين مُدلّل الجسد. سيقول البعض: ليس هذا هو الحب، ليس أن نحتاج ما يحمله لنا الآخر. وسيرد آخرون: بل هو الحب بعينه. إنه هذا الخُزي الرائع أمام من يتجاوزنا للمرة الأولى في حياتنا.

---

(1) راجع دراسة دانيال ساليناف الكاملة المهداة والمخصصة، لسيمون دو بوفوار.

Danièle Sallenaven, Castor de guerre, Gallimard, 2008.

منذ البداية، وضعا الاتفاق الشهير بينهما الذي يقضي بالحرية الجنسيّة والعاطفيّة. واعتبر المشتركون في مجلة لوفيجارو في سنوات الخمسينات الأمر بمثابة فضيحة لهم. وكمتعلّمة جانَبَها صواب التعبير، عبّرت دو بوفوار عن ذلك قائلة: «لقد شرح لي أن ما بيننا هو حب ضروري، وقد يكون من المناسب أن نمر بحب عابر». ها قد عرفنا! إذن، فهذا الاقتراح جاء من طرف سارتر. وكما قال هو في يوميات الحرب الغريبة: «الرجل العظيم» عليه أن يحافظ على نفسه حراً. وعرض رؤيته الذكوريّة حول المسألة. إنه موقف شديد الهزليّة حتى إنه، ووفقاً لاعتراف سارتر ذي القامة القصيرة، منح نفسه لعصره مثالاً للمجنون الذي يسعى للانتصار على عزوف الشابات. ومع ذلك كان دائم التذكير لهنّ بألا يتصوَّرنَ أنه من الممكن أن يتنازل عن حريته لهنّ. ولكن يوماً ما، حدث شيء آخر «دخلت اللعبة، وقبلت كستور بتلك الحرية وحافظت عليها، وكنت أبله بما يكفي لئلَّا أتأثر بذلك».

من دون وقوع في فخ العيشة المنزلية بالتأكيد، وهو ما لم يفلت من سخرية موهبة فلسفية فذّة ، آثر العودة للعيش وسط شراشف والدته الدانتيلا بعد الحرب العالمية الثانية على التعايش مع امرأة ثانية. ولم يتخلَّ عن رغبته في المغامرات الحسّية المتعدّدة، الملتهبة شعورياً في بعض الأحيان، إلا أنه كان يعود دوماً إلى «ألفريدا». ووفقاً للصورة التي اختارتها دو بوفوار وعبّرت عنها في ما بعد، فإنها كانت تجذب المطّاط اللدن لترى إلى أي مدى يمكن أن يُشَدّ، ثم تتركه دفعة واحدة كي تستشعر لحظة إلقاء كل منهما في اتجاه الآخر.

إنه اتحاد اختياريّ له توابع متعددة تدور حولها بشكل موسمي. إذن، فقد كان حبهما مجزَّأً منذ البداية.

نعم، ولكن ماذا عن الغيرة؟ لا تخطر على البال، شريطة أن نحكي كل شيء، كما أكّد الشاب سارتر. وهكذا لم يشعر أي منهما أنه مُلقًى خارج حياة الآخر، كما لم يعانِ من آلام تفوقه المحتمل. غريبة هي تلك العقيدة الراسخة القائمة على سلطة الصراحة. أمن غير الممكن أن نرى في هذه الفكرة، القائمة على أن الاعتراف بالجريمة يُبطِل كونها جريمة؟ هل هو نوع من التقديس المسيحيّ للاعتراف؟ إنه ملمَحٌ من ملامح الأخلاق البرجوازية أيضاً. أن تكون شريفاً حتى في الفسوق.

ألّا تكذب، وأن تبقى فوق الشبهات. إنه خليط عقائدي غير مسبوق على كل الأوجه. في منتصف الطريق بين السذاجة المطلقة والسخرية التامة.

وسواس العاطفة

يمكن أيضًا أن نفسّر هذا «الاتفاق» كمتراس لمواجهة العذاب العاطفي. هل يمكن أن نرى فيه حبّ ميت، ومتحنّط ليحتفظ بشكله الخارجي، تحوَّلَ في عمقه إلى مجرد صداقة تستطيع بهذه الكيفية أن تستمر وسط الشفافية؟ أن يشكّلا «نحن»، ويصدّرا هذه البداهة التي لا تتغير مثلها مثل مومياء، ويتلاعبان حتى يجدا نفسيهما أمام فشل الحب الذي يُعاش فعلياً. إننا بعيدون عما وصفه أندريه بروتون André Breton حين اعتبر أن خبرة الحب هي: «أن تعرِّض نفسك للنظرات الصاعقة للربّ، من دون دفاع منك».

هذا الوسواس العاطفي، يبدو أنه قد جُرّب من قِبل الشاب سارتر مبكراً جداً. بعد فشله الأول في إجازة التبريز في عام 1928، فسخ والدا خطيبته في ذلك الوقت الارتباط بينهما. لم تكن في العائلة حمائم سلام كما يبدو! كان ملتصقاً بها، ليس بدافع الإخلاص ولكنه كان متعلقاً بتلك الفتاة الراقية الجذّابة الضيفة سيمون جولي في. بعد ذلك

الموقف بسنوات عدة أفضى باعتراف فريد، اعترف أنه، في علاقته بتلك الفتاة، جرّب «أكثر المشاعر سخفاً» والتي لم تتملكه أبداً. «يطلق عليها الناس، فيما أعتقد، تسمية الغيرة». تلك التسمية التي عمد إلى نطقها، في ذلك اليوم، من أطراف شفاهه، لم يتمنّ أبداً أن يعيشها. على كل الأحوال ولم يجرّبها مع دو بوفوار أبداً.

جدير بالإشارة أن علاقات دو بوفوار الموازية مثل مغامرتها الجنسية مع الشاب جاك لورون في منطقة التزلج، والتي كانت مضطرمة جداً حتى إنها عرَّفته على «زوجها الأشقر» نيلسون ألجرين- لم يبدُ أنها أيقظت في صدر سارتر مشاعر مؤلمة. أما العكس فلا يبدو أنه كان صحيحاً. في الثالثة والثلاثين، كان الجنس حاضراً بينهما، وقد أفضت لعشيقها ألجرين أن سارتر رجل «متدفق ونابض في كل شيء ما عدا السرير». مضيفة أن «مسألة أن يناما معًا بدت لهما، شيئاً فشيئاً بلا طائل، بل وغير لائقة تقريباً». ونجا الجنس من الغيرة المتصلّبة، بطريقة العضو الشبح. إلا أن دولوريس فانيتي أثارتها بشراسة عند سارتر، كذلك فعل الحب الروسي الكبير لسارتر، لينا زونينا، أو«مدام ز» التي أهدى لها كتابه الكلمات والتي ألهمته بما لا يقل عن 600 خطاب حب لم يفصَح عنها للجمهور إلى الآن. غالباً ما بدا لدو بوفوار أن حياتها بالكامل كانت قائمة على كذبة هائلة. في غالب الظن، كان ذلك صحيحاً.

البوح الكامل

على لسان فرانسواز، شخصية دو بوفوار في رواية الضّيْفة، والتي كانت تمثل القرين للكاتبة، جاءت تلك العبارة: «إن عدم التشارك في كل الأمور، لهو الخيانة الأسوأ، وما من خيانة أخرى ممكنة». وهي

رواية أطلقت الملحمة الكبريتية للزوج سارتر- دو بوفوار. تُعدّ الشفافية مبدأً محفوفاً بالمخاطر وخطوة بالتأكيد على الوصول من أقصر الطرق. وهو ما يثبته هذا العمل أكثر من أي عمل آخر. كان العمل مُهدَى إلى ملهمته، أولجا كوساكيفيز. الروسية الشابة، تلميذة دو بوفوار. والتي، من فرط كبريائها ونرجسيتها الشديدين، فتنت سارتر لسنتين متتاليتين من دون أن يتوقع إطلاقاً أن يستطيع امتلاكها. كتب ذات يوم: «لقد وضعتها في مرتبة عالية جداً حتى إنني شعرت، للمرة الأولى في حياتي، بأنني متواضع وأعزل أمام إنسان ما».، كما اعترف أنه بفضل هذا الألم الوخّاز رأى «العالم أكثر قتامة وأقل نكهة».

كما أن الخطاب الذي كتبه سارتر لكستور هو خطاب كاشف أيضاً، إن لم يكن فظيعًا، وأكّد فيه على رفض الانجذاب العاطفي نحوه في مقابل تأسيس للحب- الملجأ بينهما. كان ينتظر واند أخت أولجا التي أقام معها علاقة هي الأخرى، استمرت فترة. تأخّرت، وكي يتلهّى عن انتظاره كتب إلى دو بوفوار يصف انزعاجه. «منذ علاقتي بأولجا وكل ما يمكن أن يشبه العاطفة ألوي رقبته على الفور لأشنقه شنقاً، ببعض العصبية، وبنوع من الخوف». الأمر هنا لا يتعلّق بأولجا بل بالعالم بكامله، أصبحت «ضد- المُبَلوَر» أن تقتل كل تبلور محتمل. أن تقتل الحياة نفسها ربما من أجل أن تحيا بشكل أفضل، لتُتِم عملاً أدبياً يتحدث عن حقيقة الحب القاسية.

قد نكوِّن فكرة ما عند قراءتنا للصفحات الأخيرة من رواية الضَّيْفة، الرواية التي انتهت بموت حقير لأولجا، والجوهر الغامض للرغبة السارترية، سوف يظهر لعبياً من خلال الحبكة المصطنعة لدى بوفوار.

ملّت من لعب دور الآلهة المُبَارِكة لهوَس عاطفي أربكها تماماً هذه المرة، حتى إنها «أمسكت بالشمعدان» وفتحت فرانسواز-سيمون ذات ليلة الغاز في غرفة غريمتها أثناء نومها. إذن فلا داعي للقول إن سيمون قد عرفت قسوة هذا النوع من المثلَّث العاطفي. مدهشة هي كما أن رواياتها تشكّل الكثير من الاعترافات العشقيّة التي طالما تخفّت بعناية عن الجماهير. إن ما اختارته من استشهاد مُقلِق لهيجل، ونقشته في كتابها، لهو أكثر دلالة من صفحات كاملة من كتابها المذكرات. يقول الاستشهاد: «كلّ وعي يتعقّب موت الآخر».

إذن فلماذا الصراحة تجاه كل شيء وفي مقابل كل شيء، طالما ستصبح مؤلمة لهذه الدرجة؟ نقرأ بقلم دو بوفوار في الضَّيْفة: أن تكون بلا طيّات، بلا حياء كي تتحرَّر مرة واحدة من «الغلالة الخفيّة والمخجلة» التي تولّدها الحياة الداخليّة. الشر، في الحب كما في أي شيء آخر، سيتمّ سرّاً. علينا أن نراعي إلى أي مدى نحن على النقيض من العادات العشقيّة الغربيّة والتي تمثّلت خاصة في كتاب الحياة الجديدة لدانتي، تلك الجوهرة الغزليّة التي ظهرت في القرن الثالث عشر. في الحقيقة، إن للحب جانبًا يتعلق بالتلقين السرّي، فالعاشق الذي يخفي باستمرار شعوره خلف ستائره، تمثل له نساء أخريات شاشات العرض! فالسّريّة، والحياء، والكثير من سمات النُّبل قد تحوّلت لنقائص في العلاقات الجديدة في القرن العشرين السارتري.

الأمر هنا يتعلّق بأن تحسّ بالشرعيّة التامة، وألا تؤثر فيك نظرات الآخرين في أصغر تفاصيل تصرفاتك وحياتك. هنا أيضاً نلاحظ عند سارتر ودي بوفوار خليطاً وقحاً من الإسراف الأخلاقي ومن الصرامة

الأخلاقيّة المتصلّبة. وتقاطعاً غريباً بين نوع من الصلة الفردوسيّة للأرواح وشكل من أشكال الزّهد الثوريّ. ونتبيّن فيها صدى سنوات لاحقة في حياة سارتر العجوز الذي أصبح أعمى تقريباً، ويشبه بريجنيف[1]، ومتصارعاً أكثر فأكثر مع اليسار الثقافي: «كنت مرتبطاً في شكل من أشكال الحياة المشعّة والمتّقدة بعض الشيء، بلا حياة داخلية أو أسرار». وفقاً لما أفضى به للشاب ميشيل كونتا في عام 1975.

لا كلو، ستالين أو فوريي

قد نعتقد بأن كتاب علاقات خطرة كان يتحدّث عن موضوع العلاقات بين سارتر ودو بوفوار. تلك المتعة التي مرّت بالقصة التراسليّة التي أثارتها تلك العلاقات بالتزامن مع مغامراتهما الجنسية مع شركاء آخرين. كانت تلك المتعة لتُشعِر الضعفاء بالخجل، ولتضع العلاقة بين الاثنين، في حالة شخصين آخرين بالطبع، في منطقة الإشارة الحمراء. أما عند الثنائي الوجودي فنحن بعيدون عن أرستقراطية القرن العظيم، وأقرب إلى إرادويّة طويلة المدى.

من التحرر الجنسي إلى سارتر، ربما استطعنا ترديد ما قاله سارتر عن الإلحاد: إنه «مشروع قاسٍ ويتطلّب نَفَساً طويلاً». إذن، تشكيل إنسان جديد، مفرّغ من كل غيرة وحياء، كما الواقعية الاشتراكيّة، التي تكوّن شخصاً متخلّصاً من غريزة التملك. أن يعتبر نفسه حقل تجارب لهذا الاقتلاع فوق الإنساني. وأن يستخدم الآخرين لإجراء التجربة

---

(1) ليونيد بريجنيف: زعيم الحزب الشيوعي الروسي، تقلد مناصب عدة في الحزب وترأسه حتى وفاته عام 1982. (المترجمة).

واختبارها، وألّا يتراجع أمام الإيمان المتزعزع المطلوب للتظاهر بأنها تمثّل نجاحاً صارخاً. في الحب كما في السياسة، ها هو سارتر ورفيقته الحقيقية - المزيّفة يعدّون أبناء العصر الشمولي.

ومع ذلك، علينا الإشارة إلى أن ماركس وإنجلز، مؤلّفَيْ البيان الشيوعي، لم يجعلا من مبدأ الاكتفاء بامرأة واحدة مذهباً برجوازياً، أو عودة مُحبِطة لعصر بائد، كما لم يجعلوا من تجاوزه أحد أهدافهم الثورية. ففي كتاب أصل العائلة جعل إنجلز من الحصريّة العاطفيّة درجة راقية من العلاقات الجنسيّة، ومن الزواج التقدم الأكثر اعتبارية على طريق الأزمنة الحديثة. وإذا انهارت الملكيّة الخاصة «فمن الممكن أن نؤكد تحقق مبدأ الاكتفاء بامرأة واحدة» كما كتب رفيق درب ماركس.

هل يجب علينا أن نلتفت للراديكاليّة التحرّريّة لشارل فوريي علّنا نجد مصدر علاقات الحب السارتريّة؟ فنحن نعرف أن مبتكر الزُمَر[1] هو أيضاً مؤلف كتاب عالم عاطفي جديد، تلك الفانتازيا الفلسفية التي احتفت بالاكتفاء بامرأة واحدة غير معقَّدة، والتي ستبقى بلا مثيل لها حتى عام 1967، كما أطلقت اليوتوبيا الفرنسيّة حملة ضد الزواج. «لم يكن للحب في أي من الحضارات مَساراً صريحاً ومشرّفاً أبداً»، هكذا كتب فوريي. «أردنا أن نموضع الشرف في الحب الحصري: ولكن التجربة تثبت عكس ذلك، فالحضارة لم تنتج في عالم الغزل

---

(1) الزمر أو الفالانيستير، هي أساس مشروع اشتراكي طوباوي اقترحه المفكر الفرنسي فوريي ويقوم على تجميع الناس في زُمر أومجموعات تقوم حياتها على الملكيّة المشاعيّة والحب الحر.

سوى رجال غِلَاظ ومغفّلين يتخفّون وراء العبارات المعسولة والرقة، ونساء دنيئات ومخادعات يتوارَيْن خلف الخجل والإخلاص». أكان الحب الجماعي يمارَس في السر، وهل كان عدم الإخلاص منتشراً في المجتمع بكامله؟ لماذا نستمر إذن في توصيفه بالجريمة، أو بالضعف المُدان؟ «إنها حضارة مقزِّزة» تلك التي لم تستطع أن تستخلص من «أروع أنواع المشاعر» الذي هو الحب، إلّا «آخر درجات العلاقة، الدرجة المدغّمة، درجة الزواج». وهكذا فقد اقترح فوريي عصياناً تاماً للجنس الإنساني ضد كل التشريعات التي تتطلب منه «هذا الإخلاص العاطفي السرمَدي والذي يفرض الزواج قانونه».

إلا أن لا شيء مشتركاً بين مجتمع الوفرة الجنسيّة الذي احتفى به فوريي، وحشد جامح، يمثل نوعًا من المجموعات الثلاثية التي عُمّمَت اجتماعياً. كان يتخيّل نظاماً معقّداً وشديد المنهجيّة «للحب المحوريّ» الذي يسمح لكليهما بتنمية علاقات عاطفية محبّبة، سواء تضمنت الجنس أم لم تتضمنه، إنه لأمر نادر في عصر البورجوازيّة المورالينية المسيطرة. ولم تكن النساء غائبات فقط من تصوّر فوريي، إنما رأى أن عليهن أن يستفدن من هذا الابتكار الأخلاقي. بل ذهب إلى تصور أن ربَّة عائلة يمكن أن تقدَّر أكثر بسبب «حساسيتها المتّسعة» لحب سبعة رجال في نفس اللحظة، وبالتكثيف ذاته، أكثر منه بسبب العناية الفائقة التي توليها لأطفالها.

هل كان الثنائي سارتر ودو بوفوار حواريَّيْ «العالم الهارموني» لفوريي؟ عموماً، إن فكرة أن الإخلاص يمكن أن يكون حقيقياً، حتى وإن كان غير حصريّ، تبدو مشتركة بينهما، سارتر وفوريي، والإيمان

الأعمى بالصراحة كذلك. وبالنسبة لسارتر أكثر من فوريي، في «الحياة الخاصة» المحاصَرة بالنفاق البورجوازي، تستطيع العيوب الروحيّة أن تتنامى، بالطرق السريّة. وعلى كل فرد أن يتحمل مسؤولية رغباته علانية، فالمجتمع المثالي يشبه بيتاً من الزجاج، وهي فكرة تذكّرنا بسجن الرؤية الشاملة (بان أوبتيكون)[1] المقلق الذي تخيَّله جيرمي بنثام.

نقطة أخرى مشتركة تتمثّل في فكرة التحرر الممكن من الغيرة. ويرى فوريي أنها مشاعر باتت محاصرة بشكل ملحوظ في مجتمع يحكم على كل شيء فيه بالعلانية. سنكون فيه «ضمانات حقيقية» ضد الإفصاح عن الخيانة. أهي زلّة فوريي؟ هذا الانشغال بالحصول على «ضمانات حقيقية» ضد الخيانة له صدى بورجوازي من قِبل شخص تحرّري أشعث. لقد ظلت الغيرة شركاً بالنسبة لكل المجددين العِظَام في ما يتعلّق بالحب.

مع ذلك هناك نقطة يختلف فيها سارتر تماماً عن فوريي: وهي درجة التورط في العلاقة الشهوانية. لم يكن يهدف إلى فك الارتباط بين الجنس والاحترام. بل، على العكس، أراد فوريي إعادة الاعتبار للحب الجمعي كطريق مفضّل «لأكثر الأوهام العاطفية رقيّاً». في عالم فوريي «لا ينبغي أن نتملك البشر إلا بعد أن نثبت لهم مشاعر حقيقية» كما شرح بالتفصيل في كتابه العالم العاطفي الجديد. باعتباره يوتوبيّا لا يعرف الخوف، سعى إلى توفيق ما اعتبره الميراث الثقافي الغربي غير المتوافق:

---

(1) Panoptikan، هو سجن صممه الفيلسوف الإنجليزي بنثام، يضمن فيه رؤية السجين في كل لحظة وفي كل جزء من السجن، واعتبره ميشيل فوكو رمزاً لهوس المجتمع بفكرة الرقابة التامة. (المترجمة).

رهافة مسيحي من أطرويش[1] ومداهنة ميسالينا[2]. لن نستطيع الحديث عن ذلك أكثر من سارتر الذي كان دونجواناً جامعياً غير متناسق في معظم الأحيان، وسادياً بصراحة تقريباً، وكان يكثر من العلاقات العابرة من دون تمهيدات ولا مستقبل، بل ومن دون متعة في بعض الأحيان، مع شابات ضعيفات وهشّات أحياناً. وحكاية الإفضاء الحزين التي وصلت إلى دو بوفوار عن طريق بيانكا بينينفيلد الصغيرة تُظهر ذلك جلياً.

أصبح الزوج سارتر- دو بوفوار في سنوات الستينات مثالاً للفوضى الجنسيّة اللاهية الجديدة. وتجسيداً في نظر كاتب مثل كوررزيو مالابارت، وكثيرين غيره، لـ عرّابين ملعونين «ولقطيع شرس وخسيس من أبناء الحرية». ومع تحرر الثنائي الوجودي فنحن لا نزال بعيدين عن الجنسيّة الاشتراكية التي يغتبط فيها الجسد حقاً، ويستجيب بحرّيّة لكل صرخات الرغبة، لم يكن ذلك بالتأكيد محور قضيّتهما. كما أن سارتر اعترف في مناسبات عدة بأن مزاجه بارد، وأنه كان أي شيء سوى رجل حسّي. «مجرد متعة بسيطة في النهاية، ولكنها دون المستوى»، هذا ما نقله لجمهوره في حوار أجري معه في عام 1974.

---

(1) تقع مدينة أطرويش أو «تروا» شمال شرقي فرنسا، على نهر السين. وقّعت فيها معاهدة إطرويش في عام 1420، والتي هدأت حرب المائة عام. وُجدت مدينة إطرويش منذ عصر الرومان، وفي القرون الوسطى أصبحت لها أهمية كبيرة تجارياً. كما حاول يوحنا دوق بورغونيا عام 1417 أن يجعل تروا عاصمة لفرنسا. (المترجمة).

(2) فاليرا ميسالينا عرفت باسم ميسالينا، وهي الزوجة الثالثة للأمبراطور كلوديوس، وتمثل المرأة الامبراطورة في الدولة الرومانية القديمة. وعرفت بقوتها وتأثيرها في المجتمع، وقد أعدمت في مؤامرة خُططت ضد زوجها. (المترجمة).

لقد كان سلوك سارتر- دو بوفوار الجماهيري قائماً على مطابقة الواقع الفعلي مع ما يجب أن يكون عليه، في الحب كما في بقية الأمور. الجدية الدوجمائيّة أكثر من ألعاب الحب والمصادفة. وأقاما -بإرادة قصديّة - القدّاس في إخراجهما للاأخلاقيتهما الجنسية كي يصبحا حواريّ ميرتي وفالمونت. أرادت الماركيزة المنحرفة التي أبدعها لاكلو أن تمارس حبكاتها الجنسية المرهَفة بهيمنة فرديّة تماماً، من دون أي وهم أو مطالبات تقدّميّة عما يتطلّبه المجتمع لأخواتها. ولأن دو بوفوار كانت معاصرة لحصول المرأة على حق التصويت، فقد اعتقدت أنها أسهمت في مسيرة تحررها.

الحب، خطر قاتل للمرأة

عند قراءة الجنس الثاني، نلاحظ أن كاتبته لم تكن متفائلة على الإطلاق إزاء الفرص المتعلقة بتلك الثورة. بل ونشعر أن فرقاً راديكالياً كان قائماً وسيظل، ربما للأبد، في نظر دو بوفوار، بين الرجل والمرأة في العلاقة العاطفيّة. وهو ما نظّرت له دو بوفوار، بحماسة مريرة، في نهاية تلك الدراسة الفكرية المهمة ، التي ظهرت في عام 1947 والتي أصبحت أحد أهم الأعمال التي تحدثت عن النسويّة العالميّة. هنا ننفذ إلى قلب الفكر البوفواريّ عن الحب، تلك الكلمة «التي لا تحمل المعنى ذاته عند كلا الجنسين» كما قالت هي معتمدة على كتاب العلم المرح لنيتشه[1].

تبدو المرأة في الكتاب ككائن معوّق، على الأقل هذا ما كانت تصفه دو بوفوار في شبابها، وأنها نتاج مجتمع بطريركي، وقهري بشراسة،

---

(1) Le Deuxième Sexe, 2ème partie, «L'expérience vécue», chap. XII, «L'amoureuse».

خاضعة للذكور منذ طفولتها، تابعة مادياً، ومنغلقة داخل العالم المتقزّم «للمؤنث»، فالمرأة ليست رجلاً مثل الآخرين. أن تتحد مع فاعل رجولي لهي الوسيلة الوحيدة للنفاذ إلى الهيمنة. إذن فإذا استسلمت المرأة للحب فذلك لتتمكن من العيش، كما ترى دو بوفوار.

وتكمن المفارقة المؤلمة في أنه إذا كفاها الحب فعلياً، ووفّر لها كل ما تتوقّعه منه، وعرفت من خلاله الاندماج الكامل مع عاشق يعتمد عليها كما تعتمد عليه، فلن يعود للحب سببًا للوجود عند المرأة. كما أن العاشق الذي يبدي رغبة في الاستسلام التام لا يوفر لها السبب هو أيضًا ، أي استعادة الطمأنينة التي تبحث عنها. أما الرجل الذي سيكون تحت سيطرتها بالكامل فلن يستطيع بعد الآن أن يلطّف أو يبرر عجزه عن أن يكون معها. وهكذا يكون الحب تراجيدياً بالضرورة عند المرأة.

طوّرت دو بوفوار نوعاً من الظاهراتية، مرهَفًا قائمًا على قضيتها، فيما يتعلق بالنظرة التي يوليها كل منّا لجسد المحبوب مستلقياً على السرير على أحد جانبيه تبعاً للجنس النوعي من ذكر وأنثى. إن الراوي في رواية البحث عن الزمن المفقود اغتبط حين رأى ألبرتين نائمة، فالطمأنينة التي تغلّف لحظة النوم تُعَدّ تهدئة موقتة لهذيان الملكيّة الحصريّة[1]، على الأقل لا تنتمي لغيره في هذه اللحظة. إلا أن المشهد ذاته يأخذ مساراً آخر عند المرأة، كما أكدت دو بوفوار استناداً لنص غير عادي لفيوليت لودوق[2].

فنوم الرجل بالنسبة لها يُعَدّ، على العكس، نوعاً من التخلي غير المغتفر، ويكاد يكون خيانة. «بالنسبة للمرأة لا يجب أن يأخذ الرب،

(1) قالت بوفوار إنه حتى ولو كانت ألبرتين هي ألبير متنكرًا لا يغير من الأمر شيء، وأن سلوك بروست يجسّد، من كافة جوانبه، السلوك الذكوري.

(2) Violette Leduc, Je hais les dormeurs, Le Chemin de Fer, 2006.

أو الرجل قسطاً من الراحة من ملازمتها: فتتأمل المرأة ذلك المتعالي المنتَقد بنظرة عدائية». إنها تكره ذلك الجمود الحيواني «هذا الجسد الذي لم يعد موجوداً من أجلها بل لذاته». وتلخّص دو بوفوار قائلة: «العشيق يوقظ عشيقته كي يعانقها، أما هي فتوقظه كي لا ينام». وتستطرد في بضع صفحات كاشفة أن تاريخاً طويلاً من عدم الفهم بين الجنسين يقبع وراء المشهد الكوميدي الذي نراه آلاف المرات لهستيريا العتاب المسيطرة على الفتاة أمام حبيبها الذي ينام مبكراً ويتركها.

ومع ذلك، هل يسعنا تخيّل زوال عدم الفهم يوماً ما، يوماً لا يعود فيه الحب، بالنسبة للمرأة، تلك المحاولة اليائسة لتخطي عبوديتها بالوقوع في عبودية مضاعفة؟ إن حباً «قائماً على المساواة» يظل مجابهاً طوال الوقت، كما كتبت مؤلفة الجنس الآخر، ذاكرةً على عجالة، العلاقة بين كيو وصديقته ماي في الظرف الإنساني لأندريه مالرو André Malraux كنموذج. إلا أن ذلك النوع من العلاقة يتطلب حصول المرأة على استقلاليتها الاجتماعية وتنميتها أهدافاً خاصة بها أولاً. «إن اليوم الذي ستتمكن فيه المرأة من الحب بقوّتها لا بضَعفها ، لا لتهرب من نفسها بل لتجد نفسها، لا لتمحو بل لتتأكد، لهو اليوم الذي سيكون فيه الحب بالنسبة لها، كما هو بالنسبة للرجل: مصدراً للحياة وليس خطراً مميتاً». لا نعرف ما إذا كانت دو بوفوار نفسها، عند كتابة تلك السطور، تعتقد بأن هذا اليوم قد حلّ بحياتها أم لا.

سيمون وقعت في الحب

طالما تعرضت سيمون دو بوفوار للسخرية بسبب الجانب السوقي في مفرداتها العاطفية. من المؤكد أنها تتناسب والخشونة التي تقترب من كونها عسكرية في ترتيباتها مع سارتر، وكلمات فرقة الحراسة

التي تستخدمها غالباً وهي تكشف له حميميّة «صديقاته الحبيبات» اللواتي غالباً ما يكنّ طالباته في السنة النهائية. لقد كتبت عن الليلة التي قضاها مع بيانكا لامبلا، التي كانت تبلغ من العمر ستة عشر عاماً، أنها «ليلة مثيرة للشفقة». وأنها مرّرت الفتاة لسارتر بعد بعض التجارب السحاقيّة، في حين فضّ سارتر بكارتها من دون اتفاق مسبق بينهما. بعدها أصبحت «متولِّهة، ومقزِّزة مثل نوعية رديئة من كبد البط...».

أما مع الرجال، فتتحول اللهجة، على العكس، إلى الرقّة التامة. والمُنَظِّرَة المتزمّتة تصير شهرزاد الخاضعة، مجرد خطيبة لفيرون، أوصورة كاريكاتوريّة لليدي تشاترلي، يخفق قلبها من الذوبان وهي تشاهد رجلها نائماً. كتبت ذات يوم للكاتب نيلسون ألجرين، والذي وعدته يوماً ما في رحلة جمعتهما أن تكون حورية منزله، أرسلت إليه تقول: «إنه حيوان مدمِّر لقلبي ولحبي العميق».

مثل جَواري العصور الماضية، اختارت أن تُدفن في ما حدّده لها من مساحة: «سأكون عاقلة، سأغسل الملابس وأرتّبها، وسأذهب بنفسي لأشتري البيض والخبز، ولن ألمس شعرك أو وجنتيك ولا أكتافك من دون إذن منك».

ومع ذلك لم تقبل أبداً أن تترك شرنقة سارتر ومجد باريس لتعيش قصة حب كاملة عابرة للمحيطات مع ألجرين. فقد عرض عليها حبيبها الأمريكي في مناسبات عدّة أن تتزوجه قبل أن يتركها، حيث لم يعد يحتمل ما تضعه من حدود تقيّد علاقتهما. في سن التاسعة عشرة شرحت دو بوفوار في يوميات الأسباب العقائدية التي تجعلها ترفض فكرة الزواج: «إلرعب من الاختيار النهائي، فنحن لا نحدد ارتباطنا لليوم فقط، بل وللغد، وهذا ما يجعل الزواج لا أخلاقي في جوهره».

مع هذا، قد نفكّر أنها باسم اختيار «نهائي» أيضاً ومُلزِم، وهو اتفاقها مع سارتر، رفضت بإصرار أن تعيش مع من كان حبّها الشهواني الأكثر تأثيراً في حياتها. أحياناً يكون الارتباط الحر مُلزِماً أكثر من طقوس العروض العسكرية الرسميّة أمام عمدة المدينة.

وقد نرى أيضاً في قرار دو بوفوار الذي جعلها تتخلّى عن ألجرين، اتساقاً مطلقاً مع ما كتبته الفتاة الشابة عن نوعية الحب الذي تنتظره مستقبلاً. حب «يصاحب» حياتها، ولا يمتصّها بالكامل. حب يسمح لها بأن تكون ذاتها، وتصبح ما أرادت دوماً أن تكونه: كاتباً معروفاً ومحترماً. ألّا تعتمد على من لا يعتمد عليك، وأن تبدأ العلاقة العاطفيّة بمشاعر عنيفة وعابرة في آن. مرة أخرى، نجد الحكمة الرواقيّة تقبع أسفل المظهر الوجودي اللامبالي.

حين يتمرّد التابعون

إن العشاق التابعين هم أفضل من يصف العنف الجوهري «للاتفاق» المبرَم بين القامتيَن الأدبيتيَن سارتر ودو بوفوار، هي الشخصيات البينية التي تخللت علاقة الحب بينهما. يَعَدّ كتاب مذكرات فتاة منزعجة لبيانكا لامبلان، والذي ظهر في عام 1993، تجريدًا عنيفًا جاء ليدحض ملحمة حبهما، ويفضّ سذاجة الجنّة الوارفة التي يحيا بها الحب المتحرِّر. منحرف شاذ، وملتمسة لرضا الطالبات، هاتان هما الصورتان اللتان بدا عليهما الزوج المجيد للمشهد الثقافي الفرنسي في القرن العشرين في عيون عشيقتهما السابقة. إنهما شَرٌّ مستطير ذو رأسَين، مثل الزوجَين فورنييري، المجرمَين اللذين روّعا الريف الفرنسي في سنوات التسعينات حين كانا يبحثان عن العذارى لإرهابهن. وهو

الانطباع الذي تشاركته مع كلود ليفي شتراوس الذي، بعد قراءة الضيفة في عام 1943، صرّح بأن سارتر بدا في عينيه من خلال حوادث الرواية «كائن نَجِسٌ وسافل».

أما الشهادة المؤلمة والتراجيدية للخسائر المتسببة عن هذا «الاتفاق»، فإنها شهادة نيلسون ألجرين. عندما ظهر الجزء الثاني من مذكرات دو بوفوار تحت عنوان قوة الأشياء، ونشرت مجلة هاربرز مقتطفات مثيرة منها تحت عنوان «مسألة الإخلاص» وعن حكاية لقائها العارض بألجرين، نقرأ هذه الاعتبارات العامة: «قليلون هم الأحبة الذين يلتقون على الاتفاق ذاته كما فعلنا سارتر وأنا، المحافظة، من خلال بعض الفواصل، على «بعض الإخلاص». «لقد كنت مخلصاً لك على طريقتي، سينارا». لكن المشروع له مخاطره [...] وإذا كان الحليفان لم يسمحا لأنفسهما إلّا بتجارب جنسية عابرة، فما من صعوبة، ولكن في هذه الحالة تكون الحرية التي اختاراها لا تستحق اسمها. كنت أنا وسارتر أكثر طموحاً؛ فقد أردنا أن نعرف أنواعًا من «الحب العارِض»، ولكن انتابنا تفكير مُراوِغ: كيف سيتأقلم الشريك الثالث مع الصيغة التي اتفقنا عليها؟

هذا «الثلث» محل النقاش، كان نيلسون ألجرين، والذي تأثر كثيراً ببرودة العبارات ونطاق الكذب الاستعادي الذي اكتشفه حينها، حتى إنه اتخذ قراره بنشر رَدّه على دو بوفوار في صورة نصَّين رهيبَين في مجلة هاربرز ومجلة أدبية أخرى صغيرة، في ميدويست، متسائلاً عن الكُنه النوعيّ لكتابة عشيقته السابقة أكثر بكثير من إخلاصها في ما تحكي. ولقّنها درساً في الفلسفة العاطفيّة في النص الأول والذي حمل عنوان «القضية: سيمون دو بوفوار».

«إن عالم سيمون دو بوفوار لهو صورة منعكسة على مرآة، لم يحيا فيها أي إنسان. وهو ما يفسر أن شخصيات رواياتها، حتى وإن كانت شخصيات مستوحاة من الحياة الواقعية، هي شخصيات بلا حياة على الصفحات البيض». كانت جاهزة لفعل أي شيء لتحافظ على حريتها، إلا أن تأخذ مخاطر حقيقيّة! «وشعرت مدام دو بوفوار أنها تستطيع أن تتباهى بعدم الإخلاص لجان بول سارتر. إنها الخدعة الجميلة!» هذا ما كتبه برهافة مريرة، «إنها حكاية جنّيات معكوسة. وثرثرة محتالة لمثقفة سيئة المظهر. جولة لامرأة بائسة، بل ومجرمة». تلك كانت وجهة النظر النهائية للرجل الذي أرّخ بهذا اليوم نهاية أي صلة تربطه بها. «حين نعتقد أننا نمر بتجربة الحب العارض، يكون عقلنا قد تلف تماماً. إذ كيف يمكن للحب أن يكون عارضاً؟». ظلّ السؤال الذي طرحه ألجرين المجروح حتى الموت خطيئة. ولم تكن اضطرابات سارتر الموازية تحمل إجابة عنه بلا شك.

ارتباك الفيلسوف سارتر

أحبّ حتى فقد عقله، تلك كانت قراراته في شبابه. التصق بنساء لم يرغبن في مشاركته، وكنّ زميلات في الفريق المثقّف، ولم يثرن فيه أي رغبة لوقت طويل، وهذا ما كان يقوله لكل واحدة منهن. دولوريس فانيتي على سبيل المثال، حيث تجهل دو بوفوار أنه اعتزم الزواج منها في فترة من حياته. ولينا زونينا المترجمة الروسية التي عرض عليها هي الأخرى الزواج، ليؤكد عبوره إلى الغرب. «كلما قرأت مذكرات كستور، كلما أدركت أنني لن أعتزم تغيير الأمور أبداً. وذلك يقتلني... كتب لها هذه العبارة قبل أن يقطع علاقته بها. ولكنك أنت وكستور أسستا معاً شيئاً مميزاً جديراً بالإعجاب ولكنه خطير بالنسبة لمن

يقتربون منكما». أحقاً فكّر يوماً ما في فسخ التعاقد بينهما؟ في ترك دو بوفوار؟ لا شيء مؤكداً على الإطلاق. دائماً كان يرجع إليها كأنها جائزة انحرافاته ومهازله غير المسبوقة التي لا تزال تُدهِش من يسمعها حتى الآن.

ومع النزعة الاستخانوفية[1] الموصومة بالقبح التي استلزمت صبراً حتى تتمكن من إغوائهن جميعاً، كانت ساعة المجد الفلسفي حيث سيوقعهن سارتر في حبائله. طالبات المدارس اللواتي «يطويهن تحت جناحه» من دون نزهات رومانسية أو كثير من المجد. ممثلات مبتدئات طمعن في أن توصلهنّ شهرته ككاتب مسرحي لاعتلاء خشبة المسارح، مترجمات يابانيات وبرازيليات إلى جانب غيرهنّ من المشاريع السهلة الأخرى. كتب ذات يوم إلى دو بوفوار في إحدى رواياته واصفاً نفسه «ماذا لو كنت على الأقل رجلاً شهوانياً، إلا أن حتى هذا العذر لا أمتلكه». نلحظ غيظاً انتقامياً سادياً مؤكَّداً في علاقات ذلك الرجل، المعقّد من قصر قامته، بالنساء، وهو الذي اعترف عن طيب خاطر أنه كان يتفادى أن يوقف أحد المارة ليسأله عن الطريق خوفاً من أن يحرجه هذا الأخير. بالتأكيد كان للحب هذا الجانب السوداوي الانتقامي عند مَنْ وصفه السيناريست جون هيوستون، بعد أن استقبله في ضيعته الإيرلندية في نهاية سنوات الخمسينات بأنه «أقبح مما يمكن لإنسان أن يكون».

---

(1) هي رمز للإنتاجية المفرطة التي تحطم الأرقام القياسية، تعود التسمية إلى الكسندر ستيخانوف، عامل المناجم السوفياتي الذي استخرج في يوم 30 أغسطس 1935 أربعة عشر ضعف الكوتة المطلوبة من كل عامل. مذاك، تستخدم كرمز للإنتاجية المفرطة. (المترجمة).

هكذا وصل سارتر العجوز إلى غسق المشاعر الحقيقية، هذا الرجل الذي لم يرد أبداً، مثله مثل دو بوفوار، أن يؤسس عش زوجية، كان له في نهاية المطاف ميراث أكثر العائلات قسوة. كل نساء الماضي، العصبيات في معظمهن والمتوحّدات، كن يعتمدن عليه مادياً ويقمن على بعد عشر دقائق من منزله من دون أن يعرفن وظيفته الحقيقية في وقت علاقتهما. آرليت ألكايم عشيقته السابقة والتي تبنّاها رسمياً كابنة له لم تكن تعرف أنه لا يزال يقابل واندا، التي كانت تجهل أنه لا يزال ينام مع ميشيل، العشيقة السابقة لبوريس فيان، عشيقها المنتظم حتى هذيانه الصحي الذي وصفه في كتاب مراسم الوداع. لم يقل لميشيل إنه ينام بانتظام عند دو بوفوار التي تحوّلت إلى «الأم السامية»، والتي يضع على كاهلها تأخّراته وافتقاداته وإخفاقاته. «ممرّضة الحي»، هكذا وصف سارتر نفسه لصديقه الشاب المعالج النفسي ج. ب. بونتالي. يا لحظك! فالمرضى يأتون إليك ويدفعون لك. أما في حالتي، فأنا من يقوم بالجولات وأنا من يدفع تكاليفها»[1].

بعد مشقة كبيرة وجدنا رسولاً آخر عنيفاً للصراحة التي أكثرت من الأكاذيب الصغيرة ومن ألاعيب أخلاقية أخرى بسيطة ونقيّة. وجدنا بعض النساء اللواتي كذب عليهن أكثر مما فعل مع تلك التي اختارها من بينهن جميعاً. أيعني ذلك أن «اتفاق الحقيقة» كان اتفاقاً بين بُلَهاء؟ قد نضحك كثيراً عند تصور أن دو بوفوار تحولت إلى زوجة «درع» يستخدمها الرجال للاحتماء من ويلات عشيقاتهن. هؤلاء من

(1) Propos recueilli par Hazel Rawley et cité dans Tête à tête. Beauvoir et Sartre, un pacte d'amour, op. cit.

يحبون أن يتعرضوا لمسألة تحرر المرأة كأمر ذي وجهين أو قرين لعبوديتهن الثابتة والتي لن يغير موضوع تحررهن منها شيئاً. بقي حب سارتر وحنانه الهائل «لزوجته غير المتكافئة» «المتناغمة مع ذلك مع شخصيته». وبعد سنوات عدة كتب عنها: «آه يا سحر قلبي وعيوني، يا مالكة حياتي ووعيي وعقلي». ودائماً وأبداً في نهاية حياته كرر هذه العبارة «ستظل هذه الحقيقة للأبد، أنني أحببت شخصاً بكل قواي، من دون عشق أو روعة، ولكن من أعماقي».

الحب أو العدم

«بلا عشق ولا روعة، ولكن من أعماقي» بهذه العبارة وصف سارتر علاقة استمرت طوال حياته. من الصعب تقييم نجاح الحب أو فشله. مستحيل تقريباً، بل ومن الغباء أن نفعل. أكان حبهما هوالجرة التي سعى هذان الدماغان الأخطبوتان لخنقها بشكل متواطئ؟ أو الفقاعة الوقائية من أخطار أكثر خطورة؟ بتلك الطريقة العادية جداً، والبعيدة بلا شك عن الرفعة التى حققاها جماهيرياً، استطاعا أن يزدهرا من خلال الحب بلا شك، ربما لأنهما وضعاه في مرتبة أعلى من مرتبة الحياة ذاتها: إنه الإنتاج الفكري. بعيداً عن الحفلات الجنسية الماجنة التي أصبحا رمزاً لها أو التي اشتهرا بها، لا بُدّ من الأخذ في الاعتبار العمق الأسود التراجيدي الذي ترتكز عليه رؤية سارتر للحب إذا أردنا الحكم على علاقتهما.

قليل من المفكرين هم مَنْ ذهبوا بعيداً كما فعل سارتر في الإجابة عن سؤال «لماذا نحب؟ ولماذا نريد أن نكون محبوبين؟ كما تعد فريدا في الكتابات الفلسفية توصيفات العذاب العاطفي كما كتبها سارتر شاباً

في الوجود والعدم وتكشف عن حساسية مفرطة ومروِّعة. ونحن هنا بالفعل بعيدين عن التصورات البريئة في كتاب أبناء سمرهيل الأحرار، وأقرب إلى تلك الأشعة الغامضة التي تعكسها العبارة الشهيرة في نشيد الإنشاد: «الحب عنيف مثل الموت، والغيرة كئيبة كالمقبرة». إنها لقضية غامضة أن الحب لدى سارتر متأرجح دائماً بين السادية والمازوخية. وهي قضية حاولت علاقته بسيمون دو بوفوار أن تدبّر مخرجاً منها.

يقوم النظام الذي وضعه سارتر في الوجود والعدم على أن الآخر هو من يسلبني ذاتي. وهو يبقيني تحت نظره، ويقيّمني، وهو يصادرني ويضع لي حدودي. ولكن انطلاقاً من المصدر ذاته يكون الآخر هو من يجعلني أُعرّف ذاتي ويساعدني أن أكون، أي أن «يوجد كيان يمثّل كياني». حتى في أكثر أشكال الحب سطحية وجنسية، ينبعث الحب من مشروع انتعاش الذات. وليس للأمر علاقة بمجرد رغبة في التملّك الجسدي. مهما كان ما يمكن أن يدّعيه الباحث عن التمتع الحيواني، مَنْ لا يبحثون إلّا عن مضاجعة امرأة لن يخدعونا في هذا الصدد، فما يريدون تدليكه بأيديهم، وما يرغبون في طيّه بقبضتهم هو حرية الآخر». فالرغبة هي حرب بين حريّتَيْن. إنه يضعني بالكامل داخل اللعبة ويعرّضني للخطر حتى آخر درجة ممكنة، فنحن لا نتعامل مع الحب كما لو كنّا نشرب كوباً من الماء كما أكد سارتر.

كذلك ليس للأمر علاقة بتعبير مثل «إرادة القدرة». فالإنسان المستبد يسخر من الحب ويكتفي بالخوف. إن حرية الإنسان هي التي تدفعه للذوبان الكامل في الحب وهو نوع من تخصيص الذات أشد تعقيداً من الرغبة البسيطة في السيطرة على الآخر. فهو عبودية تامة تكاد تخاطر بأن تصير مثيرة لاشمئزاز العشيق بكل صراحة. فما من رغبة في

تملّك إنسان ما، بأن يصير لُعبة بشرية، ولا في تقديم عاطفة الحبيب كنتيجة حتميّة نفسيّة وأقل اجتماعيّة.

كما لن يكتفي أحد بحب نقيّ وبسيط نابع من قرار حر، وارتباط إرادوي، حب لا يضمر أي نيّة للهجران، أو للقهر. هل يحتمل أحدنا أن يسمع عبارة «إني أحبك بإخلاص وأقسم لك على ذلك؟» لا يمكن الاكتفاء بعاشق تتلخّص مشاعره في أن يكون محبوباً، «أن يعيش قصّة»، أن يوجد في النظرة الزائغة للآخر. أو بالأحرى، إذا اكتفت الغالبية بذلك نكون أمام صورة زائفة وفقيرة لفكرة سارتر عن الحب الحقيقي.

هل يعني ذلك أن المشاعر العاطفية هي نوع من الغنيمة الخبيثة؟ التي تقتضي حرية الآخر واستلابه في آن واحد؟ إذن الميزان مشدود تماماً؛ مبالغة في تبعية الفرد قد تُحوّل الحبيب في أي لحظة إلى كائن بائس، وأقل شك في برودة تجعله بغيضاً. «يطلب العاشق القَسَم ويغضب من القَسَم، كما كتب سارتر في إحدى صفحات الوجود والعدم. ويكمل: يريد أن يكون محبوباً بحرية ويطالب ألا تكون تلك الحرية حُرّة بعد الآن. فهو يريد أن تتحدّد حرية الآخر لتصير حباً، وذلك لا ينطبق على بداية المغامرة فقط بل على كل لحظة. وأن تكون تلك الحرية أسيرة لذاتها، أي أن تدور على نفسها، كما هو الحال في الجنون وفي الحلم، فترغب في الأسر». إن ما يريده العاشق في حقيقة الأمر هو حرية تمارس التحديد الشعوري وتأخذ بيده إلى لعبته الخاصة.

هكذا يتأرجح الحب بين نقيضتَيْن محتملتَيْن، نقيضة «حب الفشل» كما كتب سارتر «المازوخية من جانب والتي عن طريقها تخليت عن حريتي الثقيلة كي أدمّر نفسي تماماً، بالمعنى المزدوج للفظ، في

الاحتياج الإدمانيّ للآخر. وأستطيع عبر هذا السلوك أن أصبح مذنباً في حق نفسي لأنني أسعى لاستلابي المطلق، ومذنباً في حق الآخر لأنني منحته الفرصة ليكون مذنباً، أي أن أفقد حريتي بشكل راديكالي». ونقيصة السادية من جانب آخر، وهي سلوك من ينمّي الرعب من المتاعب العاطفية ويعتبرها حالة مخزية. إن المزاج السادي يجنح إلى اللاتبادلية في العلاقة الجنسية، فهو يريد أن يقتل النعمة التي يستغلها ليظهر في صورة الكائن الغاشم ويختزل الآخر في صورة وعاء من الأعضاء، وأداة لتمتّعه. وهكذا يلعب الإنسان السادي الدّوْر كما لو «كان كذلك طوال الوقت» وفقاً لسطور سارتر، ويستمتع بفضل «مواقف غامضة ومتناقضة». هذا السلوك تم تحليله بدقة في الوجود والعدم، بعد أن مزجه الكاتب ببعض من غزواته العاطفية والجنسية. كما لا بُدّ وأن نتنبّه لما افترضه من تشخيص ليفسر الذائقة السادية في رؤية الآخرين الذين ينتفون إلى هذا الحد: إنه قلق عميق في العلاقة مع الآخر.

كل ما كتب من صفحات عن الحب في النسخة المكتظة التي صدرت في العام 1943 لسارتر كانت مستلهَمه من علاقته بواندا أثناء الحرب العالمية الثانية. وسارتر الذي أصبح في ما بعد أستاذ الفلسفة الباريسي، لم يكن يرغب في أي شيء آخر في الحياة سوى أن يصبح الرجل الصيني المناسب لتلك الشقراء صاحبة المنزل، بل وصرّح لها بما هو أكثر جدية من الحب، أن يتزوجها، ولم يكن ذلك إلا بغرض انتزاع إذن عسكري في باريس. ترى هل كان بحاجة لتوضيح أن تلك الصفحات لم تكن من إلهام «كستور العزيزة». إن العلاقة مع دي بوفوار تبدو أنها تأسست كمتراس لمواجهة التيه. وسدّ لمواجهة الذعر الناتج عن التناقضات المؤلمة لحب عاشه بحق وحقيق.

يبقى السؤال بلا إجابة. سؤال حول أي نوع من الحب هو الذي ألهم سارتر عند كتابة صفحاته الأكثر جمالاً والأكثر طمأنينة والأكثر موضوعية عن الحب، أهو حبه «الحميم» مع دو بوفوار أم علاقات الحب الموازية «العشقيّة والرائعة»؟ ربما الاثنين معاً. إذا كان هناك ما يميز كاتب الوجود والعدم راديكالياً عن بقية من كتب عن فلسفة الحب، فهو امتداح النعيم الذي كان يرغد فيه. حالة لم يصفها أبداً باعتبارها متعة قضيبية، على الرغم من أنه لم يعرف التمتع بها إلا كاستثناء.

يعدّ الحب قضية متعبة عند سارتر إلا أنه قضية برّاقة أيضاً. إذا وجد العاشق نفسه غارقاً في القلق وكُره ألّا يكون سوى مجرد وسيلة للإشباع النرجسي للآخر، ويستطيع كذلك أن ينعم بالسلام في هذه الحالة، فهو، الناقص والهالك، بإمكانه أن يصبح «الفريد» بفضل النعمة التي يتمتع بها حين يحبّه شخص ما. يمكن أن يصير محمياً من أي نوع من عدم التثمين العارض، أن يصبح غاية في ذاتها، وقيمة مطلقة. وليس نسخة تقبع وسط آلاف النسخ ولكن تفرّد استثنائي. ليس غباراً مقدّراً له أن يسقط مرات عديدة في الصورةنفسها، وإنما «روح» بالمعنى الديني للكلمة.

هل الحب هو الأبدية الوحيدة على طريق عالم غابت آلهته؟ أندريه بروتون هو من افترض تلك الرؤية في الحب المجنون، حيث احتفى بالاندماج الكامل للحبيبين باعتباره الجسر الوحيد الطبيعي وفوق الطبيعي الذي قد يمتد في هذه الحياة. إن مفكّر السوريالية، جعل من نفسه عرّاب الحب الحصري ليصل إلى حالة النعيم التي تؤسس «لكل الألوان الضائعة لأزمنة الشموس القديمة». إلا أنه يرى أن الوقت يجعل

الحب يتآكل بالضرورة، ويجعل كلا الطرفين يفقد بعضاً من سماته الشخصية للآخر، ويقع في الحب، بشكل قَدَري، في مكان آخر بغية أن يجد المشاعر ذاتها. طريق لم يسلكه سارتر بالطبع، وهو الممارس النشط للحب المتعدّد، قادته مبادئ فلسفته الوليدة إلى كل الطرق الممكنة. ولم ينظّر للحب التحرّري إلا في مراسلاته فقط، اعتقاداً منه، ببساطة، أنه غير مبرَّر فلسفياً بشكل كاف.

يكتب سارتر في نوع من الهروب الصوفي يعبّر فيه عن ثقته في الحب: «جميل أن تكون لديّ عينان وشعر وحاجبان وأن أوظّفها بلا كلل في فيض من الكرم بشأن هذه الرغبة المتواصلة التي يثيرها الآخر بحرية. وبدلاً من أن نكون قبل الحب قلقين بسبب هذا الاضطراب غير المبرَّر، وغير القابل للتبرير، الذي صار وجودنا؛ وبدلاً من الشعور بأننا «زائدون على الحاجة» نشعر الآن أن هذا الوجود مستعاد ومرغوب في أدق تفاصيله بواسطة حرية مطلقة تمثل شرطاً له في الوقت نفسه. ها هنا أساس فرحة الحب حين تتوفّر: إذ نشعر أن وجودنا مبرَّر». أن أصير محبوباً، فأنا لم أعد عنصراً منفصلاً عن أساس العالم، أنا ذلك الذي عن طريقه يرى إنسان آخر العالم. أن أكون محبوباً، فأنا أصبح العالم نفسه. ماذا يمكن أن نضيف أكثر من ذلك؟ فلم يحدث أن كشفنا ما يدفع رجالاً ونساءً إلى أن يلقوا بأنفسهم ببوهيمية وبشكل متواصل نحو شعور يدمّرهم أحياناً ويضلّهم غالباً، وينقذهم في أندر الحالات.

الفهرس

* أود لانسولان

ولدت في مدينة تور في عام ١٩٧٣، درست الفلسفة في جامعة السوربون وعملت في مجلة النوفيل أوبسرفاتور منذ عام ٢٠٠٠ لتصبح مسئولة عن الثقافة والكتب، وخاصة النقد الأدبي والفلسفة. لمع أسمها بفضل اللقاءات الأسبوعية التي أجرتها مع أبرز الفلاسفة المعاصرين.

بالتزامن مع مسيرتها الصحفية تشارك في تقديم برنامجين في التليفزيون الفرنسي يتناولان أهم الأحداث الثقافية.

لها أربعة كتب منشورة اثنين منهم بالتعاون مع ماري لومونييه.

* * *

* ماري ليمونييه

مثل زميلتها، درست الفلسفة، وتعمل في مجلة النوفيل أوبسرفاتور، حيث تعتبر من أبرز المحللين في ميدان الفلسفة والثقافة عموماً. وقد شاركت في أكثر من ملفّ حول الإسلام. كما تشاركت مع أود لانسولان في إصدار كتابين.

* * *

* المترجمة

المترجمة دينا فتحي مندور حاصلة على ماجستير اشكاليات الترجمة من جامعة إكس مارسي بفرنسا، وعضو جمعية المترجمين الأدبيين في فرنسا وعضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة في مصر. شاركت بالعديد من المنح التدريبية كمتدربة ومدربة بوزارة الثقافة الفرنسية، والمركز القومي للكتاب بباريس، وكلية المترجمين الأدبيين بآرل ومركز إكلا بمدينة بوردو ومشروع كلمة للترجمة بأبو ظبي.

أهم ترجماتها رواية فاديت الصغيرة لجورج صاند، وكتاب «المرأة الثالثة» للفيلسوف جيل ليبوفتسكي، ورواية «صرخة النورس» لإيمانويل لابوري. ويصدر لها قريباً كتاب «مملكة الزائل» لجيل ليبوفتسكي.

الفلاسفة والحب

ماري لومونييه - أود لانسولان

الحب، ذلك الشعور المبهج بين كافة المشاعر الأخرى، يبدو صامداً في مواجهة الأفكار التي عبرت القرن الماضي، والتي حصرت الحب في الجنس: حبٌّ لطيفٌ ومرِحٌ ولا يتضمن أيّ تحديات حقيقية.

«يقولون إنه ما من تآلف بين الفلاسفة والحب!» أيعني ذلك أن الكثير من الفلاسفة لم يختبروا الحب؟ كلا فيما يبدو، وهذه هي قضية هذا الكتاب. وهي محاولة متواضعة للنظر في هذه النقطة بعدالة على طريقتهم المرتبكة، أو المختالة، واللاذعة في معظم الأحيان، بل والعدائية الشرسة التي انتهجها بعضهم، والحديث عن كل ذلك بلهجة حاسمة. فجميعهم في الحقيقة لديهم ما يقولونه لنا عن الحب، وعما يصاحبه من وَهْمٍ بالخلود، وما يولّده من معاناة، وعن الطريقة التي نطمح بها لترويضه.

إن دونجوانية سارتر الوسواسيّة، أو الغياب الاسطوري للرغبة عند كانط، أو الفشل الذريع المتكرر لنيتشة مع الفتيات الشابات، تعَدّ جميعها حلقات صادمة أو غريبة يستطيع كل منّا استخلاص دروس منها وتطبيقها على حياته الخاصة.

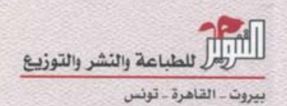
* * *

«هل يُعَدّ أفلاطون وكانط والباقون مرشدون عاطفيون؟ إنه الرهان الرابح لهذا الكتاب والمكرّس لكبار المفكرين ولعلاقتهم بصاعقة الحب، والرغبة والإنفصال».

مجلة ماري كلير

تصميم الغلاف نجاح طاهر





بيروت - القاهرة - تونس